إستعراض في تاريخ السلاجقة

تأليف الوزير العالم محمد بن محمد بن عبد لله بن النظام الحسيني

المتوفي سنة ٧٤٣ هـ

ترجمة وتحقيق د. حسين أمين

راجع الترجمة د. عبد النعيم محمد حسنين

Author: Mohammad ben Abdollah ben Alnizam Alhoseini
Titel: Review in the history of the Seljuks
Translation and Achievement: Dr. Hussien Amin
Publisher: Dar Almada
First edition: 2011
Rights Reserved: Dar Almada

اسم المؤلف: الوزير العالم محمد بن محمد بن عبد الله بن النظام الحسيني
عنوان الكتاب: استعراض في تاريخ السلاجقة
ترجمة وتحقيق: د. حسين أمين
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١١
الحقوق محفوظة: دار المدى

دار المدى للثقافة والنشر

سورية ـ دمشق ص.ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦ ـ تلفون ٢٣٢٢٢٧٥ ـ ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 of 7366 Tel: 2322275 - 2322276, Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail: al-madahouse@net.sy

بيروت ـ الحمراء ـ شارع ليون ـ بناية منصور ـ الطابق الأول
E-mail: almadahouse@yahoo.com

بغداد ـ أبو نواس ـ محلة ١٠٢ ـ زقاق ١٢ ـ بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail: al-mada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الإسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت «الكترونية» أو «ميكانيكية»، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

ISBN: 978-2-84306-090-2

استعراض في تاريخ السلاجقة

تأليف

الوزير العالم محمد بن محمد بن عبد الله بن النظام

الحسيني المتوفى سنة ٧٤٣ هـ

ترجمة وتحقيق

الأستاذ الدكتور حسين أمين

جامعة بغداد

راجع الترجمة

الأستاذ الدكتور عبد النعيم محمد حسنين

رئيس قسم الدراسات الشرقية

جامعة عين شمس/القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يسرنا أن نزوِّد المكتبة العربية بكتاب في تاريخ الدولة السلجوقية، ألّف ـ أصلاً ـ بالفارسية، فوجدنا من المفيد أن نترجمه إلى العربية حتى يستطيع الدارسون أن يستفيدوا منه الفائدة المرجوة، وهذا الكتاب هو العراضة في الحكاية السلجوقية لابن النظام الحسيني المتوفى في عام ٧٤٣هـ أي بعد زوال دولة السلاجقة الرئيسية في بلاد فارس والعراق بأكثر من قرن ونصف قرن من الزمان.

وقد اعتمدنا على النسخة التي حققها ونشرها المستشرق الألماني الدكتور كارل زوسهايم وطبعها في مطبعة بريل بلندن سنة ١٩٠٩ وأضاف إليها مقدمتين وذيلاً غير الحواشي.

وقد كان مؤلف الكتاب يعيش في العصر المغولي، في عصر السلطان أولجايتو فتعصب للسلاجقة لأنهم كالمغول من الأقوام التركية البدوية التي تجمعت فقوي جانبها واستطاعت أن تقوم بحملات، وتقيم دولة قوية مترامية الأطراف تستطيع

أن تمثّل دوراً مهماً على مسرح التاريخ وتؤثر في تاريخ غيرها من الدول والشعوب.

وكان ابن النظام الحسيني يعيش في عصر غلبت فيه الصناعات اللفظية والبلاغية على الكتابة بالفارسية نثراً وشعراً أيّاً كان نوع الموضوع الذي يتناوله الكاتب فظهرت هذه الصناعات في كتب التاريخ كهذا الكتاب الذي قمنا بترجمته وككتاب تاريخ البناكتي المعاصر له، وسائر الكتب التي ألّفت في ذلك العصر.

كما ـ كانت الكتابة تطعم دائماً ـ باقتباسات من القرآن الكريم ومن الأحاديث النبوية الشريفة ومن الحِكَم والأمثال والأشعار العربية والفارسية، وكان عرض هذه باقتباسات يتخذ دليلاً على ثقافة المؤرخ وإجادته للغة العربية، مما جعل المؤرخين يسرفون في عرض الاقتباسات ويباهون بعرضها. وأثرت هذه الاقتباسات في سياق الحوادث التاريخية بل وجعلتها أسيرة للصناعات اللفظية والبلاغية، وقطعت تسلسلها واتساقها، وجعلت قراءة مثل هذه الكتب وتفهمها صعباً عسيراً.

وقد حاولنا أن ننقل الكتاب بصورته التي ألّف بها، فنجعل الترجمة مصورة تصويراً صادقاً ـ قدر المستطاع ـ لما في الأصل من صناعات لفظية وبلاغية حتى يستطيع كل من القارئ والدارس أن يشترك في الحكم على الكتاب وتقويمه.

ويؤخذ على هذا الكتاب تذبذب مؤلفه من أحكامه على

أعمال السلاطين وإسرافه في الثناء عليهم، ونسبته أعمالاً إليهم لا تتفق مع الحقيقة التاريخية.

كما يؤخذ عليه أيضاً عدم دقته في تاريخ بعض الأحداث، وقد صححنا الأخطاء في ما كتبناه من الحواشي، حتى تتم الفائدة من ترجمة الكتاب إلى العربية.

والواقع أن الكتاب يُعد تقليداً لكتاب راحة الصدور وآية السرور للراوندي في طريقة عرض الأحداث والإكثار من الاقتباسات التي تمنع الترابط بين الأحداث التاريخية.

وقد وقف ابن النظام الحسيني عند سقوط دولة السلاجقة في العراق. وقال إن بساط السلاجقة قد طُوي في حين أن حكم السلاجقة استمر في بلاد الروم بعدذلك أكثر من قرن من الزمان.

وقد قدّم كتابه للوزير، ولم يذكر اسم هذا الوزير مكتفياً بالإسراف في مدحه. ومهما يكن من شيء فإن كتاب العراضة في الحكاية السلجوقية من الكتب القديمة المؤلفة في تاريخ السلاجقة، وهو يكتسب أهمية من هذه الناحية.

«والله الموفق للصواب».

الدكتور حسين أمين

بسم الله الرحمن الرحيم

(ص ١) حمد بلا حد، وشكلًا بلا عد لحضرة ذي الجلال الله القيوم الذي أخفى ياقوت القوة الناطقة في كنز المعاني والبيان، وخزانة الأدلة والبرهان أعني لسان الإنسان الذي هو جوهر ثمين كلعل بدخشان[١] وهو الشمس المضيئة في سماء التبيان، بمقتضى قوله تعالى ﴿خلق الإنسان علَّمه البيان﴾[٢] وهو المعبود الذي وهب تحقيق الرموز الدقيقة لأصحاب الفطن ذوي التوفيق ليعبروا عنها بكلمات حسان لا نظير لجمالها كبنات كشمير الجميلات حتى يستطيعوا كشف الأسرار الدقيقة ويرشفوا رحيق التحقيق، وهو الصانع الذي جعل البلبل داوديَّ الألحان يسبح بحمده إناء الليل وأطراف النهار، ويروي آلاف القصص في توحيده، وتمجيده، وهو المقدر الذي قدر كل شيء في الماضي وبقدر كل شيء في الحاضر والمستقبل في كل زمان ومكان، وهو

---

(١) مدينة توجد فيها أنفس أنواع العقيق، ولعل تعني اللون الأحمر، وبدخشان بلدة في أعلا طخارستان، فيها رباط بنته السيدة زبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد وفيها حجر الياقوت الجيد.

(٢) سورة الرحمان، آية **٢٣**.

الحكيم الذي (ص٢) أجر الحكمة البديعة على لسان حسان وسحبان وأنطق كل كاتب مبدع بما قال وحرر في ميدان الفصاحة فوفقهم لفتح خزانة الأسرار ليفتحوا خزائن قلوب الأحرار.

شطر من الشعر الفارسي في الأصل ترجمته:

«الأطباء لأمراض القلوب» هم البلغاء الحذاق الذين تجري أقلامهم بجواهر المعاني الجميلة ودرر الكلمات المتلألئة التي لا نظير لها في جمالها.

بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته:

إن من اسمه السطر الأول على لوح الألسنة

هو الإله وهو الخالق وهو القادر

وصلوات تامات وتحيات فائقات على صاحب الذات المقدسة ذي النور الباهر خاتم النبيين المصطفى وسيم الخلقة عظيم الخلق، محمد المحمود الذات، الرسول الرضي الصفات رابطة عقد الكونين وواسطة عقد الخافقين.

شعر:

علي من لجراه الحلائق أوجدت

ولو لم يكن ما كان شيء بموجد

علي من تمطى قاب قوسين بلا علا

ففاز سهم في العلا والتفرد

بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته:

إن موسى الكليم فرّاش على بابه، وعيسى بن مريم

حارس لركابه وهو الرسول الذي صدر منشور نبوته مزيناً بحلية «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»[١] وجاءته خلعة الرسالة مطرزة بقوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[٢] السعيد الذي ظهرت منه في وقت المعجزات يد بيضاء ونفس كنفس المسيح يحيي به الموتى (ص**٣**) ولم تكن ليد قدرته حاجة لعون أحد كما احتاج موسى لأخيه ﴿سنشد عضدك﴾[٣] ولم يكن رأيه في حاجة لشريك حتى يكون صائباً مثلما احتاج موسى ﴿وأشركه في أمري﴾[٤].

وهو ذو القدرة البديعة الذي هدى جماعة كانوا لا يستمعون إلى نداء ﴿أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾[٥] ويرددون قول ﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾[٦] والذي شق القمر نصفين من غير سيف ودم مهراق، والذي قضى على أباطيل عَبَدة ودّوسُواع، المخالفين للنص والإجماع، الذين كانوا يعدون أحكام كلام الملك العلام من اختراع

---

(١) حديث شريف البخاري (أ وب) ١١٩ في كشف الخفاء، جـ٢، ص ١٢٨ «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث»، رواه ابن سعد عن قتادة مرسلاً.

(٢) سورة الأنبياء، آية ١٠٧.

(٣) سورة القصص، آية ٣٥.

(٤) سورة طه، آية ٣٢.

(٥) سورة الأنبياء، آية ٥٤.

(٦) سورة القصص، آية ٣٦.

الطباع، ويسمونها أساطير الأولين وهو الذي أعجز بالقرآن فصحاء أُم القرى وبلغاءها، فوجوده بلسان عربي مبين، فلم يستطيع الفصحاء بعذب بيانهم وفصيح لسانهم أن يأتوا بمثله، فصاحوا عاجزين أنه ﴿لتنزيل رب العالمين﴾[١].

شعر:

صلّى الإله ومن يحف بعرشه
والأطهرون على النبي الأمجد
ما إن مدحت محمداً بمقالتي
لكن مدحت مقالتي بمحمد

وثناء أكثر إنعاشاً من روائح الجنة، وأطيب من نسيم الربيع على الأسرة الحاكمة عش الخلافة وكعبة الإمامة، الأسرة المختارة التي تلتف حول أفرادها القلوب لأنهم لآلئ أصداف المعالي، ويواقيت منجم المعاني، ومصابيح الظلمات الجسمانية ومفاتيح الكرامات الروحانية حفظة بيضة الملة والناصحون لكافة الأمة، أبطال معركة الحماسة وأسود ميدان البطولة، رافعو قسطاس اليقين، وواضعو أساس الدين، وهم بحكم ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس (ص٤) تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[٢] قد محقوا بصيقل الجد والاجتهاد لون الشرك والضلال وزيف الإلحاد وأزالوا

(١) سورة الشعراء، آية ١٩٢.

(٢) سورة آل عمران، آية ١١٠.

المعصية والكدر والحقد القديم الكامن في صدور ﴿الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد﴾[1] وأنقذوا الأرض بحكم الصدق والعدل وترياق العلم والمعرفة ﴿وهو الذي يحيي الأرض بعد موتها﴾[2] وقضوا على ما كان في القلوب من أمراض حادة مزمنة، فقد كان القوم في قلوبهم مرض، ولسان حالهم يقول ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾[3] فخلصوهم مما كمن في النفس الأمارة من سم النفاق الذي يجعل الإنسان ﴿لا يموت فيها ولا يحيا﴾[4] وجعلوا الكفرة الفجرة والمرقة الفسقة سكان خرابة الظلم والطغيان وقطعان أوطان الأفكار والعصيان كالجراد المنتشر، فقطع دابر القوم الذين ظلموا أو الحمد لله رب العالمين.

أما بعد فإن السبب في كتابة هذه الكلمات أنه لما كسدت سوق الفضل وأصبح أمر أهل العلم مختلاً، فإن هذا الضعيف النحيف الكئيب اللهيف المتجرع كؤوس الجور وأنواع الشدائد طوال شهور وأعوام والمنهك بصدمات النوائب على الدوام، والمصاب بسهم نافذ من جفاء الأيام وهي ألد الخصام محمد بن محمد بن عبد الله بن النظام

---

(١) سورة الفجر، آية ١١.

(٢) سورة الروم، آية ١٩.

(٣) سورة الزخرف، آية ٢٢.

(٤) سورة طه، آية ٧٤.

الحسيني خلصه الله من سطوات فراعنة الغموم وصدمات عفاريت الهموم لم يصادف منذ تنفسه في هذه الحياة غير التعب (ص٥) والعناء والبلاء ولم يستطع أن يحافظ على ماء وجهه وكرامته إلا بشق الأنفس مصداقاً لقوله تعالى ﴿لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾[١] فأجهد نفسه في الفكر وانصهر في بوتقة المحنة، وطرق أبواب كل مقام رفيع فلم يجد غير الصد والغم وسوء الطالع ولم يطرأ على أحواله أي تغيير إلى يومنا هذا طوال الليالي والأيام ومدى الشهور والأعوام، فاجتهد في تحصيل علوم الدين وأمضى مرحلة السراء والضراء وحالة الشدة والرخاء في اكتساب علوم اليقين، ومقارنة العلماء المنقطعي القرين.

وبحكم قول الشاعر: «ومن طلب العلا سهر الليالي»

استطعت في هذه المدة كشف مشكلات الإشارات العقلية وتوضيح معضلات نكت المسائل الفقهية الحاوية لأحكام الإسلام والشاملة لمقاصد الخاص والعام والمبنية لمنهاج الحلال والحرام وعددت هذا الأمر نعم البدل وغصة في أعماق كل فن من الفنون بقدر الفهم والاستعداد واعتقدت أن هذا خير العمل، وبرغم تراكم الأشغال وتقلب الأحوال وتوزع المال وتزاحم الأعمال بدون منال ودفع الحساد ومنع الأضداد، وهي أشياء ليس في مقدور بيان كل فصيح، وليس

---

(١) سورة النحل، آية ٧.

في مقدور كل بليغ أن يفصل مجملها ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[(١)] وتدوين نتيجة هذه المقدمة، وتقرير الحكم من هذه القضية ببرهان صحيح لا يقبل المعارضة (ص٦) والدفع والمناقضة ليس في وسع كل متعلم وعالم مهما كان طيع القلم ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾[(٢)].

وقد عددت تكرار مباحث العلوم العقلية الهدف الأسمى وتذكار المسائل الشرعية الغاية القصوى للأمل والأمد الأقصى للعمل، وقضيت وقتي في نزهة الاستفادة وخلوة الإفادة مع معشوق مسكن العذار خلو من العتاب عنبري العباب، عذب الخطاب «وخير جليس في الزمان كتاب» وصرت أمير هذا المعشوق الجذاب حسن المنظر زين المخبر، جلاء نور البصر، وشفاء روح المضطر ونعم المحدث الدفتر.

وأنا الآن أيضاً ذو جسم سقيم، وطبع مستقيم ومحنة شبيهة بشراب الحميم وكربة مساوية للعذاب الأليم.

شعر فارسي في الأصل ترجمته:

ذو قلب انقسم من غم أحداث الزمان إلى نصفين

أعيش في مجلس مظلم، ومجلس بلا جليس موافق وبلا

---

(١) سورة الإسراء، آية ٨٨.

(٢) سورة لقمان، آية ٢.

أنيس مؤتمن، أعاني من التعب والألم ومن غم العناء والمصائب وقد اختلت أموري وانصرمت دفعة واحدة وأصيبت شمس فلك السعادة بمحنة الكسوف «حتى توارت بالحجاب» بسبب تقلب الدهر الغرار، وتغلب نحوس الفلك الغدار، فطويت أوراق السعادة «كطي السجل للكتب» وسقاني ساقي عهد الظلم شراباً مسموماً. لأن أعلام العلماء الأعلام قد نكست، وطويت صحيفة أمال فضلاء الأيام وسقط بنيان البهجة (ص٧) فأصبح عاليها سافلها. وصار دار المسرة والأماني ﴿لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾[(١)].

عندي من الدهر ما لو أن أيسره
يلقى على الفلك الدوار لم يدر
جار الزمان علينا في تصرفه
وأي دهر على الأحرار لم يجر

وقد وصلت النوائب والمحن إلى حد لو أريناه في المنام لفزعنا وبلغت شدة الشدائد المكرية وصعوبة المكائد المتعبة إلى حد ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً﴾[(٢)] وبلغت الروم الحلقوم.

شطر من شعر فارسي:

كل قطرة من الدماء فيها ألف هم وعناء

---

(١) سورة طه، آية ١٠٧.

(٢) سورة مريم، آية ٩٠.

وهذا كله بسبب صدمة هجوم الترك (المغول) التي جعلت نائبة الزمان تفيض بالأحزان وتذهب بالأمان.

شعر:

تـعـجَّـل لـتـخـلـيـص الـنـفـوس مـن الأذى

وقـرِّب مـن الـدهـر الـتـي هـي أطـيـب

وفي كل لحظة كانت القلوب الدامية والأرواح الهلعة والعيون الباكية بحرقة تردد نداء.

شعر:

ألا مــوت يــبــاع فــأشــتــريــه

فــهــذا الــعــيــش مــا لا خــيــر فــيــه

وكانت القلوب توصل النداء إلى البيت المعمور وإلى مسجد الرسول ذي النور.

بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته:

أين قوة الساقَين ليسرعا بي صوب الموت عدداً من الخطوات ولقد صبرت على هذا البلاء بعض الوقت رغبة أو رهبة وَفُقتُ في حلمي أحنف بن قيس بإجماع أصحابي الرفاق وأرباب النفاق وزدت في ثباتي على جبل رضوي(*) و(أبو قبيس)(**) مدة القصة بطولها (ص ٨) والحكاية مع فصولها.

(*) جبل رضوي ـ جبل بين مكة والمدينة ـ قرب ينبع فيه مياه كثيرة وأشجار في شعابه.

(**) أبو قبيس ـ جبل يشرف على مكة من غربها.

بيت شعر بالفارسي ترجمته:

حينما كشفت شمسي صار الوبال لازماً لي، فهل تتصور أن كمال الفضل هو سبب وبالي؟؟..

شعر:

وفـي الـسـمـاء نـجـوم مـا لـهـا عـدد

ولـيـس يـكـسـف إلاّ الـشـمـس والـقـمـر

بفحوى العادة طبيعة خامسة[1] فحال عنان الهمة والرغبة إلى ما يجري في الداخل والخارج من اضطرابات وانقسامات هائلة.

شطر في بيت شعر فارسي ترجمته:

مثل الزمان لا يبدو له قاع ولا ساحل

على أمل أنه ربما يصير رأيه فاصلاً بين الحق والباطل

وعلى كل حال فإن عهد الشباب الذي هو وقت تحقيق الأماني ورأس مال السعادة في الدارين لم أرَ فيه غير السوء.

شعر فارسي ترجمته:

لم يكن من الشباب غير اللون الأسود

كالقمر في الشتاء ضائع، وكانت نفس المحبة للعزلة والملازمة للمحبة تردد نداء.

شطر من بيت شعر فارسي ترجمته:

---

(١) الميداني ـ أمثال العرب ـ طبع بولاق ١٢٨٧هـ، ح١، ص ٤٣٨.

ليس لي من فضلي أي رزق

فلم تكن نفسي تتوق إلى ترك الغذاء الروحي والتفكير في هوى النفس ومطالب الجسم، فواصلت السير في طريق طلب العلم على عادتي المألوفة ووظيفتي المعهودة وحافظت على طريقتي المحمودة وكنت أقول لنفسي.

شعر:

فاشدد يديك بحبل العلم معتصماً

فالعلم للمرء مثل الماء للسمك

(ص٩) ولما كنت أحياناً أصاب بالملل من مداومة البحث في المعضلات الشرعية والتفكير في كشف المشكلات العقلية، كان طبعي من كثرة التعب والعناء يتوق إلى تذوق:

إن البطالة والكسل

أحلى مذاقاً من عسل

بحكم أنهم يقولون «الجد الدائم مع الزمان ينحت روح الإنسان» فأخذت أطالع كتب تاريخ الغابرين. ونسخ قصص السابقين ووفقا لقوله تعالى ﴿فاعتبروا يا أولي الألباب﴾(١) كنت أعتبر من تلك الوقائع فتجدد الأمل في خاطري الجريح وقلبي المكلوم وأقول ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾(٢)

---

(١) سورة الحشر، آية ٢.

(٢) سورة الطلاق، آية ١.

وكان هذا الأمل مرهماً لجرح نفسي «والبلية إذا عمت لَطُفَتْ والمحنة إذا شاعت سهلت».

ووقعت في يدي ـ من قبيل المصادفة ـ نسخة من كتاب «تاريخ آل سلجوق» الذين عملوا في القرون الماضية والعهود الخالية على إعلاء أعلام الإسلام وتعمير العالم بصورة نسخت آثار كسرى ودلت أخبارهم على أن عدلهم فاق عدل فريدون واستطاعوا أن يقضوا على الملاحدة المجاهيل والفسقة المخاذيل بجهودهم الحميدة فادخروا لأنفسهم الأجر الجميل، فانهزم الملاحدة الملاعين وكانت عصابة ينطبق عليها قول الله ﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾(١) واندحر الملاحدة بعد أن ﴿ختم الله على قلوبهم﴾(٢) وانمحت آثار ﴿كان لم تكن بالأمس﴾(٣) شكر الله مساعيهم في الدين وحشرهم ﴿يوم حشر المتقين﴾(٤) مع الشهداء والصالحين.

وتأملت في أجزاء ذلك الكتاب الذي ألّفه واحد من الفضلاء الأحرار والأئمة الدين لهم من الفضل شعار، وقرأته من أول إلى آخره (ص١٠) ودققت في جميع أجزائه فوجدته

---

(١) سورة المؤمنين، آية ٢٤.
(٢) سورة البقرة، آية ٧.
(٣) سورة يونس، آية ٢٤.
(٤) سورة مريم، آية ٨٥.

ينتهي بذكر حال السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه(*) أنزله الله جنة النعيم وقد كتب المؤلف عنه أنه كان آخر سلاطين آل سلجوق وأنه عقب رحيل هذا السلطان الشهير المتقدر طيب الفعال إلى العالم الآخر غربت شمس تلك الدولة وانقرضت.

شطر من بيت فارسي ترجمته:

وضع رأسه في كفن الوفاء وذهب

غير أنه بمطالعة كتب التاريخ الأخرى تبيَّن أن دولة السلاجقة بقيت ما يقرب من ثمانين عاماً بعد وفاة ذلك السلطان المظفر، وبعد أن سقاه الساقي كأس ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾[1] ولما شرب جرعة الحمام ظلّت دولة السلاجقة من بعده إلى أن اقتضت إرادة رب الأرباب بمقتضى قوله ﴿لكل أجل كتاب﴾[2] فطوى بساط دولتهم بعد انقضاء عمر السلطان المظفر طغرل بن آرسلان(**)، وتوارت شمس هذه الدولة الرفيعة القدر وطار طائر السعادة من عشها الميمون.

(*) محمود بن محمد بن ملكشاه ـ جلس على عرش السلاجقة وقُتِل سنة ٥١١هـ.

(١) سورة الأنبياء، آية ٣٥.

(٢) سورة الرعد، آية ٣٨.

(**) طغرل بن آرسلان (طغرل الثالث آخر سلاطين السلاجقة) وقُتِل سنة ٥٩٠هـ.

شعر:

ولــم أرَ فــي عــيــوب الــنــاس شــيــئــاً

كــنــقــص الــقــادريــن عــلــى الــتــمــام

(ص ١١) فأردت أن أجمع أخبار هؤلاء السلاطين بعد أن سئمت من مطالعة علوم الشريعة وأن أكتب قصصهم بعبارة جميلة واستعارات مرغوبة وأن يكون كتابي سجلاً لأعمال هؤلاء السلاطين المظفرين والحكام الموفقين طيّب الله ثراهم وجعل الجنة مأواهم فأمسكت بالقلم لأسجل ما يمليه الضمير نحوهم.

شعر:

أخــــرس لا يـــــنـــــطـــــق إلاّ إذا

قــطــعــت بــالــسـكــيــن مــنــه الــلــسـانْ

مــــنــــطــــقــــه هــــمــــسٌ ولــــكــــنــــه

يَـــســـمـــعُ مـــنـــه كـــلُّ قـــاص ودانْ

ولما بدأت في عملي، وجهزت بضاعتي، وأنجزت هذا المرام، ونمقت الكلام بصورة يستحسنها الفصحاء المحققون والبلغاء المدققون، ولا يرفضها فضلاء العصر، ولا يحجها فصحاء الدهر، كان من المستبعد أن أخرج الكلام بهذه الصورة دون علم بصنعة البلاغة وقد صاح بي هاتف العقل قائلاً:

بيت شعر فارسي ترجمته:

ما دمت غير عابث فاترك نهج البلهاء ولا تنسج الخيوط حول نفسك كالعنكبوت.

شطر شعر فارسي ترجمته:

إن العقل هو الذي يرشد الرجل إلى الصواب.

فقلت أيها القلم الذي لا عقل له ما دمت ستكتب كلاماً جميلاً وأيها المتحدث بدون لسان ما دمت ستسلك طريق سحبان ونهج حسان وأيها المقطوع الرأس ماذا تستطيع أن تفعل في ميدان الفصاحة والبلاغة؟.. وأيها الجامد العديم القلب والعاطفة لماذا تعبث بعارَض القرطاس بإصبع الجهالة كما فعل وامق الولهان النحيل بعارض عذراء الفضي؟...

شطر شعر فارسي ترجمته:

(ص ١٢) أين أنت من طرة الجميلات، فلما تذهب برجليك إلى البلاء أيها المسكين؟ فأراد قلمي أن ينصرف عن هذا التفكير، وألا يتمنى وصال يوسف مصر ببضاعة مزجاة، وأن يترك ميدان الفصاحة بجواده الهزيل.

شطر فارسي ترجمته:

من الضعف لا يجد جواداً ولا يعرف طريقاً.

فماذا يفعل وسط الفصحاء الذين يسخرون دولة الفصاحة بسنان أقلامهم الحادة ويفتحون العالم بسيوف ألسنتهم ويستولون على عالم المعاني بمقدرتهم الفائقة؟ وماذا يستطيع ببيانه العاجز وبعبارته القاصرة بين هؤلاء البلغاء الذين يعد بيانهم سحراً وليس له في بيدر الفصاحة إلا سنبلة وفي بحر

البلادة إلا قطرة وليس له نصيب في ميدان المواهب «والناقص كالمعدوم» فكيف يدّعي هذه القدرة ويطلق على نفسه اسماً بدون مسمى؟

شعر فارسي ترجمته:

لا يستطيع أي إنسان أن يسلك الطريق

بل لقد قال مفتي القلب ومرشد العقل ومجتهد الأمة ومعلّم الملة «الميسور لا يسقط بالمعسور».

فإذا لم يكن في خزانة الخاطر كلام رائق وعبارات كالدر اللامع وكلام منمق وشعر بديع، تصير الكلمات بلا معنى، لأن السخي بما يملك ولكن لما كان الهدف تسجيل قصة السابقين خصهم الله بالرحمة (ص١٣) والغفران وثواهم في عرف العلى من الحنان وليس الاندراج في سلك الكُتّاب المبدعين ولا الانخراط في زمرة الفصحاء النابهين فقد سجّلت ما عن خاطري ارتجالاً بالقلم العاجز عن مباراة الخطباء وأنا أعلم أنه أكثر عجزاً من العاشق الولهان لأعرض ما ينبغي ذكره أو من لم يجد ماء تيمم بالتراب.

شعر فارسي ترجمته:

ليس لي روح حتى أقدمها، فليس في يدي غير هذه البضاعة. إن الهدية ليست لائقة، ولكن الدرويش يقدم ما عنده، ولما كان امتثال هذه الإشارة من المندوبات وإغفال إطاعتها من المحذورات والمحظورات، تجرأت على هذا العمل بحكم المأمور معذور وعرضت نفسي بواسطة هذه الجسارة لسهام

لوم أرباب البلاغة وأصحاب البراعة، ونقد كل بليغ وفصيح.

بيت شعر فارسي ترجمته:

وضعت مصلحتي وراء ظهري، وقدمت قلبي من أجلك

وأرجو أن تقبل بضاعتي التافهة، وأتمنى أن ما ينتجه طبعي الخامل وتفكيري القاصر يحظى بالقبول فتصير أحجاري التافهة الرخيصة بفضلكم درراً ثمينة، ويتحول زجاجي الملون إلى يواقيت كيواقيت عدن، وأن تتحول هذه القصة التي سجلتها برغم تفاهتها إلى شيء ثمين لدى أهل العلم والمعرفة فيكتب لها البقاء والخلود، يتحول هذا المصباح القليل الضياء إلى كوكب دري وضاء، وأن يصير هذا السراب الذي يفتقر إلى الماء، جنة وارفة خضراء، وأن يظفر ما كتبته بتقدير الأفاضل الذين يقومون حوادث الليل والنهار ببراعة واقتدار والأمائل (ص ١٤) الذين يقدرون ما تنتجه القرائح، لأن طباعهم لطيفة، وكلامهم عذب.

شطر من الشعر:

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

وأرجو أن يغفروا لي ما قد يجدونه من هفوات وتقصير، لأن المدح من شيم الكرام وأنا أطمع في التقدير لا لجزالة ألفاظ ما كتبت ولا لغزارة المعنى، ولا وفقاً لحظي لأنه سيئ ولكن تلطفاً وتكرماً:

شطر من الشعر الفارسي ترجمته:

أنا أعرف طبيعة حظي

وقد رأيت من الصواب أن أقدم هذا الكتاب للوزير العادل السعيد المؤمن الذي اكتسبت الدولة رونقاً بيمن طالعه، فدرجت الألفاظ غير أنها بدت مضطربة كطرة المعشوقة الجميلة التي يعبث بها الهواء وكنسج العنكبوت الواهن، غير أني أرجو أن تحظى بالقبول والتحسين من أساطين البلاغة وأبطال الفصاحة لأنها مزينة باسم الوزير العظيم ذي الصفات الحميدة وذي العز الشامخ والصيت الطنان، الوزير العظيم الشأن والساطع البرهان، مزين أعناق الخلق بقلائد الإحسان، دافع ظلم الظلمة، ناصب إيوان النصفة، مؤسس بنيان المعدلة، أعدل الوزراء، كهف الورى، نصير الحق والدين، ناصر الإسلام والمسلمين مجمع أقسام المجد والمكارم، مرجع الأصاغر والأكابر.

بيت شعر فارسي ترجمته:

العظيم يذهب رونقُ عدلٍ يومٍ منه جفاء ألف عام من الدهر (ص ١٥) الوزير الذي حاز قصب السبق بين الأقران بعظيم صرامته وفرط ذكائه وفطنته و«قليل ما هم» وصار ابن بجدة الزمان بتدعيمه لقانون رعاية الشعب وتثبيته لدستور العدل والإنصاف وهو بهذا علامة الزمان، وهو من كمال خبرته بالعمل قد وصل إلى مرتبة لو أن آصف كان في عداد الأحياء لدخل في طاعته، ولم يعصِ أمره ولاستفاد من كنز حكمته وتدبيره، ولنعم من عدله الكامل وفضله الشامل.

شطر فارسي ترجمته:

فتح الباب ودعا للضيافة ومد السماط
ولو أن صاحب الري ما زال على قيد الحياة يبسط نفوذه على أركان الدنيا الأربعة لطلب نسخة من قانونه الذي يدير به الأمور حتى ينظم مصالح الجمهور ويقتدى بعدله، ولو أن حاتماً الطائي لم يطوِ مسالك ممالك الحياة بكرمه لأصبح عبداً لمكرماته، ولالتمس جزءاً من عطائه.

شعر:

لــــلَّـــه در وزيـــر لا نـــظـــيـــر لـــه
في الـدهـر حـقـاً ولا فـي سـالـف الـزمـن
فـــلا يـــكـــون ســـواه مـــثـــلـــه أبـــداً
في الشرق والغرب حتى الصين واليمن

لا زالت شموس مكارمه مشرقة منيرة وغصون مفاخره مورقة نضيرة حتى ضحك الروض والطير ببكاء الغمام والأقلام، وجرد نصل الريح والصبح عن ظلام الغمد وغمد الظلام.

وقد ألّفت هذا الكتاب الجديد وأخرجت ما كان كافياً في الضمير وألبسته لباس الفصاحة وزينته بزينة البلاغة وجملته بألقاب الوزير ذي الأمجاد والمعالي المعفر جباه الأعالي، قبلة (ص١٦) صناديد الحكام والموالي، ووجه مقاصد المعادي والموالي.

شعر:

أســـــامـــــيـــــا لـــــم تـــــزده مـــــعـــــرفـــــة
وإنـــــمـــــا لـــــذة ذكـــــرنـــــاهـــــا

وسميته العراضة في الحكاية السلجوقية ولأنني أعتصم بالحبل المتين لإسمكم الميمون والعروة الوثقى للقبكم المبارك ذي الحظ السعيد الذي هو رمز العدل، وقمر سماء الصدارة، وسهيل يمن الجلالة، ومشترى برج السعادة، وكوكب دري لأوج العدالة وأرجو أصحاب فصل الخطاب وأرباب الألباب الذين يزينون رياض البلاغة بفيض أقلامهم كما يزين ماء السحاب الحدائق بأجمل الورود في فصل الربيع، وكما تنعش ريح الشمال الطيبة الأزهار والرياحين، أرجوهم أن يغضوا النظر عما يجدون فيه من عبارات ناقصة مختلة، لأن ثمرة الشجرة الجوفاء معتلة، وكلام المعتل غير صحيح.

شطر من شعر فارسي:

أُذُنُ الكريم عن الفحشاء صمَّاءُ

وأن يرخوا ستار الإغماض عن العيوب وألوان الزيف في المكتوب لأنه ثمرة القريحة العقيمة لهذا الضعيف السقيم، وأرجو أن يشتري الوزير المتاع الرديء مع أنه من سقط المتاع ومما يستوجب أن يباع ولا يبتاع بفضل كرمه وعين الرضاء عن كل عيب كليلة وأنى للعيوب لمعترف وبالخطايا لمقترف والله ولي السداد والرشاد ومنه المبدأ وإليه المعاد.

ذكر ابتداء أحوال السلاجقة وبيان كيفيتهم وعددهم

أسكنهم الله تعالى الجنان وكساهم لباس الغفران

منقول عن رواة الأخبار والمنقبين عن الآثار، السالكين طريق الرواية والشاربين رحيق الدراية، وعن أقوال الراسخين في علوم تواريخ المتقدمين، والناقلين لأحوال الغابرين أنه مكتوب في لوح الخاطر أن سلجوق بن لقمان(١) كان في عداد المنعمين في الدنيا والأغنياء في عصره، لما كان يتمتع به من كثرة المال، ووفرة المنال، وفسحة المجال، وكان عنده من الثروة والمنعة والقدرة والنعمة، ما لا يمكن حصره في دائرة علم الحساب، أو تسجيله في كتاب، وقد جمع من الكنوز والنقود والجنود والبنود، وطرائف الحلل والحلى، ولطائف الجواهر والدرر، وأصناف النعم والمواشي وألوف

---

(١) هذا خطأ والصحيح «دقاق» أو «تقاق» بمعنى القوس كما ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل، جـ٨، ص ٢٢.

وآلاف من الخدم والحواشي ما لا يدخل عده تحت حد الإمكان، وما يعجز عن شرحه وبسطه ووصف طوله مساح البيان، وفصيح اللسان، وكان له أربعة أبناء هم: إسرائيل وميكائيل وموسى ويونس.

شعر عربي:

هينون لينون أحرار ذوو كرم
سواسي مكرمة أبناء أيسار

وكانوا يتفقدون أحوال المنطقة يتفانون في معاونة والدهم (ص١٨) وقد توطد بنيان الدولة بتوفيق والدهم العظيم ووجود هؤلاء الأبناء الأوفياء، وكانت الإلفة بينهم قوية متينة لا يؤثر فيها تلون الدهر الغدار وتغيره.

شعر عربي:

كأنهم شجر الأترج طاب معاً
أصلاً وفرعاً وطاب العود والورق

شعر فارسي ترجمته[١]:

ليس للمرء مكانة في وطنه، وليس للجوهر قيمة في منجمه والمندل الرطب في أوطانه حطب.

وقد جاءوا من تركستان ـ التي كانت مسقط الرأس

---

(١) بيت فارسي نصه: مردم بشهر خويش ندارذ بسي خطر»، كوهر بكان خويش ندار ذبسي بها.

وموطن الاستئناس لهم ـ إلى إقليم ما وراء النهر، ونصبوا فيه خيام الإقامة بأوتاد العدالة، ولما اجتمعت لهم جميع أسباب الظفر والتوفيق، وظهرت على صحائف أحوالهم آثار العظمة، وبدت تباشير صبح السعادة تلوح على دولتهم، هبت ريح صرصر من النكبات من حيث لا ينتظر بمقتضى أن الدهر لا يبقى على حاله، وعصفت عاصفة البليات بأساس دولتهم، وعين المال للدهر المكار الغدار لا تدوم، لأن طبعه ليس إلا تخريب إيوان الجماعة وانهدام بنيان الرفاهية، وشيمته ليست إلا تشويه وجنة السعادة، وتعكير صفو البهجة، وحتى اليوم قد ابتلى كثير من الموفقين السعداء أصحاب التيجان والعروش بورطة المحنة ووهدة النكبة، فسقطوا من مسند الأبَّهة ومتكأ العَظَمة (ص١٩) وكثير من العظماء المحظوظين والملوك السعداء قد ابتلاهم الدهر بدار البوار، بمقتضى أنه إذا انتهى أمر إلى الكمال عاد إلى الزوال وهكذا لحق الزوال بدولتهم، وولى جلال حالهم، ونفاذ أمرهم، ونباهة قدرهم، ووفقاً لقول الشاعر:

شعر:

إذا تمّ أمر دنا نقصه

وقوله/ شطر:

وأي دولة أمنت زوالاً

وقد رووا في سبب ذلك ـ أنه لما حدث اتفاق واتحاد بين السلطان الراحل الميمون المصلح فاتح غزنين يمين الدولة

محمود بن سبكتكين(*) أنار الله برهانه وثقل بالحسنات ميزانه، وايلك خان(**) حاكم ما وراء النهر، وأرسيا بينهما أساس الإخلاص والوداد، وعقدا بينهما العهود وأقسما على احترامها إيماناً غلاظاً، يعد نقضها مذهباً للإيمان، وحملت من مملكة ايلك خان درة ثمينة ـ هي ابنته ـ وأودعت في خزانة جواهر السلطان محمود، فتزوجها فالتقى جوهران ثمينان في برج واحد، فتحركت في ايلك خان عاطفة الشفقة، وصلة القرابة فقال للسلطان ـ إنك في كل وقت تتحرك فيه تحلياً بفضيلة الجهاد ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾[1] فتوجه إلى بلاد الهند وفقاً لقوله تعالى ﴿قاتلوا في سبيل الله﴾[2] «لقتال الكفار الفجار» قطع الله آفتهم عن الأقطار والأمصار وتخرج فيه سيفك الذي لا يقر له قرار، اللامع البتار من غمد الانتقام وفقاً لقوله تعالى ﴿وقالوت (ص ٢٠) المشركين كافة﴾[3] تترك المملكة وما حولها خالية، بينما يوجد السلاجقة في المنطقة، وهم قوم

(*) محمود بن سبكتكين ـ السلطان يمين الدولة من كبار القادة، فاتح الهند امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور، توفي سنة ٤٢١هـ.

(**) ايلك خان ـ من أمراء بخارى وكان معاصراً لمحمود الغرنوي.

(١) سورة النساء، آية ٩٥.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٦٧.

(٣) سورة التوبة، آية ٣٦.

كثيرو العدد، وجيش لا حصر له، وقد بدت ملامح السعادة على جبين أحوالهم، ولاحت أنوار الملك على صفحة أعمالهم.

شطر في بيت شعر فارسي ترجمته:

وجيش شجاع يسلك في وقت القتال، طريق الموت لا طريق الفرار

وعلى رأسهم الآن أربعة إخوة، وهم في وقت المعارك شجعان لا نظير لهم في شجاعتهم وحسن بلائهم يستطيعون أن يجعلوا وجه الأرض الفستقي إرجواني اللون، وهم فيما بينهم يتنافسون ويقول كل منهم للآخر ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾[1] ولكنهم في وقت الشدة متفقون يرفعون شعار «خير الرفقاء أربعة» وأنا أخشى ـ نظراً لكثرة عددهم ـ أن يخرجوا عن طاعتك ويطمعوا في ولاية، ويهجموا على ناحية، وأن يكشفوا عن شجاعتهم، ويظهروا حقدهم ويشعلوا حرباً، يبارزونك فيها ليثبتوا بطولتهم وقدرتهم على كسب جولتهم وعقد اتفاق للصداقة، وأن يرسل إليهم مبعوثاً، ويرسل إليهم رسولاً، فلما استمع السلطان (ص٢١) إلى هذه الكلمات المشفقة بأذن العقل، وتدبرها لأنها بدافع المحبة، أخذ بمبدأ «وفي التأخير آفات» فأرسل إليهم رسولاً عذب

---

(١) سورة الكهف، آية ٢٤.

اللسان، يستطيع بسر البيان أن يحل عقدة الوحشة من كل ضمير، وأن يمسك بلطف بأطراف جميع الأمور، ليقول للسلاجقة «لما كان لنا عليكم حق الجوار فإننا لسنا في غنى عن مساندتكم ومعاونتكم أبداً، فلماذا لا نعقد معاً عقود الوحدة، وعلى هذا نرغب في التودد لطائفتكم بكل وسيلة فإذا أردتم التعاون معنا، وأن يساند بعضنا بعضاً، فأظهروا حسن نيتكم»، ودعا واحداً من أبناء السلاجقة لمقابلة السلطان محمود، فلما وصل رسول السلطان معسكرات السلاجقة، أبلغهم ما كلفه به السلطان، على أساس أن ما على الرسول إلا البلاغ» فتشاور الإخوة الأربعة في ما قاله رسول السلطان، ورأوا أنه لا ينبغي التغاضي عن عرض السلطان وعهوده «وإذا جاء القضاء عمى البصر» واعتقدوا أن قبول ما عرضه السلطان مصلحة لهم ووسيلة لنجاح أمرهم وازدياد قوتهم ورونقهم، فوقع اختيارهم على أخيهم الشهير إسرائيل(*) للقيام بمهمة مقابلة السلطان، لأنه بالكفاءة والخبرة مشهور وبالشجاعة والبطولة مذكور، كما أنه مقدم على أخوته، ومعظم بني قومه، وقائد الجند والرعية، فتوجه إلى السلطان محمود على رأس جيش كبير يملأ السهول والجبال

(*) إسرائيل: مقدم السلاجقة ـ بعد وفاة سلجوق بن دقاق والذي احتال عليه محمود الغزنوي فأسره وحبسه في قلعة كالنجر في الهند وظل سجيناً حتى مات ـ راجع تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ٤٧ـ٤٨.

وتضيق الدنيا على وسعتها به (ص٢٢) فعلم السلطان بقدوم إسرائيل على رأس هذا الجيش الجرار الكثير السلاح والعدة.

شعر:

فوارس لا يملون المنايا
إذا دارت رمى الحرب الزبون

فخشي من مجيء جيش بهذه الكثرة، وخاف من مثل هذا الجيش، فرأى رعاية للحزم والاحتياط والحزم سوء الظن أن من المصلحة عدم مجيء الجيش فأرسل شخصاً إلى إسرائيل ليقول له ـ ليست بنا الآن ـ حاجة إلى الجيش ولا إلى مدد، وإنما الهدف الأصلي إحكام بنيان المودة وإبرام أساس المحبة، فلا تتعب الجيش بدون داع فوافق إسرائيل وترك جيشه الذي يشبه أفراده أسود الغابة، فهم محاربون شجعان، وفرسان أبطال يبطشون العدو، وتوكل إسرائيل على الله المعبود، وطالعه المسعود وذهب مع عدد معدود إلى حضرة محمود.

بيت شعر فارسي ترجمته:

إذا تغيّر الزمان على الإنسان
لا يغنيه الحذر في أي أوان

فاحتفى السلطان بمقدمه.

إن الكريم إذا وعد وفى وأكرمه إكراماً لا نهاية له، وأعزه إعزازاً لا حد له، وأجلسه معه فوق العرش وبدأ بالسؤال عن أحواله، وإسرائيل لا يعلم أن «في حضرة الملوك خطراً

عظيماً ولم يعتبر بالنصيحة التي تقول ـ إياكم وأبواب السلاطين وما فيها من تحذير فتبسط في الكلام، وأخذ يتحدث عن كثرة عدد رجاله ووفرة أمواله (ص **٢٣**) ولم يستمع إلى النصيحة التي جاءت في الشعر:

إحذر مباسطة الملوك ولا تكن
ما عشت بالتقريب منهم واثقا
فالغيث غوثك إن ظمئت وربما
ترمى بوارقه إليك صواعقا

وبعد ذلك قال السلطان «في كل وقت يلزمنا فيه التوجه لغزو الكفار، نصرة الإسلام وفقاً لما روي من أن الله يبعث على رأس كل مائة من ينصر الدين» نترك بلاد خراسان بدون حراسة، مما يشجع كل مفسد وحاسد، تدور برأسه خيالات فاسدة على الهجوم على المملكة، فإذا احتجنا إلى مدد من جندكم فكم ألف رجل من الفرسان الشجعان تستطيعون أن تقدموا لنا؟.

فاستبشر إسرائيل بهذه الاستعانة والاستغاثة، ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾[١].

ولما كان غرور الشباب يدور برأسه «والشباب شعبة من الجنون» ويزهو بكثرة الرجال ووفرة المال.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢١٦.

شطر في بيت شعر فارسي ترجمته:

يذهب برأسك ما يكون عندك من متاع

فقد رأى أن إظهار كثرة ما عنده من عدة أمراً مستحسناً، وكان قد غلق في وسطه سهماً وأمسك في يده قوساً، فأخرج السهم في الحال وقال: في أي وقت تحتاجون فيه إلى مدد من الجند، أرسلوا هذا السهم إلى جيشنا يأتكم مائة ألف فارس وإذا احتجتم إلى زيادة فقدموا هذا السهم الآخر علامة إلى جيشنا في «بالخان كوه»[1] يأتكم خمسون ألف فارس صنديد، فإذا احتجتم إلى مزيد من المدد فأرسلوا هذا القوس إلى تركستان يأتكم مائتا ألف رجل من الأبطال المحاربين الأشداء (ص٢٤) فتخوف السلطان محمود من هذه الكثرة واضطرب من هذه القصة وترك الإكرام والإحسان وصمم تصميماً جازماً على الغدر والقضاء على إسرائيل وأراد أن يسلم نفس إسرائيل لتلقى مصيرها على يد عزرائيل شعر:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف في موضع الندى

وأن يقتلع بعاصفة الغضب شجرة عمره من ينبوع الشباب، غير أنه رجع عن هذا التفكير بإرشاد من العقل الذي يفتح أبواب المرادات، ويرشد إلى أسباب السعادات، نظراً لكثرة

---

(١) بلخان كوه: موضع خلف ابيورد في خراسان.

قبيلة إسرائيل، ووفرة عشيرته، لهذا لم ير من الصواب أن يزهق روحه، وقرر أن يقيده بالسجن «وهو أشد العذاب على النفس».

ثم مد له سماطاً عليه أطيب ألوان الطعام ثلاثة أيام على التوالي مع تعاقب الأيام والليالي، ومجالس الطرب والغناء وقدم له الشراب، وبلغت أصوات العود والغنا عنان السماء.

شطر من بيت شعر فارسي ترجمته:

يتساقط ماء العنب قطرة قطرة فيصير نبيذاً

وأنعم على أتباع إسرائيل بخلع فاخرة، وأمر أمراء جيشه بأن يضيفوا رجال إسرائيل ويقدموا لهم شراباً كثيراً، فلما سكر إسرائيل ومن تابعه.

شطر من بيت شعر فارسي ترجمته:

شربوا أنواع الشراب اللذيذة

من أيدي الحسناوات الجميلة

غطوا في نوم الغفلة وأسلموا زمام الأمور من أيديهم فقيدوا كل واحد منهم بقيود ثقيلة يصبح قوس الأجل إزاءها كبيت العنكبوت، ومسمار القضاء إذا قيس بقوتها أو هي من قلب العشاق (ص٢٥) وكبلوهم بالسلاسل والأغلال وقذفوا بهم إلى زاوية الوبال والنكال وأرسل السلطان محمود إسرائيل إلى بلاد الهند وحبسه في قلعة كالنجر التي لا تستطيع الوحوش والصقور العيش فيها، وألقى باتباعه في قلاع أخرى حصينة مكبلين بالحسرة والنكبة، فتوارى إسرائيل مثل الصبح التمام

خلف حجاب ظلمة الظلام، وطار مثل الغراب الأسود إلى مغرب الفناء، وصحا من رقدة السكر واستيقظ من نومة العرس فوجد نفسه منهكاً محطم القلب، مقيد اليد والرجل، فمما نظر من قدامه وخلفه وجد طريق الخلاص مظلماً من كل صوب، وسبيل النجاة مسدوداً من كل أوب، فكان يقول دائماً ـ نص شعر فارسي ترجمته:

لا أعرف الطريق من السكر والغفلة، فأين الطريق إلى الديار أيها الرجل المضيق وكان لا يسمع الجواب على وجه الصواب، فكان يقول للنفس الظالمة.

نص شعر عربي:

وكم فاتح أبواب شر لنفسه
إذا لم يكن قفل على فيه مقفل

فأخذ يجادل نفسه ويحاربها، والغائب لا يستدرك، ولما أيقن أن سبب هذا القيد والتعب وموجب هذا الحبس والمشقة إظهار كثرة العدد وتقرير القدرة والقوة مما جعل السلطان يتخوف من هذا الكلام ويظن الظنون، فقد كان هذا البيت ورد اللسان يكرر كل زمان.

شعر:

ما إن ندمت على السكوت مرة
وقد ندمت على الكلام مرارا

ولكن لما رأى أن مصارعة القضاء لن تجلب إلا البلاء والعناء وأن الاضطراب في حالة النكبة لن يزيد إلا المحنة،

والمصيبة للصابر واحد وللجازع اثنان، استسلم لصدمة الحوادث واستمسك بالعروة الوثقى للصبر (ص٢٦) والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد وقال لنفسه «إذا تركت الرأي بالرأي».

شعر:

أصبر على محن الزمان لينقضي

فالدهر لا يخلو من العثرات

فاعتصرته الحسرة، وعض إصبع الندم، وخمدت شعلة رأيه التي كانت الشمس ذرة إذا ما قيست بها، وأصبح صقر نخوة عظمته الذي كان يحلق في فضاء العلا مكسور الجناح ذليل الحال، وصار زمام حكمه الذي كان يقود به الفلك الخسيس مقيداً بعقال الندم، وأصبح نمر كبريائه ومهابته الذي كان يتحدى به ضرغام الأيام «وهو ألد الخصام» أسيراً في يد ثعلب الدهر المكار وبات عقاب راية سعادته الذي كان يحلق في أوج التوفيق مع النسر الطائر في حضيض المذلة مبتلى بالسجن في قلعة.

شعر:

أي نعيم لا يكدره الدهر

فاستسلم للقضاء نتيجة للاضطرار السالب للاختيار وبقي أسيراً في قلعة كالنجر سبعة أعوام بلا مؤنس وصديق مبتلى بأنواع النوائب ومختلف المصائب، ومقيداً بالسلاسل التي لو رآها

المجنون وهو على قيد الحياة، وكان في عقله ووعيه، لما تشبث مطلقاً بقيد طرة ليلى، ولو رووا هذه القصة لفرهاد، وهو في رباطة جأشه، لأخرج من رأسه حلاوة حب شيرين من شدة مرارة القصة وما فيها من قسوة (ص**٢٧**) وكان إسرائيل الحزين يمضي أيامه في هذه الصورة على أمل لعل وعسى، وحوله حراس غلاظ قساة قلوبهم كالحجارة وأشد قسوة.

وفي أثناء تلك الواقعة كانت طائفة من خدمه وحشمه ممن اكتووا بنار الفراق، قد استطاعوا أن يتخذوا من المنطقة المحيطة بالقلعة سكناً لهم، وقضوا عمرهم في سقي سكان القلعة بالماء الذين يستخرجونه من الآبار، وكانوا يترقبون فرصة مواتية ليخرجوا إسرائيل من القلعة في جنح الليل البهيج وتمكنوا من إخراجه، فلاذ بالفرار في ليلة حالكة السواد.

شعر فارسي ترجمته:

في ليلة سوداء طلي وجهها بالقار، لم يظهر بهرام ولا زحل ولا السهم

وظهرت في الطريق غابة فيها أنهار وأشجار كثيفة، لها صفة ﴿التفت الساق بالساق﴾[1] وإذا جلّت المقادير بطلت التدابير.

شعر فارسي ترجمته:

(١) سورة القيامة، آية ٢٩.

إن حكم الدهر هكذا، لأنه يصنع الأشياء أحياناً بيده اليسرى

وبسبب عدم اعتناء الدهر بإسرائيل ضل الطريق الصحيح، ولم يظهر له اليمين.

شعر:

ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر

ولم يكن في هذه المحنة مجال للتفكير والفطنة ووقع في مخمصة البلية.

شعر:

وإذا ولت الدول صار الوَبَلُ حبلاً

فلما أطلت الشمس المضيئة للعالم برأسها من فوق الجبال، وتحرك جيشها الغازي كجمشيد من صحراء المغرب إلى عرش المشرق، لحق حاكم القلعة ومعه جيش جرار بإسرائيل وقبض عليه مرة أخرى وقيده (ص٢٨) في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً، وحمله مرة أخرى إلى القلعة وجعل قيوده أضعافاً مضاعفة، فساء أمره أكثر من وضعه ألف مرة.

شعر:

وإذا أراد اللَّه رحلة دولة

عن دار قوم أخطأوا التدبيرا

فأرسل إسرائيل رسالة على لسان التركمان الذين بذلوا غاية الإخلاص ليحققوا له الخلاص قال فيها لإخوته وأعوانه وخلانه «استعدوا في طلب القصاص لي أنا المظلوم

المحروم، وابذلوا أقصى غاية الإمكان لتحقيق هذا الأمر، واعتبروا الرد على هذا الظلم فريضة» والجزاء في الطبيعة راحة وحاولوا الظفر بالملك، ولا تصنعوا بالخمول والعجز، وقووا قلوبكم، واجعلوا صقر علو همتكم يحلق في فضاء العلا، وقولوا للأخ الأكبر.

بيت شعر فارسي ترجمته:

كن ذا همة عالية كالصقر وذا قوة كالنمر، حتى يكون رائعاً في وقت الصيد ومنتصراً في الحرب.

وحذار حذار أن تكون كالضعفاء الجبناء تنكص على عقبيك من ميدان القتال بعد حملة واحدة وتتقاعس عن طلب الملك من صدمة.

شعر:

يرى الجبناء أن العجز حزم

وتلك خديعة الطبع اللئيم

وصفوة القول أن عمر إسرائيل قد انتهى في أثناء هذه المحنة فأسرع إلى قضاء الموت، وطار طائر روحه مثل الحمام من قفص الجسد «وإذا انقضت المدة لا تنفع العدة». وكان ابنه قتلمش(*) قد أمضى مدة في المنطقة للتعرف على أحوال أبيه

(*) قتلمش ـ هو ابن إسرائيل ورأس سلاجقة الروم، وكان قد نافس ألب آرسلان على السلطنة ودارت الحرب بين جيش ألب آرسلان وجيش قتلمش فانتصر ألب آرسلان ووجد قتلمش ميتاً في ميدان المعركة سنة ٤٥٦هـ.

وظل يطوف في الأطرف زمناً متنكراً في زي غير معروف، فرجع بعد وفاة أبيه، بقلب محترق، وعين باكية، وقد قل عزمه، ونكص عن الأخذ بالثأر (ص٢٩) فتوجه من القلعة التي قبضت روح والده في بلاد الهند إلى بخارى، وقد مزق جيبه، وأهال التراب على رأسه حزناً، وذهب إلى أعمامه وقبيلته وعرض عليهم القصة، فكانت سبباً في تبديل سرور آل سلجوق حزناً، وانفراط عقدهم، وتصدع بنيانهم، واشتعلت النار في بيدرهم بوفاة رئيس أسرتهم الذي كان بقاؤه مبعث سرور الإخوان والخلان.

بيت شعر بالفارسي ترجمته:

أصاب ديارنا بَرَد، فلم يبق في روضنا ورقة

ثم التجأوا إلى حضرة ذي الجلال، بحكم قوله ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾[1] ومن استعان بالله كفاه. ولما مضت مدة على هذه الواقعة المؤلمة والحادثة المحرقة أرسلوا شخصاً إلى حضرة السلطان محمود[2]، وطلبوا منه أن يأذن لهم بعبور نهر جيحون، والإقامة في خراسان بين نسا وباورد لأن مراعيهم في بخارى

---

(١) سورة الرعد، آية ١١.

(٢) نص العبارة مضلل لأنه يوحي بأن الطلب كان بعد وفاة إسرائيل، والحقيقة أنه كان قبل وفاته لأن إسرائيل توفي بعد وفاة السلطان محمود.

قليلة ولا تكفي أعشابها لمواشيهم، فسمح لهم السلطان بالعبور والإقامة هناك، وتصادف في ذلك الوقت الذي أذن فيه السلطان لهم أن وصل أرسلان جاذب حاكم طوس وما حولها إلى حضرة محمود ليقدم فروض الطاعة والولاء في أدب وخضوع فقال للسلطان إذا كان كرم السلطان وشهامته ورعايته لعبيده ومكرمته قد اقتضت جميعها بذل هذه المكرمة «وللأرض من كاس الأكرام نصيب» فإنه ليس من مصلحة الملك وأسس حفظ الدولة أن يسمح لهم بمثل هذه الكثرة في عددهم (ص٣٠) وعدتهم وسابقة مخالفتهم وعداوتهم بالعبور إلى ولايته، وتعريفهم بها وهم غرباء عنها».

بيت شعر فارسي ترجمته:

من رأى عظمة اثنين كجمشيد، ومن رأى سيفين في غمد واحد

فلم يستمع السلطان إلى هذه النصيحة، ولم يلتفت إلى هذه الحكاية، وهو لا يعلم ما جاء في هذا البيت.

بيت شعر فارسي ترجمته:

إذا حقد الفيل على البعوضة

انتقم منها وقضى عليها

وعبر السلاجقة نهر جيحون وأقاموا بين نسا وباورد في روضة من العز والسعادة، ولم يظهر السلاجقة عداوة طالما كان محمود حياً، لم يخرج طائر الحياة من قفص جسده ولم يتوجه إلى صحراء العدم، وفي سنة ثمان وعشرين

وأربعمائة[١] بدل السلطان محمود نعيم هذه الدنيا بالنعيم الرباني، ونقل أسباب إقامته من دار الدنيا إلى منزل الآخرة ﴿والآخرة خير وأبقى﴾[٢] وورثه ابنه السلطان مسعود[*].

بيت شعر فارسي ترجمته:

ورث المكارم كابراً عن كابر

كالرمح أنبوباً على أنبوب[٣]

وصار سلطاناً متصرفاً في المملكة، واستقر على سرير السلطنة وكان لميكائيل[**] الذي كان أكبر أبناء سلجوق ابنان تشع من جبينهما أنوار شمس الحظ وتبدو في غرتيهما آثار السعادة هما جغري بك أبو سليمان[***] داود وطغرلبك

---

(١) هذا التاريخ غير صحيح فقد توفي محمود في عام ٤٢١هـ.

(٢) سورة الأعلى، آية ١٧.

(*) مسعود الغزنوي ـ ابن السلطان محمود الغزنوي، كان والياً على أصفهان أيام أبيه ولما توفي أبوه بويع لأخيه محمد ونازعه مسعود على السلطنة ونجح بالاستيلاء على المُلك سنة ٤٢٢هـ وبايعه الناس وفي سنة ٤٣٢هـ تآمر عليه بعض عسكره واعتقلوه في قلعة كيكي ثم قتلوه.

(٣) العتبي ـ شرح المنيني، طبع القاهرة عام ٢٨٦هـ، حـ٢، ص ٤٨.

(**) ميكائيل ـ أكبر أبناء سلجوق وتولى قيادة السلاجقة بعد أسر إسرائيل ونجح في نقلهم إلى إقليم خراسان وتوحيد صفوفهم.

(***) جغري بك بن ميكائيل أخو السلطان طغرلبك وكان صاحب خُراسان وهو الذي كان يقاتل الغنزنويين ويمانعهم عن خراسان ومن أشهر أولاده السلطان ألب آرسلان، توفي سنة ٤٥١هـ.

أبو طالب (ص٣١) محمد فأرسلا رسالة إلى حاكم نيسابور سوري بن المعتز ـ باني القبة المقدسة لقبر الإمام المعصوم المجتبى الرفيع القدر الإمام المرتضى الرضا عليه السلام في مدينة طوس ـ قالا فيها «حدد أماكن إقامتنا في نيسابور وأطرافها». وفي تلك الأثناء كان السلطان مسعود بن محمود في جرجان.

بيت شعر فارسي ترجمته:

الملك الذي شرُفت به أسرة محمود،

والمُلْك الذي تعرضت به أسرته للخطر

فعرض عليه حاكم نيسابور قضية السلاجقة، فجاء السلطان إلى نيسابور لدفع خطرهم والمحافظة على ملكه الموروث المكتسب، ونظراً لأن جنده كانوا منهكين ومضطربين من سفر مازندران ولم يكن في واحد منهم قدرة على القتال، ولم يكن هو نفسه قادراً على المسير، فقد اختار من قومه مجموعات من الشجعان مع عدد من الرجال الأقوياء كالأسود وأرسلهم لقتال السلاجقة وسار معهم جيش عظيم وأتباع لا حصر لهم وكان السلاجقة غافلين عن هذا الأمر وعلى غير علم به، فابتلوا بجيش مسعود مضطربين وعجزوا عن مقاومته، فأغار جيش مسعود على كل ما يملكون، واشتغل بالنهب، فأعد السلاجقة عدة الحرب وآلاتها «والعود أحمد» وقع قتال عظيم بين الطرفين مرة بعد أخرى، فانهزم جند مسعود وصار حالهم ينطبق عليه قول «يوم

علينا ويوم لنا» وانفرط عقد جيش مسعود، فترك جنوده الذين في المقدمة الحياة الدنيا الموحشة إلى الدار الآخرة الآمنة، أما من كانوا في المؤخرة فطبقوا قول «الفرار (ص٣٢) مما لا يطاق» وولوا الإدبار منهزمين، وغنم السلاجقة ما يقرب من خمسمائة ألف دينار ذهب من أمتعة مسعود وأسلحتهم، وارتفع شأن السلاجقة وتضاعفت أسباب رفعتهم، وكان هذا النصر دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً على تحقق أنواع التوفيق لهم.

شعر:

أول ما يكون الليث شبل
ومبدأ طلعة البدر الهلال

وقد كلف السلطان مسعود أمير خراسان تارة بعد أخرى أن يزعج السلاجقة ويخرجهم قسراً من ولاية خراسان، فأرسل أمير خراسان رسالة إلى السلطان وفقاً لمبدأ ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[1] قال فيها «لكل عمل رجال، وقد ارتفع شأنهم اليوم إلى درجة أن سهم تدبيرهم قد أصبح نافذاً، وشجرة إقبالهم في بستان جلالهم قد صارت أكثر رسوخاً من الجبال، فلا يستطيع جيش شخص مثلي، ولا ريح قهري القضاء عليهم ودفعهم وقهرهم وهم في مثل هذه الحالة من القوة».

---

(١) سورة البقرة، آية ١٩٥.

بيت شعر فارسي ترجمته:

لقد ظهر لك في هذه الدنيا، عمل كل إنسان، وإنسان كل عمل، فلما وصل هذا الجواب إلى مسعود غضب وقال ـ إنه يريد أن يعيش في أمان وأمن، طبقاً للحكمة القائلة: إلزم مكاناً وُلِدت فيه، ليظل ساكناً في وطنه مستقراً فيه، فلما سمع أمير خراسان هذا الكلام من السلطان، امتثل أمره وأظهر الطاعة وتوكل على الله.

شعر فارسي ترجمته:

ماذا يفعل العبد إذا لم يطع أمر سيده؟...

وتوجه نحو جند السلاجقة على رأس الجيش الذي كان تحت إمرته فلما بدأ الحرب (ص**٣٣**) هجم جنود السلاجقة فجأة على جند خراسان فشتتوهم، وكان فرسان السلاجقة ينطبق عليهم قول الشاعر:

يصيدون الفوارس كل يوم
كما يتصيد الأسد البقارا

فانفرط عقد جند خراسان وتفرقوا في بلاد خراسان، واتخذ طغرلبك مدينة نيسابور التي كان فيها سرير سلطنة السلطان مسعود مقراً له، وأقرّ أساس العدل والإنصاف، ولم يسمح في تلك الفترة ـ بوقوع أي هرج أو مرج في تلك المنطقة، ولما وصل نبأ جلوسه على العرش إلى سمع السلطان مسعود تميّز غيظاً واحترق قلبه بنار الحقد فتحرك على رأس جيش جرار سدت راياته رحاب السماء حتى أن

الطيور لم تجد مجالاً للطيران في الفضاء، ولم تجد مكاناً تتخذه أوكاراً.

شعر:

قــوم إذا مــروا بــعــبــاب الــثــرى
كـحـلـوا الـعـيـون بـأثـمـد الـظـلـمـاء
يـمـشـون فـي حـلـق الـدروع كـأنـهـم
صـم الـجـلامـد فـي غـديـر الـمـاء

وتوجه من غزنين لقتال طغرلبك وكان طغرلبك في هذه الحالة في طوس وكان بعيداً عن أخيه جغري بك، فعد مسعود افتراق الأخوين سبباً في إنجاح مقصوده، على أساس أن (الفرص تمر مر السحاب على الفور). وكان يركب أنثى فيل ظهرها كالقصر الراسخ والحصن الحصين، وكانت تعبُّر الإقليم في ليلة، تطير سريعاً كالصقر، وتوجه إلى طوس ولما كان حظ طغرلبك يقظاً فإنه تصادف أن استولى النوم على السلطان مسعود، وهو راكب على أنثى الفيل (ص٣٤) أثناء توقفه للاستراحة، ولم يجرؤ واحد من خدامه، ولا شخص من علية قومه على إزعاج السلطان بإيقاظه من النوم، وكانوا يخافون من القول المأثور «السهر جراحة» فلما بدت تباشير الصبح الصادق، وفر جنود الليل السود خوفاً من هجوم جند النهار البيض، على أساس مثل هو «الضدان لا يجتمعان» واستيقظ السلطان من هذه النومة التي تشبه نومة العروس، ورفع رأسه فوجد الأخوين قد انضم أحدهما للآخر فلحق

طغرلبك بجغري بك وأجيب دعاؤه ﴿أشدد به أزري﴾[1] وأصبح التقاء جيشهما كالتقاء البحرين، فلما رأى السلطان مسعود الحالة بهذه الصورة رجع بحكم الضرورة، وتقدم أمام بقية جيشه، واشتغل بضعة أيام في إعداد عتاد الجيش المنصور وآلاته، وفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة وقعت بينه وبين السلاجقة حربٌ في الصحراء الواقعة بين سرخس ومرو، وجرى القتال لا يصفه الواصفون، وكان في تلك الصحراء عددٌ من عيون الماء، وكان السلاجقة قد تزودوا بحاجتهم من الماء قبل بدأ القتال، «فمنحوا الحياة بالماء الذي أخرجوه من البئر كيوسف مصر» ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[2] ثم ردم السلاجقة منابع الماء وعيونه فتمرغ جيش مسعود في تراب المذلة بسبب فقدانهم الماء، وخشوا أن تذروهم الرياح من حرارة نار العطش، فانفرط عقد الجيش وطبق أفراده القول المأثور «وفي الشر نجاة إذا لم ينجيك إحسان» ففكروا في غدهم، وتركوا السلطان وحيداً، فلما رأى السلطان نفسه وحده (ص**٣٥**) وابتلى بمشقة «الفرقة عذاب»، فصمم على الفرار، وركب فيلاً قوياً تتزلزل من هيبته الصخور وترتعد خوفاً منه الفهود والنمور، وولى وجهه صوب الهزيمة، وكان جماعة من السلاجقة لا يكفون عن متابعته، فصرع السلطان

---

(١) سورة طه، آية **٣١**.

(٢) سورة الأنبياء، آية **٣٠**.

واحداً منهم، وكان قد صمم على الهجوم عليه مستميتاً في الفتك به، وقضى على جميع من كانوا معه بحملة واحدة، فقال له الشخص الملازم له «اينهزم شخص مثلك يستطيع بحملة واحدة أن ينزل الهلاك والدمار بمجموعة؟ فلم تعفر وجه الشجاعة بغبار هذه النقيصة؟» فأجاب بشعر فارسي ترجمته:

بلى في كل لحظة يسوء فيها الدهر

ولا ريب في أنه حينما لا يكون الحظ مساعداً أو السعادة حليفة فإن العدة والعتاد وكثرة الشجاعة، وقوة المبارزة تضيع كما تضيع اللبنة في تيار الماء القوي وتصير كالخضاب في الشباب بلا جدوى.

شطر من بيت شعر فارسي «والجَدّ يغني عنك لا الجِدّ».

فلما نجا السلاجقة من مخلب هذه الحرب، وحلق هذا التمساح ارتفع صيت رفعتهم إلى عنان السماء، وارتفع علم دولتهم فوق سطح الفلك، واجتمع الأخوان المذكوران وانضم إليهما عمهما موسى السلجوقي، كما انضم إليهم أعمامهم وأبناء عمومتهم وتعاونوا جميعاً في الشر والخير، وتعاهدوا معاً، ولما انتظموا بالتعاهد والعهد كعقد الجواهر، وقالوا يجب أن نكون جميعاً متحدي الكلمة وأن نقوّي أساس الاتحاد والوداد بيننا رغماً للأضداد بحيث لا يستطيع تلون الزمان أن يهدم هذا البنيان، فلا يستطيع بالوساوس

والهواجس ـ (ص٣٦) أن ينحرف كل نسناس ووسواس ﴿إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها﴾[١].

فلا يكدر صفو المودة بنزعات شياطين الإنس

لو ﴿بست الجبال﴾[٢] أو ﴿انشقت السماء﴾[٣]

وصفوة القول أنهم بهذه الطريقة زينوا روضة القرابة بزهور الإلفة، وكان كل واحد منهم يقول لصاحبه بلسان الإخلاص.

شعر:

دينـــي بـــدينـــك مـــوصـــول وإن كـــرهـــوا

إن صـمـت صـمـت وإن أخـطـرت لـم أصـم

وإن نـــهـــضـــت أرانـــي قـــائـــمـــاً أبـــداً

وإن قـــعـــدت طـــول الـــدهـــر لـــم أقـــم

وبعد إرساء هذه القاعدة من التعاهد والتضامن كتبوا قصتهم للخليفة العباسي القائم بأمر الله حينذاك ومضمونها أن السلطان محمد الغازي الغزني سجن عمنا إسرائيل مدة مديدة وسنوات عديدة «العم بمنزلة الوالد» دون أن يظهر منا اعتداء أو نرتكب مخالفة، فظل عمنا في السجن مقيداً حتى انتهى عمره، وانقضى زمنه، فلما لبى محمود نداء الإله المعبود

---

(١) سورة مريم: صحيح الآية ـ ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾، آية رقم ٤٠.

(٢) سورة الواقعة، آية ٦.

(٣) سورة الحاقة، آية ١٦.

وانقضى أجله وترك غازي غزنين دار الغرور إلى دار السرور وجلس ابنه مسعود على عرش السلطنة مكانه، هاجمنا مرة بعد مرات، وجاء إلى ميدان المبارزة، وامتشق سيف المقاتلة وسله من غمد العداوة «والبغض يتوارث» فاعتصمنا بحبل التقوى، وقدنا سفينة وجودنا إلى جودي وأحب الوجود (ص**٣٧**) فلم ينتصر علينا مصداقاً للقول المأثور «من كان لله كان الله له» وكانت معنا العناية الأزلية والقوة الربانية، ولم يظفر في حربه معنا ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾[١] وقد عددنا سكش هذه النعمة وإدامتها بإحياء رسوم الأمن والأمان، وإرساء قواعد العدل والإحسان. ورأينا هذا فرضاً علينا، وسعينا قدر طاقتنا بجهد المقل أن نمنع الظلم والطغيان، ونهدم أسوار العدوان، ونعد الاستمرار في انتهاج هذه الطريقة إلى طول مدة توفيقنا، وسبباً في ازدياد رونقنا وظفرنا، وموجباً لتضاعف عزنا وعُلانا وامتداد زمان بقائنا ﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[٢].

وقد رأينا أن تحقيق هذه الأمنية يحتاج إلى مستمسك قوي وحبل متين، ونريد أن يكون هذا الأمر على نهج الدين المبين، وبأمر وإذن من أمير المؤمنين.

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٢٦.

(٢) سورة الرعد، آية ١٧.

وأرسلوا هذه القصة دار الخلافة بيد أبي إسحق الفقاعي ثم قسّموا بعد ذلك المملكة بينهم فأصبح كل واحد منهم نافذ الأمر في جزء، وحاكماً في ناحية فصار أبو سليمان جغري بك الذي كان مقدم الإخوان وسرور الأقران حاكماً على خراسان واتخذ مدينة مرو عاصمة وتوجه طغرلبك إلى العراق. وكان مدة طالباً للملك يضحي بروحه في سبيل هذا الأمر ويعلم ما يتضمنه هذا البيت.

بيت شعر فارسي ترجمته:

إن الشخص الذي يصمم على بلوغ الهدف، يستطيع أن يكون درعاً يتلقى سهام البلأ واتخذ مدينة الري عاصمة له، وعين إبراهيم ينال الذي كان أخاه من أمه لفتح همذان وأبهر وزنجان وأجزاء آذربيجان، وأرسل قتلمش (ص٣٨) ابن عمه لولاية جرجان ودامغان.

فلما وصلت رسالة السلاجقة إلى دار الخلافة تلقاها الخليفة بإعزاز وإجلال وأمر أن يتجه هبة الله محمد المأموني إلى العراق العجمي لاستدعاء طغرل، فظل ثلاث سنوات متصلة ملازماً لأعتاب السلطان طغرل، ولم يكن لدى طغرلبك الوقت للتوجه إلى سليل البيت النبوي المقدس.

وفي سنة سبع وأربعين وأربعمائة أمر أمير المؤمنين بالدعاء للسلطان طغرل على المنابر بعد أداء الفرائض، وأن تتضمن الخطبة ذكر اسمه، وفي رمضان من هذا العام صمم طغرل على الحج إلى كعبة جلال أمير المؤمنين وناظم أمور المسلمين فتوجه إلى دار السلام، فوصل طغرلبك إليها في

هذا الشهر، وكانت قاعدة الإسلام وعشه فقدم فروض العبودية وفقاً للقواعد المرعية، فأكرمه الخليفة غاية الإكرام، وأنعم عليه بالخلع والهدايا الوفيرة، وشرفه بخلعة شريفة هي ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾(١) وأصدر منشوراً بتوليته موقعاً تعالى ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾(٢) وختم منشور ورجع طغرلبك في سنة تسع وأربعين وأربعمائة من بغداد مدينة السلام محقق الرغبة والمرام، وتوجه إلى مدينة الري على جناح الإقبال بطالع يبدأ به (ص**٣٩**) إلى التقويم، بعد أن شملته السعادة والأماني، وحصل على المراد والتوفيق، ونزل بدار ملكه وعاصمته.

شعر:

بأيمن طائر وأعز نصر
وأرفع دولة وأجلِّ حال

وتصادف أنه حينما خرج طغرلبك من حضرة الخليفة، صمم البساسيري(*) الذي كان قائد جيش بغداد ومقدم الجند على

---

(١) سورة البقرة، آية ٣٠.

(٢) سورة الزخرف، آية ٢٨.

(*) البساسيري: آرسلان بن عبد الله أبو الحارث ـ تركي الأصل كان من ممالك بني بويه وخدم القائم العباسي فقدمه على جميع الأتراك في بغداد، وتلقب بالمظفر ثم خرج على القائم وأخرجه من بغداد وخطب للمستنصر الفاطمي وأخذ له بيعة الأشراف والقضاة في بغداد قسراً، وحاربه السلطان طغرلبك وانتصر عليه وقتل سنة ٤٥١هـ.

التمرد، والعصيان، وكان له أتباع كثيرون أبطال شجعان وخرج على الخليفة وطغى مصداقاً لقوله تعالى ﴿إن الإنسان ليطغى إن رآه استغنى﴾[1] وأظهر إمارات التنكر قولاً وفعلاً، وسَوّلت النفس المتمردة التي كانت قد شبعت من السلطة ومن العمر، للبساسيري أن يتمرد، وأن يتجرأ بالشجاعة لتتحطم قبضة ظلمه هو ومن تابعه ﴿جزاء بما كسبا﴾[2] فرجع السلطان طغرلبك فورا، وتوجه إلى دار الخلافة[*] فلما وصل وكان إبراهيم ينال الذي مرّ ذكره، مصاحباً لركاب السلطان في هذه السفر، فرجع في أثناء الطريق بقصد تسخير منطقة همدان، فتوجه السلطان في أثره كالسحاب حتى يحافظ على ملكه وقبض عليه، وأسلمه لمن يزهق روحه، فلما بلغ نبأ رجوع طغرل لقتل إبراهيم ينال سمع بساسيري سعد وطرب، وتعاهد مع حاكم الموصل وعدد من المشهورين (ص٤٠) وتوجه إلى دار الخلافة، وهو لا يعلم ما جاء في الشعر.

بيت شعر فارسي ترجمته:

---

(١) سورة العلق، آية ٧.

(٢) سورة المائدة٣٨.

(*) دار الخلافة العباسية ـ كانت تضم مجموعة قصور خلفاء بن العباس مثل التاج ودار الشجرة والدار المثمنة والقصر الحسنى وقصر الفردوس وكانت تتخذ مساحة الدار من شارع السموأل وحتى محلة المربعة الحالية بالقرب من جامع السيد سلطان علي وكان يحيط بها سور له تسعة أبواب.

إن الطريق الغير المستساغ في كل الأديان، أن يتمرد الإنسان على ولي نعمته.

ولما وصل إلى مقصده. قبض على الخليفة، وأرسله إلى عانة، وسجنه، وقتل من أعيان حضرته وملازمي خدمته رئيس الرؤساء(*) الذي كان مفخرة دهاة العالم وقدوة كفاتها، وكان يشار إليه بالبنان في كمال العقل، ووفور الفضل، وكان متفقاً على تفوقه في فنون المكارم والمفاخر، ثم توجه للقضاء على آيتكين شحنة بغداد، وأراد أن يقتله هو أيضاً، ولكنه لم يجد فرصة لذلك لأن أجل شحنة بغداد لم يكن قد حان بعد، وعمره لم يكن قد وصل إلى النهاية، ولم يصله نداء ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[1] فهرب إلى حلوان(**)، ودفع بحلاوة فرصة الهروب من الموت مرارة مشقة الغربة. وأرسل الخليفة رسالة إلى طغرلبك قال فيها: «تنبه فإن الإسلام في خطر، فأسرع لدفع هؤلاء الملاعين، ولا تتقاعس عن نصرة الدين، حتى تعود الأمور إلى نصابها، وترجع إلى

(*) رئيس الرؤساء ـ الوزير العباسي أيام الخليفة القائم بأمر الله (أبو القاسم علي بن حسن بن أحمد بن المسلمة) الملقب برئيس الرؤساء قتله البساسيري سنة ٤٥٠هـ.

(١) سورة النحل، آية ٦١.

(*) حلوان ـ بالضم ثم السكون وهي آخر حدود العراق مما يلي الجبال سميت باسم حلوان بن عمران بن قضاعة كان قطعه إياها بعض الملوك، أكثر ثمارها التين وهي بقرب الجبل وحوليها عيون كبريتية.

سيرتها الأولى ويصل الحق إلى المستحق» وأرسل الخليفة إلى آيتكين أن يبلغ طغرلبك بهذا، فكتب آيتكين رسالة إلى السلطان وضمنها ما طلبه الخليفة، فلما وصلت رسالته إلى طغرلبك، أمر وزيره ماضي العزم عميد الملك أبا نصر الكندري أن يكتب رداً على رسالة آيتكين، فكتب رداً مختصراً مفيداً متضمناً القول «سنأتي فوراً بجيش لا حصر له فينبغي على الخليفة أن يكون فارغ البال مطمئن الحال» وأمر الوزير الكاتب القدير صفيا أبا العلا حسول الذي كان أمهر الكُتاب وكان يعد بينهم من الأصول وبين مجمع **(ص ٤١)** الفضلاء من الفحول أن يصوغ الرد بهذه الصورة في عبارة موجزة «وخير الكلام ما قل ودل» وكتب صفي أبو العلاء آية من كلام الباري عزّ وجلَّ على ظهر الخطاب المرسل لآيتكين هي: ﴿ارجع إليهم فلنأتيهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون﴾[1] وعرض الوزير صفاء ذهن الكاتب ولطف طبعه على السلطان صاحب التدبير، فاستحسن هذا الأمر، وأكرم صفياً وأمر له بصلات سنية، وهبات سلطانية، وبعد وقت يسير توجه إلى بغداد على رأس جيش جرار تضيق به الجبال والوديان والبحار فيه جنود ضاقت الأرض برحبها عن كثرتها، وامتلأت القلوب رعباً لشدة بطشهم حتى يقتص من ذلك الظالم الجاحد، وينقي فرات

---

(١) سورة النمل، آية **٣٧**.

صفو الخليفة من شائبة وجود ذلك المتمرد، فلما وصل إلى مدينة بغداد قبض على بساسيري، وقتله شر قتله بذلة ومهانة، وجعل لحمه طعاماً للحيوانات فشبعت منه كثيراً وهذا حق ولا شك كما جاء في الشعر.

بيت شعر فارسي ترجمته:

كل ضعيف يتصارع مع قوي، يسقط بحيث لا ينهض أبدا.

وفي ذي الحجة من عام إحدى وخمسين وأربعمائة أحضر الخليفة القائم بأمر الله إلى مسند الخلافة وسدة الإمامة ووضع الحق في نصابه، فلما وصل الركب إلى قرب مدينة السلام، ترجل السلطان طغرلبك من فوق جواده، ووقف خلف محفة الخليفة رعاية للأدب، واحتراماً للخلافة، فأكرمه أمير المؤمنين (ص٤٢) وأملا له بالتمكين وقال له «اركب يا ركن الدين» فركب طغرلبك الذي كان في الحقيقة الركن الأساس للدين، ودخل في صحبة الخليفة قصر الخلافة ومركز الإمامة، ولما انقضت بضعة أيام على هذه القصة، ومرّ وقت على هذه النصرة، قال السلطان طغرلبك للوزير «حيث إنه يلزمنا أحياناً أن نجيء إلى هنا ومعنا جيش كبير وجند عددهم وفير، فينبغي على الخلفية أن يأمر بتخصيص مخصصات معيّنة لجيشنا حتى نعد فيها العدة اللازمة» فقال الوزير الثاقب الرأي بعيد النظر «إن طبيعة الوقت تقتضي أن يتقدم الخليفة بهذا الالتماس للسلطان والظروف تحتم أن يعين

السلطان للخليفة مخصصاته ولكني حسب أمركم سأذهب إلى حضرة الخليفة وأعرض عليه ما تريدون» فلما وصل الوزير إلى باب قصر الخليفة كان وزير الخليفة يخرج منه ويقول «أنا أذهب برسالة إلى حضرة السلطان» فرجع وزير السلطان وتوجه مع وزير الخليفة إلى السلطان ودخل وزير السلطان قبل وزير الخليفة إلى حضرة مخدومه. وقال له «إن مندوب الخليفة قد جاء برسالة، وهكذا يظن، والظن يخطئ ويصيب. إن الخليفة يلتمس من السلطان تعيين مخصصاته التي يتفق منها، فلو بلغ هذا الظن حد اليقين، واتضح صدق هذا التخيل فالرد الصحيح أن تقولوا إننا كنا نفكر في هذا الأمر».

فلما دخل وزير الخليفة وقال ما توقعه عميد الملك، وصدق ظن هذا الوزير مصداقاً للقول المأثور: «العاقل يبصر بقلبه ما لا يبصر الجاهل بعينه» أجاب السلطان بالطريقة التي لقنها، وفي اليوم نفسه استدعى أصحاب ديوان الخليفة وكتابه (ص ٤٣) وطلب إصدار قانون، وعين المخصصات اللازمة لإنفاق الخليفة، وجعل ما يتبقى منها تحت تصرف الديوان بأمر من الخليفة نفسه، وتوجه من بغداد إلى دار الملك تبريز وترك عميد الملك في بغداد ليخطب أخت الخليفة بوكالة منه، فارتبطت أطناب خيام السلطنة بهذه الوسيلة بأوتاد الثبات والخلود، وانسدت بهذه الظاهرة الطريق في وجه معارضي طغرلبك ومنافسيه في السلطنة وقد توقف الخليفة مدة في إجابة هذا الطلب، ولكنه في عاقبة الأمر

وافق مراعاة لظروف الوقت، ولما تمّ الرضاء وكان دليلاً على القضاء أرسل الخليفة قاضي قضاة بغداد مع ركب أخته فاطمة «واليه المملكة وبه السلطنة» إلى تبريز لتتم الخطبة، فلما وصل ركبها إلى تبريز تهيأ الأقاصي والأداني في المدينة وما حولها لاستقبالها، فاستقبلها الأصاغر والأعالي والأكابر والموالي، ولم يتركوا شيئاً في استطاعتهم لم يفعلوه تعبيراً عن سرورهم، وفي يوم مبارك ووقت ميمون عقدوا القِران في محفل غاص بالعوام والخواص وتُلي عقد المصاهرة ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾[(١)] وابتهج السلطان بحصول هذا المطلوب، وإنجاح هذا الأمر المرغوب وأظهر السرور، وافتخر به، وكان يقول:

بيت شعر فارسي ترجمته:

أملي هو أن أنجب ممن تشبه في سيرتها فاطمة، عشرة أبناء مثل الحسن والحسين.

ثم توجه إلى الري عاصمة دولته، حتى يحتفل هناك بالزفاف، ويضم إلى جواره عروس مراده (ص٤٤) فلما اقترب من الهدف نزل بقرية طجرشت في فضاء تلك الصحراء بغية دفع أذى حرارة الهواء، فاعتلت صحته وقتاً قصيراً، ولكن الطبيعة أسلمت روحه لريح النكبة، فتركت روحه دار الفناء مسرعة إلى دار البقاء، وطار حمام روحه من قفص

(١) سورة هود، آية ١٠٣.

الجسم الضيق إلى الملاء الأعلى وطوى فراش هادم اللذات بساط عظمة هذا السلطان الرفيع الشأن، فانهدم قصر جلال ذلك السلطان ذي الكمال بالريح القاهرة لقوله تعالى ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾(١) فأصبح في أسفل سافلين بعد أن كان قد بلغ به أعلى عليين ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾(٢) ورجع موكب العروس التي كان قد عقد عليها ودفع مهرها ولكنه لم يدخل بها ـ إلى بغداد، وذهب كل ما بذله من سعي وجهد واجتهاد أدراج الرياح هباءً منثوراً خضوعاً للقضاء السبحاني والتقدير الرباني و ﴿لا معقب لحكمه ولا مرد لقضائه﴾(٣).

بيت شعر فارسي ترجمته:

بالأمس كنت في صورة لم يكن في مثلها أحد، واليوم صرت في صورة معاذ الله أن يكون في مثلها أحد. ولما رحل السلطان طغرل من الدار الدنيا إلى مقام العقبى، جعلت مملكة العراق وخراسان لالب آرسلان محمد بن جغري بك وتمكن من الجلوس على عرش السلطنة في قرار مكين.

بيت شعر فارسي ترجمته:

حينما يتبدل إنسان بآخر في هذه الدنيا، تذهب لتحل محلها

---

(١) سورة النساء، آية ٧٨.

(٢) سورة لقمان، آية ٣٤.

(٣) سورة الرعد، آية ٤١.

الدار الأخرى (ص٤٥) وكانت مدة حكم أبي طالب طغرل محمد بن ميكائيل ستة وعشرين عاماً، فكان ابتداؤها في عام تسع وعشرين وأربعمائة وكانت نهاية عمره في رمضان من عام خمس وخمسين وأربعمائة، وقد اتخذ وزيرين مقدمين هما أبو القاسم الكرماني(*) وعميد الملك أبو نصر الكندري(**) والسلام.

(*) أبو القائم الكرماني ـ الصحيح أبو القاسم الكوباني كما ورد في راحة الصدور، ص ١٥٩، واسمه الكامل سالار بوز كان أبي القاسم الكوباني، وذكره ابن الأثير باسم (أبو القاسم علي بن عبد الله الجويني) وهو أول وزير لطغرلبك.

(**) محمد بن منصور بن محمد الكندري الملقب عميد الملك وزير طغرلبك وقد قُتِل سنة ٤٥٦هـ.

السلطان عضد الدين أبو شجاع ألب آرسلان محمد بن جغري بك بن ميكائيل برهان أمير المؤمنين

كان السلطان ألب آرسلان سلطاناً ميمون الطالع موفقاً وحاكماً محقق الرغبات مظفراً، متحلياً بالعظمة الإلهية والأبهة الملكية، وكانت شجاعته معروفة في أرجاء العالم مشهورة ومذكورة، وسماحته مكتوبة في صحائف الزمان مسطورة، وكان يستطيع في وقت الحرب والنزال أن يصارع الأسود، وأن يبارز الأبطال الصناديد.

بيت شعر فارسي ترجمته:

في كل مائة ألف قرن يأتي الفلك الدوار، بمثل هذا الفارس المغوار.

وكان له مظهر حسن وشمائل محبوبة، ويقولون إنه كان جذاب المنظر، له يد قوية تصرع الخصوم، فإذا انطلق السهم من ساعده القوي، فإنه لا يقع على شيء إلا حطمه ولو كان قلعة حصينة منيعة، وبرغم أنه كان في الوقار أكثر رسوخاً من

جبل طور، فإن لطمة موج غضبه كانت تخرج التراب من قعر بحر العدو وتلقيه على الساحل فتدمره تدميراً، وصولة غضبه كانت تخرج النار من قلب الحجر، وتظهره ظهوراً.

شعر (ص ٤٦):

ونـحـن أنـاس نـرتـدي الـحِـلْـم شـيـمـة
ونـغـضـب أحـيـانـاً فـنـروي الـعـوالـيـا

ولم يكن مجلس مخالفيه سوى مقبرة مطمورة، وحفرة للثيران محفورة، وفي زمان حكمه لم يكن كسرى بالنسبة إليه أكثر من تابع في قيد رجاله الأبطال وأكثر من سرو في بستان زمانه لا يحب أن يخرج من قيد طاعته، وقد غزا جيشه المنصور المناطق الواقعة بين الخطا والختن وسيطر على أكناف العالم وأطرافه، ولما حلّ الدور في الغزو على منطقة فارس وشبانكاره، لأن أهلها لم يخضعوا لحكمه، وتمردوا على طاعته وعصوا أمره قهرهم ببطولته وردهم إلى طاعته وامتثال أمره، وتوجه بنفسه إلى شبانكاره وبمقتضى قول الله تعالى: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾[١] أذل كثيراً من الحكام المتكبرين، وجعلهم يؤدون الخراج صاغرين وقتل كثيراً من المتنفذين وجعلهم طعاماً لسيفه المفترس، وفي عهد سلطنته خرج ملك الروم

(١) سورة النمل، آية ٣٤.

أرمانوس(*) قاصداً بلاد الإسلام على رأس ثلثمائة ألف فارس، ورفع ألوية الكفر والضلال معتمداً على قوة جنده الأبطال وماله من شوكة الإقبال، وصمم على الإغارة على ممتلكات المسلمين، وتشتيت شملهم، سيطر على عقله حب ارتقاء معارج السيطرة على العالم، فأسلم عنان الاختيار ليد الشيطان المكار ونهض السلطان لصده، بحكم قول الله تعالى ﴿وجاهدوا في سبيل الله﴾(١) ولم يكن مع السلطان جيش يزيد عدده على اثني عشر ألف(**) رجل وبرغم أن جيشه كان قليل العدد: قد نذر أرواح جنوده من أجل نصرة الإسلام واصطف لصد الكفار الفجار فإنه لا ينبغي أن يهزم لكثرة عدد جيش العدو، أو يخشى كثرة عددهم وعتادهم ﴿ولو كان

(*) رومانوس ديوجين: من كبار قادة الجيش البيزنطي وسيطر على العرش وتولى مهمة ضد الأتراك السلاجقة، وجمع جيشاً كبيراً لمواجهة ألب آرسلان وفي منزيكرت (ملاذكرد) تقابل مع جيش يقوده ألب آرسلان وانتصر السلاجقة انتصارهم الكبير في تلك المعركة سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٧م، وسبق رومانوس ديوجين إلى خيمة السلطان ألب آرسلان والذي استقبله بحفاوة، وساعده ألب آرسلان على العودة إلى بلده.

(١) سورة البقرة، آية ٢١٨.

(**) يذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٦٣ أن عدد جيش ألب آرسلان كان خمسة عشر ألف فارس بينما كان جيش ورمانوس ديوجين مائتي ألف من الجند.

بعضهم لبعض ظهيراً﴾[١] فتوجه لقتال الروم متوكلاً على الله ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[٢].

شعر:

علـى الـمـرء أن يـسـعـى ويـبـذل جـهـده
ويـقـضـي لـه الـعـرش مـا كـان قـاضـيـا

وتقابل الجيشان عند ملازكرد[*] وصمم السلطان معتمداً على الرحمن أن يحطم بناء الظلم والطغيان، وبهجمة تمت في لمحة زلزل كيان جيش الروم بتوفيق الحي القيوم، ويئس أرمانوس من الملك والعزة والعمر والدولة وخشي من وعد الله ﴿والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً﴾[٣] فوقع أسيراً في يد عبد رومي من جيش السلطان الغازي وصار ذليلاً حقيراً ﴿وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾[٤].

بيت شعر فارسي ترجمته:

كـل بـعـوضـة تـطـيـر فـي مـحـلـتـك
تـصـطـاد لأنـهـا لا تـسـتـطـيـع الاسـتـمـرار

---

(١) سورة الإسراء، آية ٧٧.

(٢) سورة الروم، آية ٤٧.

(*) ملاذكرد، وتعرف باسم منزيكرت من أعمال خلاط في مدخل آسيا الصغرى.

(٣) سورة الإنسان، آية ٣١.

(٤) سورة البقرة، آية ٢٤٩.

وقد رووا أنه في الوقت الذي عزم فيه السلطان على الغزو كان يعد الجيش في صحراء بغداد، ويستعرض الجند، فجاء هذا العبد الرومي الذي كان من جند سعد الدولة(*) الشحنة(**) إلى ميدان العرض، وكان يعد نفسه من جنود سعد الدولة فسبه العارض وقال لسعد الدولة:

شعر:

خلق اللَّه للحرب رجالاً

ورجالاً لقصعة وثريد

(ص ٤٨) وأخذت الحمية سعد الدولة، وتحركت فيه عاطفة الرعاية وقال: أكتبْ اسمه، فقد يقبض هذا المحروم على ملك الروم، وقد كانت عاقبة الأمر بهذه الصورة.

شعر فارسي ترجمته:

قد يحدث أن يتصدى الذباب للطاووس.

وعلى كل فقد أُبقي السلطان أرمانوس بضعة أيام مقيداً سجيناً، وبعد أن تشرف بلقائه، ألبس ثوب العفو، وطوق

(*) سعد الدولة: هو سعد الدولة كوهرائين الذي تولى شحنكية بغداد ٤٦٤ يعتبر من الشخصيات البارزة في العصر السلجوقي.

(**) الشحنة: وظيفة استحدثها السلاجقة ويعين صاحبها من قِبل السلطان والوظيفة أشبه ما تكون بوظيفة المحافظ في عصرنا الحديث يتمتع صاحبها بسلطات إدارية وعسكرية، وهو مسؤول عن إدارة المدينة والمحافظة على أمنها.

روحه بقيد الرق، ومنح الأمان لمن كانوا مع أرمانوس في السجن حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون[١] وأمر أن يؤدي أرمانوس كل يوم ألف دينار ذهب جزية وفداء للحرية.

شعر:

لولا التقى لقلت جلت قدرته

وحينما استقر السلطان ألب آرسلان على عرش السلطنة في عام ٤٥٥ عزل عميد الملك الكندري الذي كان وزيراً ومشيراً لعمه طغرلبك وجيشه وأسند الوزارة إلى رجل عالي المقام وسيد ماضي العزم هو نظام الملك الطوسي[*] الذي كان قد لازمه مدة في وقت المحبة وفي زمن الشدة، فكان في خدمته في الشدة والرخاء، والرحمة والعناء تطبيقاً لقول الشاعر.

شعر:

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا

من كان يألفهم في الموقف الخشن.

وجعل في يده زمام جميع الأمور من حلّ وعقد وقبض وبسط وتفويض وعزل، وجعل عميد الملك مضطرب الحال تماماً،

---

(١) سورة التوبة، آية ٢٩.

(*) أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي: وكان قد وزر للسلطان ألب آرسلان وملك شاه، وهو مؤسس، المدارس النظامية في العالم الإسلامي ومن أشهرها نظامية بغداد اغتيل سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م.

ثم أرسل هذا الرجل الكفء إلى دار البقاء ومنزل الخلود في عام ست وخمسين وخمسمائة في مدينة نسا (ص٤٩) وقد رووا والعهدة على الرواة أن آصف الثاني[1] نظام الملك الطوسي كان راضياً بل ساعياً جاهداً في قتل ذلك السيد الماضي العزم، ومهما كان هذا الخبر الذي رووه لا يتفق مع كمال فضل نظام الملك ووفور عقله، وحسن سيرته ونقاء سريرته كابراً عن كابر وثقة، فإن ذكره قد تواتر وإذا تواتر الخبر أفاد العلم لا حاجة إلى النظر «وإن كان تواتره لا يبيح قبوله ولا يجيز الاستماع إليه والخبر يحتمل الصدق والكذب، غير أنه من الممكن أن يكون نظام الملك قد فعل هذا رعاية لحاله، ومحافظة على جاهه وماله، ومحبة لتكثير مناله لأن هذه الأمور من لوازم حب الدنيا، والناس يظنون أن بعضها لازم لتعميرها، فأباح لنفسه أن يرتكب هذا العمل غيرة وغفلة، فأغمض عين العدل والإنصاف «وحبك الشيء يعمي ويصم». ويروى أن عميد الملك لما رأى عذر السلطان أيقن أنه سينقل إلى جوار الرحمن طلب أن يمهل ساعة فصلى ركعتين للّه في خشوع وضراعة وأخذ يقول لنفسه:

شعر:

يا جاعلاً خدمة السلطان عدته
ما أرشى كدك إلا الذل والندم

---

(١) يشير إلى آصف وزير سليمان عليه السلام.

النفس خائفة والقلب في وجل
والجسم في تعب والدين منثلم
هذا إذا اتسقت أيام دولته
والصيلم الاد إن زلت به القدم

واستسلم للقضاء ولأمر الله عزّ وعلا، وأسلم روحه الطاهرة (ص ٥٠) لما قدر له وقرأ على الشعر الآتي:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره
تنوعت الأسباب والموت واحد

وقال للقاتل أبلغ عني بعد وفاتي بأمر الرحمن وقهر السلطان رسالتين واحدة منهما لسلطان العالم والأخرى للوزير النافذ الأمر الطالب رضى الرحمن، فقل للسلطان إنها خدمة مباركة الخدمة التي قدمتموها لي فقد خصني عمك طغرلبك بالنعم الفانية والمكانة الدنيوية، ومنحتني أنت الدرجة العالية يعني الحياة الباقية أي أنك ضممت الحياة الباقية وكرامة الآخرة إلى نعمة الحياة الدنيوية، فتحقق لي منك الدين والدنيا، والصورة والمعنى، والباقي والفاني والأول والثاني، وبأمرك أصل إلى سعادة المغفرة ومرتبة الشهادة.

وقل للوزير العديم النظير الشعر التالي:

شعر فارسي ترجمته:

إن ما تفعله فينا اليوم ينفذه فينا يوماً ما، فيا صاحبي ارحمنا من حمل هم غدك، إن قتل الوزراء بدعة غير محمودة، وقاعدة مردودة قد سننتها في هذه الدنيا.

شطر من بيت شعر:

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

وأخشى أن تجد هذه السيئة فيك وفي أعقابك، بحكم القول المعروف «من حفر لأخيه جُباً وقع فيه منكباً» وأن يطبق هذا المبدأ الغير المستحب في أولادك.

بيت شعر فارسي ترجمته:

شربنا بكأس الدهر يوماً ومضينا، فإلى أي حد ستصل نهايتك أنت.

وقد ذهب السلطان في آخر عصره لقتال حاكم ما وراء النهر، ولما (ص٥١) عبر جيحون هجم أتباعه على قلعة فيما وراء نهر جيحون، وأحضروا حاكم القلعة أسيراً مكبلاً بالأغلال أمام السلطان، فأخذ السلطان يسأله بغية تعرف الأحوال واستكشاف الأمور، وكان هو يرتعد من هيبة السلطان بحكم «إن الخاين خائف» وكان ينطق بكلام مضطرب غير مترابط من شدة الخوف على حياته، ويقص في كل لحظة حكاية تختلف في تفاصيلها عما ذكره قبلها، فتضايق السلطان وأمر بقتله، فلما يئس يوسف من الحياة العذبة، وأيقن أن الروح بلغت الحلقوم، وأن النهاية وشيكة، أخرج سكيناً من ساق حذائه.

شطر فارسي ترجمته:

اليائس شجاع سليط اللسان

وهجم على السلطان بهدف قتله أملاً في أن يستغل ما يحدث

من ارتباك فينجو بحياته. وقال في نفسه «إذا نجح هذا العمل فإني أجد حياة جديدة. وعمراً آخر».

شعر:

وإن حـــيـــاة الـــمـــرء بـــعـــد عـــدوه
وإن كـــان يـــومـــاً واحـــداً لـــكـــثـــيـــر

وإذا حال درع دولة السلطان دون نفاذ هذا السيف البتار فإني أكون قد قمت بحركة المذبوح، وأبديت ما ينبغي عليَّ من أجل بقاء النفس «وإن لنفسك عليك حقاً».

شعر فارسي في الأصل ترجمته:

الهجوم عليه خطر ولكني سأفعله، «فإما يحمر به وجهي وأما تحمر به رقبتي».

فلما اقترب يوسف من عرش السلطان كان حظ السلطان نائماً ومهما حاول الملازمون للحضرة والواقفون حول السلطان أن يمنعوه وأن يردوه قتيلاً بالسكين التي يحملها، لم يسمح السلطان لهم بذلك وظن الخصم حقيراً والعدو صغيراً (ص**٥٢**).

شعر:

فـــلا تـــحـــقـــرن عـــدواً أتـــاك
وإن كـــان فـــي ســـاعـــديـــه قـــصـــر
فـــإن الـــســـيـــوف تـــجـــز الـــرقـــاب
وتـــعـــجـــز عـــمـــا أســـال الإبـــر

واعتماداً على أن سهمه كان يصيب الهدف المطلوب

دائماً وأنه لم يخطئ أبداً فقد رأى من الصواب أن يقتله بيده، ولم تسمح له شجاعته ورجولته أن يطلب العون من أحد ولكن سوء الحظ قضى على العقل والحصافة فزال العقل والرزانة، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً فأرسل سهماً من قوس غضبه ليصيب به عدو الملك والدين، ولكنه أخطأه مصادفة، فوجد يوسف فرصة، ليوصل السلطان الذي يشبه عزيز مصر، إلى مرتبة الشهادة ودرجة المغفرة، فأسقطت شجرة السلطنة أوراقها وثمارها وأصبح الخاص والعام من حركة يوسف مثل يعقوب المكروب في أسى وحزن، قرين الضجر والمحن.

شعر فارسي ترجمته:

من أجل السيد الرفيع الشأن اضطرب الجميع فصاروا في أسوأ حال.

فالصقر أصبح كالعصفور، والأسد صار كابن آوى وفي الوقت الذي كان هذا يرتكب فيه هذه المعصية كان هناك ألفان تقريباً من العبيد يقفون في أدب وخشوع في خدمة السلطان صفاً صفاً، فلما وقعت هذه المصيبة الهائلة هرب كل واحد منهم إلى زاوية، فلم يجدوا مجالاً للقصاص.

بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته:

(ص ٥٣) «حتى تعلم أنه في وقت الاضطراب، كل من حولك يصيرون كأنهم لا شيء» ويقولون إنه حينما كان القاتل يطعن السلطان بالسكين ألقى الشحنة سعد الدولة بنفسه على السلطان ليفديه بروحه العزيزة وقال هذا الشعر:

نـفـسـي فـداؤك لا لـقـدري بـل أرى
أن الـشـعـيـر وقـايـة الـكـافـور

وقد جرح جسمه أيضاً، ولكن نظراً لأن أجله لم يكن قد انتهى وعمره لم يكن قد انقضى فإنه قد شفي من هذا الجرح، وسلم من البلاء، فكان يردد كل لحظة البيت التالي.

بيت شعر بالفارسية ترجمته)

«إذا كان الحظ مساعداً، فإنه لا ينبغي قتل حسن الحظ بالساطور ولو كان عاري الظهر» وفي الجملة فإن يوسف البرزمي لما حقق مطلوبه ووصل إلى هدفه خطا بضع خطوات ليخرج من القصر غير أن عاطفة الانتقام تحركت مع جامع النيسابوري الذي كان رئيس خدم السلطان الشهيد وقدوة للعظماء، فضرب يوسف بمطرقة على رأسه وأرسله إلى دار البوار فخسر الدنيا والآخرة.

وقد وصف مسجلو علوم التواريخ السائحون في بحار الأخبار أن في عهد سلطنة السلطان الغازي ملكشاه السلجوقي قتل أحد غلمان الخليفة المقتدر ابن جامع الفراش هذا، واحتمى بحرم الخليفة، وكان الدم يغلي في قلب جامع حزناً على فلذة كبده، وكان لا يستطيع أن يحوم حول حرم الخليفة، فلما عجز عن المقاومة والقصاص أمسك بعنان السلطان في صورة من يريد الإحسان وقال:

بيت شعر فارسي ترجمته:

(ص ٥٤) «يا من جعلك اللّٰه المتعال الجود والعقل والحيوية

والشباب والجمال. إفعل مع قاتل ابني ما فعلته أنا مع قاتل أبيك برغم ضعفي ومسكنتي ولا تنسى حق خادمك، لأن القصاص في الشرع من المهمات، وعصمة النفوس من ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾(١) فأرسل السلطان ملكشاه في الحال الأمير الحاجب، وأصدر حكماً جازماً بأن يخرج الغلام المجرم من الحرم، ويسلم للخصم، فلما بلغ هذا الحكم الخليفة استدعى جامعاً، وقال:

بيت شعر فارسي ترجمته:

لا ينبغي قتل الأحياء من أجل القصاص لميت لا يرى والتمس منه أن يأخذ عشرة آلاف دينار بمقتضى قوله تعالى ﴿من عفا وأصلح فأجره على الله﴾(٢). وأن يعفو عن القاتل، وأن يحرص على تثبيت القاعدة المعهودة والطريقة المحمودة وهي رعاية حرمة الحرم، فلم يقبل جامع هذا غيرة وحمية، وقتل الغلام وفقاً لقول الله العلام ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾(٣).

وكانت ولادة السلطان ألب آرسلان في ليلة الجمعة من الثاني من شهر المحرم سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، وكانت سنة وفاته خمس وستين، وكانت مدة سلطنته اثني

---

(١) سورة البقرة، آية ١٧٩.

(٢) سورة الشورى، آية ٤٠.

(٣) سورة الإسراء، آية ٣٣.

عشر عاماً[٤]، وكان وزيره بزرجمهر الثاني نظام الملك الحسن بن محمد بن علي بن إسحق الطوسي، وكان توقيعه «بنصر الله»[٥] والسلام.

---

(٤) هذا خطأ والصحيح أن مدة سلطنته تسع سنوات وبضعة أشهر.

(٥) في رواية كان توقيعه المبارك ينصر الله والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

السلطان جلال الدين ملكشاه
ابن محمد قسيم أمير المؤمنين

كان السلطان ملكشاه الراحل الذي رفع راية الملة والدين بسيف التعمير وأبهة السلطنة ملكاً حسن السيرة، وكان ممتازاً بين سلاطين وحكام ذلك العصر بتوفيق من الله وقد كسب قصب السبق بين سلاطين الزمان بشجاعة وما تميز به من عدل وإحسان، وتمكن في حلة غدر الدهر أن يسل سيف القهر ضد أهل الطغيان وذئاب الظلم والعدوان وأن يقلم أظفار الجور والكفران والعصيان، وأن يطهر بسيفه الصقيل البتار مورد الدين الصافي ومشرب الملك العذب من ظلمة الكفر والطغيان فلا جرم أن فراش القضاء نصب خيمة إقبال ذلك السلطان النافذ الأمر في فضاء المشرق وربط طنابها في أقصى صحراء المغرب بمسامير الخلود، وجعلها مربوطة ومعقودة، وبأوتاد الدوام مشدودة ومسدودة، فقرأ خطيب التقدير الخطبة بأمر الحاكم القدير في أنحاء الربع المسكون باسم وألقاب هذا السلطان الميمون، وكان منصف كل مغبون، وقد تزين بزينة أحكامه وجه الأرض من جيحون إلى

سيحون. وكانت أحكامه تجري جريان القدر لأنه كان مثل فريدون[١] في القدر الذي ألبسه ملائكة العناية الإلهية حلة قدسية من خزانة ملابس العناية (ص٥٦) السرمدية، وكانت حلة التوفيق المزينة على كتفي ذلك السلطان الغازي بزخارف التعمير، ووضعوا تاج الرفعة على مفرق معالي ذلك الوالي، الذي أصبح الحكام والأعداء والموالي مطيعين لجنابه العالي، وإطاعة الأقاصي والأداني ونفذوا ما أصدره من الأوامر والنواهي مطيعين منقادين وبتنفيذها فرحين.

شعر:

ولا حـــر إلا وهـــو عـــبـــد بـــجـــوده

ولا عـــبـــد إلا وهـــو فـــي عـــدلـــه حـــر

ولما توفي والده ألب آرسلان، ولوى عنان عزمه من هذه الدنيا الفانية، ليقيم إلى جوار رحمة الرحمن الباقية، وخرج بسمعة طيبة من دار الغرور إلى دار السرور، جلس السلطان ملكشاه العادل على عرش والده المحمود الآثار، فتحقق قول الله تعالى ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأتِ بخير منها﴾[٢].

واستقر السلطان الحميد على عرش والده والموفق الشهيد ودق نوبات الفخار على طبل السموات السبع.

---

(١) فريدون: من ملوك إيران الأقدمين.

(٢) سورة البقرة، آية ١٠٦.

شعر:

أنـــا لـــنـــحـــرز بـــالأســـيـــاف مـــصـــلـــتـــة
مـــمـــالـــك الـــروم والأتـــراك والـــعـــرب
حـــتـــى تـــكـــون لـــنـــا الـــدنـــيـــا بـــأجـــمـــعـــهـــا
مـــحـــمـــيـــة بـــيـــن مـــوروث ومـــكـــتـــســـب

«والولد الحر يقتدي بآبائه الغر»وخلع حلة الوزارة، وخلعة النيابة على كتف اليد الذكي والوزير القدير نظام الملك الطوسي رزقه الله جنة النعيم، وجعله مكلفاً بنشر العدل والإنصاف في سائر أرجاء الدولة، وصاحب الأمر والنهي في أنحاء المملكة، ولما تولى ذلك الوزير الذي يعد بلا نظير زمام الأمور أرسى قواعد التعمير، وأسس قصراً من حسن التدبير.

شطر من شعر فارسي ترجمته:

الوزارة لصاحب الشريعة وزر

ولما أصبح حصن عدله مستحسناً من الجميع وحامياً للجميع، وصار زمام الأمر (ص٥٧) والنهي بيد كفايته، ووضع رداء العظمة على الظهر وعمامة الرفعة على الرأس، أخرج يد القدرة من رداء الإنصاف حال الحاكم والمحكوم، والخادم والمخدوم والمحظوظ والمحروم، ولما سلمه المبشر بالآمال من حضرة ذي الجلال منشور ﴿إنا جعلناك خليفة في

الأرض﴾[1] أسمعه الله القدير، الذي لا شبيه له ولا نظير قوله تعالى ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾[2]، فتح باب التربية والمعاونة في وجه الأكابر العظام، والأماجد الأعلام، وأئمة الأنام المنبئين للحلال والحرام، والمبينين لأحكام الخاص والعام، ومد بساط العاطفة والمروءة والمرحمة والشهامة من أجل ترفيه طوائف الأنام.

بيت شعر فارسي ترجمته:

حقق الفلك رغبة كل من وصل إلى أعتابه يوماً من الأيام، ولهذا فإنه منذ أشرقت شمس الجلال وكوكب الإقبال لذلك السيد الوزير العديم النظير المفضال، على باب وجدار أرباب الآمال إلى أن أسرع ذلك البدر المنير والسيد الخبير والوزير صاحب التدبير القليل النظير من ديوان الكمال إلى إيوان الجلال، استقامت أمور بقاع العراق بل أصقاع الآفاق، وانتظم شأنها المضطرب، وصار رسم الظلم ممحوا مدفوعاً واسم الجور مزالاً مرفوعاً، فاستفاد جمهور الخلائق من حسن أخلاقه الحميدة، ووصلت رائحة الخلق الرضي إلى مشام المطيع والعصي، ولما أمسك قلم التصرف في الدولة بيد تدبيره ولبس كسوة تلك المناصب العلية، وخلعة تلك

---

(١) سورة ص، آية ٢٦.

(٢) سورة المائدة، آية ٤٢.

المراتب السنية التي كانت قد نسجت في مصنع الأزل بقدر قده وعظمته جعل ـ بكفايته وخبرته (ص٥٨) بنيان الجور والعدوان قاعاً مصفصفاً ﴿لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾[١] ورفع قصر العدل المشيد إلى أعلى عليين، وأسس في كل موضع من البلاد أملاً في النجاة يوم التناد ـ مدارس ذات مستوى رفيع للشريف والوضيع، وخصص لطلاب العلم وظائف مرتبة، وإنعامات مقررة، وكان هو أول شخص أمر بتأسيس المدارس ووضع نظامها إلى يومنا هذا، وصار هذا الأمر سنة من المكرمات وأفضل الخبرات التي تؤسس في جهات العالم المختلفة، وهي من المنافع العامة للخاصة والعامة، يستفيد الأئمة العظام، وطلبة علوم الإسلام على الدوام، وتصل مثو باب الصدقة الجارية، والعطية الدائمة إلى روح سيد الدنيا، مصداقاً لقوله تعالى ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾[٢] وما زال الصدى يسمع من باب نظامية بغداد وسقفها.

شطر من شعر: لا زال حائطها للعلم مستندا

وما زال يسمع من أعلى مدرسة أصفهان، صيت عن الحدثان

---

(١) سورة طه، آية ١٠٧.

(٢) سورة الأنعام، آية ١٦٠.

شعر:

ليس بميت عند أهل النهى

من كان هذا بعض آثاره

وهو يصل إلى مسامع الصغير والكبير والحقير والخطير.

ومثل هذا المكان موضع لتقرير مكارم شيمه ومحاسن كرمه فهو سيد ملائكي القلب، رفيع القدر، وهو وزير واسع الكرم، وملك منجم الجود والنعم لا يمكن بيان أوصافه الحميدة، وأخلاقه المستحبة الفريدة، ومن غير المستطاع مع الوزير المغفور المبرور تعداد عاداته المحبوبة وخصائصه المرغوبة لا يمكن بيان خصال ذلك السيد الحسن الفعال.

شطر من شعر فارسي ترجمته:

هو أكثر من الخلق وأقل من الخالق.

ولا يستطيع زمام البنان أن يجد مجالاً للجولان، ولله در القائل حيث قال:

بيت شعر فارسي ترجمته:

كل من كان من طوس من وزير أو مفتٍ أو شاعر، كان مثل نظام الملك والغزالي والفردوسي (ص ٥٩) ولما استقرت الوزارة للسيد ذي الشهامه والصاحب ذي الكفاءة توجه سلطان العالم من إقليم خراسان صوب العراق وأذربيجان، وخرج عليه عمه قاورد(*) السلجوقي من كرمان بجيش لا

(*) قاورد، وهو أكبر أبناء جغري بك، وكان والياً على الطبسين ونواحي كرمان وخرج على ملكشاه، وحاربه السلطان بالقرب من باب الكرج وانهزم سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م.

حصر له ولا عد، لا يستطيع أن يحصى خيال الإنسان عدد أفراده، ولا طاقة للوهم بتصوير كثافته، وتوجه إلى العراق.

بيت شعر فارسي ترجمته:

كلهم قد لبسوا الدروع وشهروا السيوف وأمسكوا بالسهام، كلهم أبطال يحطمون جيش العدو ويقيدون الشيطان ويصطادون الأسد.

وتوجه قاورد إلى العراق وتقابل الجيشان عند باب الكرخ[*] وظل الجيشان ثلاثة أيام متتالية في ميدان النزال ومعمعة القتال، وأمسك الخصمان بقوس المخالفة، وعرضا الأرواح الغالية لسهم البلاء، وكانا لا يستريحان أبداً لا عندما يهجم الليل بجنوده السوداء، ولا حينما تصل عساكر النهار البيضاء أي أن القتال استمر ﴿ثلاث ليال سوياً﴾[٣] فكان الطرفان إذا تنفس صبح يفكران في أمر الغد، وتصادف أن مبارزاً من جيش قاورد كان يقاتل فريداً وحيداً مع واحد من جيش ملكشاه ويبارزه فأردى الجندي الذي من جيش ملكشاه المبارز الذي من جيش كرمان قتيلاً بحملة واحدة لأنه كان مقاتلاً شجاعاً ورجلاً مثل الأسد يستعمل سيفاً حاداً، فلما رأى قاورد ذلك قال «ليس هناك مجال للبقاء» ولاذ

(*) الصحيح: الكرج موضع بالقرب من همذان، راجع راحة الصدور، ص ١٩٨.

(٣) سورة مريم، آية ١٠.

بالفرار من هذه الديار، تاركاً جميع المهمات وكل ما يعترضه من المعترضات، وولى وجهه صوب الهزيمة، ولقد قالوا حقاً.

شطر من شعر فارسي ترجمته:

لظهر الجيش العظيم فارس حارس

ونظراً لأن الحظ لم يكن حليفاً له، ولم تكن العناية حارسة له فإنه لم يستطع الخروج من الميدان، فوقع في يد السلطان ملكشاه، ثم توجه السلطان من هناك إلى همذان، وحينما هزم الجيش (ص٦٠) المنصور العدو المقهور، السلطان من شر منافس مدع، طلب مزيداً من المخصصات والرواتب، وبالغ في هذا الملتمس إلى درجة الإفراط، وبلغ الكلام حداً جعل الجند يقولون إذا تباطأ السلطان في زيادة المخصصات ومضاعفة الإنعامات فليهب الله قاورد طول العمر، فأجاب نظام الملك قائلاً «سأعرض مطالبهم على السلطان حينما أقابله في أثناء الليل وأوصل رسالتكم وأرى بماذا سيأمر» وفي الليلة نفسها قدموا لقاورد شراباً مسموماً وكأساً فيها الحسرة، فطويت صحيفة ذل الملك البريء نتيجة لكلام الجند «ورب دم سفكه فم» وفي اليوم التالي جاء أمراء الجند إلى الديوان، ليعرفوا ما هو جواب السلطان، فقال لهم الوزير سيد العالم: إن قاورد شرب سماً مهلكاً، وانتحر في السجن، ورعاية لحقوق القرابة واللحمة، أصبح السلطان قرين الفجرة، فلم تعد هناك فرصة لعرض أية قصة، وذكر أية

غصة، فلما سمع أمراء الجيش هذا الكلام، ندموا على ما قالوا وخافوا من عتاب السلطان، وصاروا حسرين نادمين وقالوا ﴿أيا حسرنا على ما فرطنا﴾[1] وخرجوا من الإيوان الرفيع الشأن. وقد رووا أنه من فرط عدل السلطان وإنصافه جعل مخصصات الجند ورواتبهم مقسمة على جميع بلدان العالم، وأمر لهم بمخصصات في كل مكان ينزلون فيه، حتى لا يضايقوا الرعايا، وقد كان كمال عدل هذا السلطان ليس في حاجة إلى شواهد أو دلائل، فلا ضرورة لذكر الحجة والبراهين، فآثار عدله وإنصافه ظاهرة على صفحات الليل والنهار إلى قيام الساعة (ص٦١) وساعة القيام، وفوائد هذا الإنصاف باهرة على صفحات أحوال الصغار والكبار في كل الديار.

وإحدى هذه القواعد التي أصبحت فوائدها عامة، وأصابت مزاياها الأصاغر والأعالي على التواتر والتوالي أنه لما علم بكمال الفراسة ووفور الشهامة أن بعض النفوس الشريرة تميل إلى التزويرات وطائفة من مرتكبي الكبيرة يرغبون في التلبيسات، جمع جماعة من المجتهدين المصيبين، وأهل الفتوى الأريبين الذين كانوا أهل الحل والعقد وبناء على الشفقة التي كانت له نحو عامة الرعايا

---

(١) سورة الأنعام، آية ٣١.

المبينة على العناية التي كانت له نحو كافة البرايا واستفسر عن بعض المسائل الفقهية، وعدد من الوقائع الشرعية التي كانت كثيرة الوقوع وسبب ترويج حيل كل صاحب تسويل وموجب إنجاح مطلوب كل محيل، وأثبت صورة كيفية الحيلة في شكلها الجذاب ولما كان حفظ أموال المسلمين من الواجبات، وإهمال هذا الأمر عند القدرة من المنهيات، فإن التأخير في منع هذا التدليس ودفع هذا التلبيس من المحرمات بحكم أن «لا ضرور ولا ضرار في الإسلام»[1] فإن العلماء الأعلام، والأئمة النافذي الأحكام، الذين كان اجتماعهم لإصلاح حال أهل العالم ولتنظيم أمور بني آدم، وأصدروا رأياً بالإجماع في هذه المسائل، وحرروا بضع نسخ من هذا الرأي، وسيثبت في آخر هذا الباب فصل يعد قانون قضاة الإسلام، ودستور ولاة الأنام وسيكتب موجز من هذه المسائل الفقهية يحوي زبدة تلك الكلمات وخلاصة تلك الحكايات مع أن هذا الكتاب ليس موضوع تحرير وإثبات فصل الخطاب في ذلك الأمر، من أجل تحقيق ذلك المقال، وتصديق تلك الحال، وقد رووا هذه المسائل، وكتبوها بالقلم

---

(١) حديث شريف: ابن ماجه (أحكام) ١٧، حـ٥، ص ٣٢٧، الموطأ (أقضية)، ص ٣١ الحر العاملي ـ وسائل الشيعة، حـ١٧، ص ٣٤١، عبد الهادي الحكيم، عقد الفضولي في الفقه الإسلامي، ص ٤٣٤.

الكاتب لمسائل الشريعة (ص ٦٢) وهذه القواعد المستحسنة التي تعجز العبارة عن التعبير عنها بغير الإستحسان واشتهرت باسم «المسائل الملكشاهية» ﴿إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾[(١)] والقصة كما نقلها متتبعو أحداث التاريخ أنهم كانوا قد أقروا في قديم الدهر سنة سيئة وبدعة مردودة، وهي إنه حينما كان الحجاج المتيمون بحب اللَّه الصادقو اليقين، يحرمون لزيارة كعبة رب العالمين، ولزيارة القبر المقدس لسيد المرسلين وقائد الغر المحجلين.

شعر:

عـلـيـك سـلام الـلَّـه مـا لاح بـارق
وناح الحمام الورق في الورق الخضر

وكانوا يضعون أرواحهم على أكفهم وهم يسيرون في هذه البادية التي لا حدود لها، ويلبون نداء اللَّه ﴿ولِلَّه على الناس حج البيت﴾[(٢)] ويرددون «لبيك اللَّهم لبيك» ويتجردون من كل شيء ابتغاء وجه الله الذي يهب النصر ويمنح المغفرة ويجهدون بالشكر للَّه لفوزهم بهذا المطلوب الديني وتوفيقهم لامتثال الأمر لهذا الحكم الشرعي الذي هو واحد من دعائم الدين وركن من أركان البنيان الخمس الأركان فقد «بنى

---

(١) سورة الكهف، آية ٣٠ وردت في الترجمة: والله لا يضيع أجرى أحسن عملاً.

(٢) سورة آل عمران، آية ٩٧.

الإسلام على خمس» ويرددون في عرفات مثل المرادات بلسان الشكر قول الشاعر:

شعر:

أبـــطـــحـــاء مـــكـــة هـــذا الـــذي

أراه عـــيـــانـــاً وهـــذا أنـــا

ويوصلونه إلى مسامع الواحد منهم الآخر، وكان سكان الصحراء حول مكة والساكنون في البادية ﴿والأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾[1] وهم الذين كان سواد الكفر والشرك يلوح من جباههم وحب غصب أموال الإنسان متمكن في نفوسهم يطلبون مالاً معيّناً وخراجاً مقنناً من طائفة الحجاج الذين ودعوا الأتراب والأخلاف من أجل الطواف، وتحملوا ألم فراق الأصحاب (ص٦٣) والأحباب والإخوان والخلان، وقد رفع السلطان ملكشاه هذا الأمر عنهم وقضى على هذه العادة الذميمة، وحقق قول الله ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾[2] وبواسطة هذا السعي الجميل الذي قدمه إدخاراً للأجر الجزيل حفظت أموال كل صحيح وعليل زاداً لكل عزيز وذليل، لأن حفظ الكثير والقليل واجب «إن حرمة مال المسلم كحرمة دمه» فأمن المسافرون إلى هذه الحضرة السامية مثل أمن الطيور في هذه الناحية من جور كل الظالمين الذين

---

(١) سورة التوبة، آية ٩٧.

(٢) سورة الفتح، آية ٢٧.

كانوا دائماً يمسكون بزمام ظلام الظلم في قبضة الجور والعسف وصاروا ﴿أأمن من حمام مكة﴾[1] إلى أن يرث الله الأرض، فأمن حج المسلمين. وسيصل ثواب هذا الإنعام العام إلى روح سلطان الإسلام، مصداقاً للحديث «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها» ﴿والله لا يضيع أجر المحسنين﴾[2].

بيت شعر فارسي ترجمته:

لقد قالوا إن الاسم الحسن يمنح العظماء عمراً ثانياً، فاجعل هذا ذخيرة لك ﴿فالباقيات الصالحات﴾[3] وفي عام إحدى وسبعين وأربعمائة ذهب السلطان إلى سمرقند وفي أثناء أيام قليلة معدودة أخضع حاكم سمرقند، صَيّره مطيعاً لأمره، وأحضره إلى أصفهان، وحينما عبر الجند جيحون كتب السيد نظام الملك أجرة الملاحين على عمال أعمال أنطاكية، فرفع الملاحون أصواتهم بالصياح وقالوا: نحن دائماً أسرى الفقر والفاقة وليس لنا رزق إلى ما نكسبه بجهدنا ولا نعرف حرفة غير هذه، فكيف نذهب إلى أنطاكية ونقطع كل هذه المسافة، وبأية حماية (ص٦٤) وزاد تقوى على قطع طريق سفر كهذا مملوء بالمخاطر» فقال السلطان للوزير الشهيد سيد العالم،

---

(١) الميداني: ج١، ص ٨٥ر.

(٢) سورة التوبة، آية ١٢٠.

(٣) سورة الكهف، آية ٤٦.

ليس عندنا في هذه النواحي أموال خراج كثيرة حتى نلزمهم بالذهاب إلى أنطاكية. فأجاب الوزير إننا أحلنا خراج هذه الناحية إلى أنطاكية حتى يتضح لأهل العالم، ويصير معلوماً لأهل الدنيا بصورة متواترة أن جميع الزوايا والأركان في الربع المسكون تحت حكم السلطان وأن اتساع ملكه من المشرق إلى المغرب، وحتى يكتب مسجلو أحوال السلف ومحررو ديوان التواريخ وناقلو الأخبار وحافظوا الآثار بقلم الاعتبار على صفحة الدهور هذا الأمر وإلا فإن خراج الملاحين يمكن أن يأخذه أتباع السلطان في نفس المكان، ويرسلوه ذهباً».

شعر:

حاط المشارق والمغارب كلها

ببراعة كالأرقم المنساب

وكان السلطان ملكشاه قد ذهب مرتين من أنطاكية إلى أوزكند(*)، ثم توجه في المرة الثانية من أنطاكية إلى اللاذقية إلى ساحل بحر الغرب، وأمر أن تشرب الخيول منه وترجل هو، وطلب سجادة وصلّى ركعتين، تطبيقاً لما جاء في الشعر:

(*) أوزكند: بلد بما وراء النهر من نواحي فرغانه، وكند باللغة التركية القرية.

أشــكــر فــإن الــلَّــه جــل جــلالــه
وهــب الــمــزيــد لــشــاكــري نــعــمــائــه

قد صلّى شاكراً نعمة أن مملكته امتدت من أقصى المشرق إلى منتهى بحر المغرب، وقال: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض﴾[1].

ورووا أن السلطان ملكشاه كان له ميل شديد للصيد، وكان كلما ضرب صيداً منح فقيراً ديناراً من الذهب الأحمر الخالص من ماله الخاص فاصطاد قلبه بهذا الإنعام وكان أيضاً مولعاً بتعمير كل خراب وترميم كل بناء، وكان مقر عرشه في أثناء حياته في أصفهان وأمر ببناء (ص ٦٥) قبر له في حالة مماته فبني له قبر رائع جميل البناء، كما عمر كثيراً من المناطق الآهلة بالسكان، وأنشأ فيها حدائق غناء كالجنان، وعمر كثيراً من الخرائب فجعلها جميلة الألوان كان منها حديقة كاران وحديقة بيت المال وحديقة أحمس سياء وحديقة دشت كور، لأن مهندس ضميره هو الذي خطط هذه الأماكن، ومعمار عدله هو الذي جعل وادياً غير ذي زرع مثل جنان عدن.

أما سبب الاختلال الذي تطرق إلى أحوال ذلك السلطان الشبيه برستم أن زوجته تركان خاتون بنت طمغاج خان كانت

---

(١) سورة الزمر، آية ٧٤.

تريد أن يصير فلذة كبدها وجوهر صدفها محمود ولياً للعهد من بين أبناء السلطان، وكان الوزير نظام الملك يحاول أن يقنع السلطان بتعيين ابنه بركيارق ولياً لعهده مقامه لأنه أكبر أبنائه وأكثرهم سداداً، وكانت رائحة السعادة والنجابة تفوح من حركاته، ورونق الثقافة والسعادة يلوح من وجناته، وبسبب هذا الأمر أخذت تركان خاتون تقبح دائماً صورة نظام الملك أمام السلطان، وتقول له: «إن لنظام الملك إثني عشراً ولداً، وقد كرّمهم جميعاً مثل نقباء موسى وأئمة آل عبا[1] وهو يظن أن الممالك ملك خاص له، وقد سد مسالك كل المعارض، وليس لأحد مجال لإظهار حكاياته، وفضح أمره، وكانت تكرر هذه الكلمات المرة بعد المرة، ووفقاً للقول المعروف «من يسمع يخل» بلغ الأمر حداً جعل السلطان يبعث برسالة إلى الوزير قال فيها: «هل لك تنازع معنا في الملك؟ فلماذا التكاسل في إقامة البينة وإثبات الحجة؟ وإذا كان هذا الأمر لا نزاع فيه، فكيف تقطع الولايات لأبنائك، وبدون حكمنا (ص ٦٦) وأمرنا، تتصرف في كل أمر، فإذا تركت هذا الأسلوب وامتنعت عن هذه الطريق فهو المراد وإلا آمر أن يرفعوا الدواة والعمامة من

---

(١) آل عبا: أعتقد أنه يقصد الاثني عشر نقيباً الذين اختارهم العباسيون لتنظيم دعوتهم، ومن الجائز أن حرف السين قد سقط عند الطبع.

أمامك وفوق رأسك فأجاب الوزير: «لقد شاء حكم تقدير الإله أن تكون الدواة والعمامة مرتبطين بالعرش والتاج» وربطت مقدرات القضاء بين هذه الأشياء الأربعة برغم اختلاف أجناسها مثل الطبائع الأربع، استقامة أحداها بسلامة الأخرى منوطة، وقوام الواحدة منها بنظام الثانية مضبوط. وزاد ناقلو الرسالة وسامعو هذا الكلام شيئاً من تلقاء أنفسهم على هذا الكلام، وقالوا إنه يقول: «لو رفعت الدواة والعمامة رفعوا العرش والتاج»، فغضب السلطان من هذه الحكاية، وأسلم أمر الوزير لتاج الملك[١] القمي الذي كان وكيلاً لديوان تركان خاتون، فوسع شقة الخلاف، وهب لدفع الوزير العديم النظير.

شعر:

لا غـرو إن أضـمـرت أعـداؤه حـسـداً

فـهـل سـمـعـتـم بـمـجـد غـيـر مـحـسـود؟

واتجه السلطان من أصفهان إلى بغداد، فلما وصل إلى نهاوند طعن الملاحدة المخاذيل والكفرة المجاهيل والوزير نظام الملك الطوسي الذي كان كرمه الطبيعي أكثر من مكرمات آل برمك، وكان هذا بتعليم من تاج الملك القمي وإرشاد منه.

---

(١) يقصد تاجر الملك الشيرازي وهو يخلط بينه وبين مجد الملك القمي.

بيت شعر فارسي ترجمته:

من رأى كومة من الشوك تنازع الورد؟ ومن رأى قشة حقيرة تطاول الشمس؟ وفي هذه الواقعة انتزع لصوص الموت دواة الوزارة من أمام يد وكرسي ذلك الرجل صاحب الكفاءة وألقوها في تراب المذلة، وانتزع جنود المحنة، المغيرون القلم الذي كان ينظم به أمور العالم الحميدة من بين أصابعه (ص٦٧) وجعلوه مضطرباً، وكان قلمه تطوف كلماته في جميع أجزاء إيران مثل ذي القرنين، فكان في قرنه يخرج من ظلمات الدواة كلاماً عذباً مثل ماء الحياة إلى كل الجهات، فاضطرب هذا النظام، وفي ليلة الجمعة في الثاني والعشرين[١] سنة خمس وثمانين وأربعمائة نقل الوزير الكفء من كرسي الوزارة ومرتع الجلالة، إلى مرقد السعادة ومشهد الشهادة، فحزن عليه في مأتمه أرباب العمائم وأسفوا على فقده، وطوى أصحاب المكارم بساط السرور واتشحت السماء بالزرقة الداكنة بسبب وقوع هذه الطامة الكبرى، ونزول هذه المصيبة العظمى وانحنى سقفها من شدة الأسف والحسرة والبكاء والعويل ودوى في آذان أهل العالم.

قول الشاعر:

مضى صاحب الدنيا فلم يبق بعده
كريم يروي الأرض فيض غمامه

---

(١) لم يذكر الشهر والمعروف أن قتل نظام الملك كان في رمضان.

فـقـدنــاه لــمــا تــم واعــتــمّ بــالــعــلا
كـذلـك كـسـوف الـبـدر عـنـد تـمـامـه[١]

وجاء صدى من الملأ الأعلى فسمعه الأدنى والأقصى يردد قول الشاعر:

مــات مــن كــان يــفــزع الــدهــر مــنــه
فــهـــو الآن فـــي الـــتـــراب تـــراب

بيت شعر فارسي ترجمته:

صار الفلك عاري الرأس مولولاً باكياً، وانحنت قامة الفلك من كثرة النحيب.

وكان الخاصة والعامة يرددون قول الشاعر:

ومــا فــجــعــت بــك الــدنــيــا ولــكــن
تــركــت بــفــقــدك الــدنــيــا يــتــيــمــة

وفي زمان نزول هذه الحادثة كان عمر السيد الحكيم والوزير العظيم الممدوح من الجميع ثلاثاً وتسعين سنة[٢] وقد نظم الذي تبوأ صدر المجد والعلا، وكان جميل الخصال وعروس الجمال (ص٦٨) هذه الأبيات الغراء بعد طعنه وهو في حالة العناء.

أبيات فارسية ترجمتها:

أزلت الغبار عن وجه الأيام مدة من الزمان بإقبالك أيها

---

(١) العتبي: شرح الميني، ج٢١، ص ٢٠٤.

(٢) الأرجح أنه كان في الخامسة والسبعين حينما قتل.

الملك العظيم وقدمت وثيقة الذكر الحسن وعلامة السعادة بتوقيعك إلى رب العرش وبلغ عمري ثلاثاً وتسعين سنة وهذا قضاء، ومت في أثناء السفر بضربة سكين وتركت لإبني رصيداً مدة خدمتي الطويلة، وتركته أمانة بين يدي الله ويديك. وكان موت حارس دولة الكفاءة وبطل الملك والسلطنة فالاً سيئاً، فلما وصل السلطان إلى بغداد وبعد مرور ثمانية عشر يوماً على وفاة سيد العالم منقذ كل محتاج ودواء كل مريض، هجم فارس ميدان الأجل فجأة بضربة تقطع الأمل على السلطان الرفيع الشأن ذي الصولة والعظمة شمس المملكة، الذي يشبه المشتري في الرفعة فمات، وبوفاة ذلك السلطان العادل، جلست عرائس القبة المذورة على بساط الذلة، وصار الشفق في أعلى السماء مصطبغاً باللون الأحمر يجعل المنكوبين بموته يبكون دماء ومزق الصبح الصادق رواءه، وخلع المشتري رداء الرفعة وبلغ أثر هذه الواقعة الثريا، وسقطت الشعرى بسبب تلك الكارثة إلى الثرى، ونكست الأرض رأسها على تراب الفم فصارت تقف على مفرقها، وتفرقت الحاشية والخدم كبنات نعش.

شعر فارسي ترجمته:

بالأمس كانت أصوات طربنا ورائحة الورد وغناء الطير تملأ أرجاء الحديقة واليوم تبرز الأشواك سهامها وكأنما لم تكن في هذه الحديقة وردة رحمة الله عليه رحمة واسعة، بيتان من قصيدة للأمير معزى (٦٩) نظمها رثاءً للسلطان الراحل نذكرهما لبيان صدق ما قلناه.

بيتان فارسيان ترجمتها:

ذهب إلى الفردوس الأعلى في شهر الوزير الشيخ وذهب الملك الشاب في أثره في الشهر التالي فأظهر قهر الرحمن فجأة عجز السلطان، فانظر قهر الرحمن وتأمل عجز السلطان. ومعلوم أن ابنة السلطان ملكشاه ستاره خاتون كانت متزوجة من الملك الشهير والسلطان الحميد شمس الملك عضد الدين كرشاسف بن علي بن فرامرز المشهور بعلا الدولة، وكان قد رحل، فاحضروا هذه الابنة التي كانت زينة للسلطان بإذن من السلطان الأعظم سنجر حزينة ممتحنة إلى مدينة يزد[1] حرسها الله عن الآفات والمحن والعاهات والفتن، وكانت قرابة أتابكة هذه المنطقة مع سلاطين السلاجقة العظماء عن هذه الجهة رحم الله الماضيين منهم وأدام عمر الباقين فكانت ستاره خاتون جدة ملوك يزد رزقهم الله جنات النعيم، ووقاهم من عذاب يوم عظيم.

وكانت مدة عمر السلطان ملكشاه ثمانية وثلاثين عاماً، وكان ابتداء سلطنته سنة خمس وستين وأربعمائة وكان انتهاؤها سنة خمس وثمانين وأربعمائة وكان وزيره نظام الملك وتوقيعه «اعتصمت بالله»، والسلام على من اتبع الهدى.

* * *

---

(١) يزد: مدينة متوسطة بين نيسابور وشيراز وأصفهان من بلاد فارس.

المسائل الملكشاهية في القواعد الشرعية[1]

الأولى: أنه من عقد عقداً على ملك ظاهراً باسم غيره من بيع أو غيره من وجود التملكات وسلمه إلى من عقد له وبقي في يده مدة (ص ٧٠) على حكم تمليكه بلا منازعة منازع ومخاصمة مخاصم، ثم أبرز هو أو ورثته عقداً يخالف ما عقده أولاً لم يسمع دعواه، ولم يقم الشهود فيه شهادة، ولم يتعرض لصاحب اليد في انتزاعه عن يده بل يقرر في تصرفه.

الثانية: أن كل امرأة عقد عليها زوجها عقد براءة من صداقها على وجه لا يقف عليه أهلها وعشيرتها الأقربون، ولم يظهر في مجلس الحكم حينئذ، ثم ادعى الزوج أو ورثته موجبة لم يسمع ولم يقبل البينة أصلاً إلا إذا علم ما يقتضي صدور ذلك الإقرار منها.

الثالثة: أن من عقد على نفسه عقد بيع عقار ثم لم ترجع قيمة ذلك إلى نقصان، ولم يكن المشتري مشهداً على نفسه بالشري وادعى أنه لم يشتر، وأن له حق الرجوع إلى الثمن لم يلتفت إلى دعواه ولم يسمع بينته.

---

(١) هذا الجزء إلى بداية الحديث عن بركيارق مكتوب بالعربية في الأصل.

الرابعة: أن من وجب عليه حق، وتوجهت نحوه الطلبة، وادعى العسرة وكان يعرف به مال وذكر بعض من يتصل به أنه انتقل منه إليه ما كان يعرف به، ولم يقف على سبب ملك وأقام بينه لم يقضِ بها وألزم إيصال الحق، أو حبس على ما هو حكم الشريعة.

الخامسة: أن كل امرأة عقدت على نفسها لزوجها، أو عقد بعض أوليائها بحق ليزيد المصدق في مهرها، ثم أبرزت ما يخالف ذلك لتذهب حق الزوج، وتستوفي منه الصداق لم يلتفت إليه، وأجري الأمر في ذلك على ما يرى أصوب من أحد الأمرين، إما أن يرد مهرها إلى مهر المثل أو يقر العقد الذي في يدي الزوج على حكمه، ويقضي للمرأة بما سمي لها من المهر في أصل النكاح.

السادسة: أن يبالغ في الاحتياط عند تحمل الشهادة على النساء (ص٧١) ولا يقتصر على واحد من المعرفين[١]، وإن كان من أقاربها بل يستوثق في موضع التهمة والشبهة إلى تسكين النفس، وارتفاع اللبس، والحمد لله خالق الجن والإنس.

---

(١) يعني الشاهدين.

السلطان ركن الدين أبو المظفر بركيارق ابن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين

كان السلطان بركيارق سلطاناً لم تتفتح في حديقة السلطنة وردة في مثل نضارته ولطافته ولم تنبت على نهر المملكة شجرة سرو في مثل قامته ونضارته وكان له شكل حَسن وحُسْن مستحسن، وأعظم نعمة منحها الله جلت نعمته إياه، وأفضل مكرمة كرمه الله عمت قدرته بها، أن والده ملكشاه اختاره ولياً لعهد برغم وجود تسعة أبناء كل منهم يردد ادعاء ﴿أنا خير منه﴾[١] وينادي قائلاً: ﴿أنا أكثر مالاً وأعز نفراً﴾[٢] وقد خلع عليه والده خلعة ولاية العهد مستصوباً الرأي الصائب والفكر الثاقب العديم النظير والمشير الحسن التدبير السيد نظام الملك الذي كان بطل حصن السلطنة ونافذ الأمر في أقطار المملكة وشرفه بجعله ولياً لعهده (ص٧٢) وكان لسان حاله يقول شعراً.

بيت شعر فارسي ترجمته:

كثيراً ما نظر قلبي يميناً ويساراً إلى الحسان ولكنه اختارك أنت.

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٢.

(٢) سورة الكهف، آية ٣٤.

بيت شعر عربي:

وكـــم أبـــصـــرت مـــن حـــســـن ولـــكـــن

عـــلـــيـــك مـــن الـــورى وقـــع اخـــتـــيـــاري

وكان في هذا الوقت في مهد الطفولة، ولم يكن قمر عمره قد تجاوز محاق صغر السن وارتقى إلى أوج كمال الحال، وكان في ولاية أصفهان حينما أخذ والده محظوظ الزمان وملك الأرض كأس الحمام من يد ساقي الشهور والسنين الذي يسقي المحظوظين وغير المحظوظين فانتقلت السلطنة من برج سعادة ذلك السلطان واضع قوانين العدالة إلى صحراء الآخرة حيث الوعد بالمغفرة، وكانت تركان خاتون(*) زوجة السلطان ملكشاه في صحبة السلطان ببغداد فلما قضى الدهر الظالم على ملكشاه، والدهر لم يدع طاق أي كسرى دون تصديع، ولم يستسغ أن يترك قصر أي قيصر بدون تخريب، فجعل ملكشاه يلبي نداء، شطر من بيت شعر «ما هذه الدنيا بدار قرار» استعانت تركان خاتون بأمير المؤمنين المقتدى حتى يمنح السلطنة لابنها محمود ولكن الخليفة لم

(*) كان ملكشاه قد تزوج عدة زوجات من أشهرها تركان خاتون والدة محمود الذي صار سلطاناً لأقاليم العراق، وقد لعبت السيدة تركان خاتون دوراً كبيراً من أجل تنصيب ولدها. كما كانت السيدة زبيدة زوجة السلطان الثانية أماً لبركيارق كذلك السيدة خاتون السفرية وكانت أماً للسلطان محمد وسنجر.

يسمح بهذا وقال: «السلطنة والرئاسة والمحافظة على أصول السياسة وتعمير العالم ليس أمراً هيناً كلعب الأطفال، ومن الصعوبة أن يتمكن طفل عديم التجربة أن يقر قواعد السلطنة، ويدفع حساد وأعداء المملكة، ولم يشبع محمود من لبن الرضاعة حتى الآن، فلا يستطيع أن يكون درعاً يصد عن الدولة سيف كل جبار»، والمثل يقول: «الصبي الصبي ولو كان ابن النبي».

فكانت تركان خاتون لا تترك تقديم هذا الالتماس، وكانت تقول:

بيت شعر فارسي ترجمته:

ابن البط مهما كان صغيراً، لا يستطيع ماء البحر أن يجرفه.

(ص ٧٣) وكان للخليفة ابن من أخت ملكشاه[١] وكانت تركان خاتون بحكم القرابة تدلله وتربيه بين أحضان الدلال والنعمة، وكانت تفكر قبل أن يرحل السلطان، ويصبح كما جاء في:

شعر من بيت فارسي ترجمته:

صار مختفياً في الكفن كالوردة في البرعمة.

أن تجلسه على مسند الخلافة في أصفهان، وتدق طبول

---

(١) المعروف والمذكور في كتب التاريخ الأخرى أن الخليفة العباسي تزوج بنت ملكشاه من تركان خاتون لا أخت السلطان.

الإمامة على باب قصره ليأتيه الناس ﴿من كل فج عميق﴾[١] وقد أطلع الخليفة على هذا الأمر وأراد أن يحضر ابنه إليه، ولكن بسبب المصلحة التي كان الوقت يقتضي رعايتها لم يقدم على تنفيذ هذا الأمر فأرسلت تركان خاتون ابن الخليفة إلى والده وانتهزت هذه الفرصة لتكرر التماسها فلما رأى الخليفة أنها تظهر جداً وجهداً كبيرين في طلب السلطنة لابنها، وأنها لم تمل برغم ردها مرة، أجاب ملتمسها، ومن طلب شيئاً وجدَّ وجد، ومن إمارات الجد حسن الجد، وأشار بأن يقرأوا الخطبة باسم محمود، فلما علقت خاتون حمائل تركان المطلوب في رقبة ابنها المحبوب، ولما وضعت خاتم الملك الموروث في إصبع ابنها المحبوب أرسلت في الحال واحداً من خاصتها إلى أصفهان ليقبض على بركيارق، فلما بلغ أصفهان وأراد القبض عليه هب أتباع السيد نظام الملك بجملتهم لحمايته «والناس على دين ملوكهم فحملوه في منتصف ليلة من أصفهان وأخرجوه منها وأوصلوه إلى الأمير كمش تكين[٢] جاندار الذي كان أتابكاً من أنصاره، فأجلسه كمش تكين على عرش السلطنة فوجدت تركان خاتون الميدان خالياً فأجلست محموداً على عرش

---

(١) سورة الحج، آية ٢٧.

(٢) في رواية تكش تكين ـ قائد جيش بركيارق والذي أنقذ بركيارق من مخاولة هجوم كربوغا الذي أرسلته السيدة تركان خاتون.

السلطنة في أصفهان، وبعد ذلك توجه السلطان بركيارق على رأس عشرين ألف (ص٧٤) فارس إلى باب أصفهان، فأعدت تركان خاتون جيشاً ووزعت أموالاً كثيرة على الجيش الموالي لها، تطبيقاً للقول المعروف لا رجال إلا بالمال» ومع ذلك أرسلت أبا الغنائم الفارسي(*) ومجد الملك القمي اللذين كانا يديران شؤون قصرها ويبذلان جهداً في تدبير ملك محمود للتوسط في الصلح ومعهما خمسمائة ألف دينار ذهب لإعطائها لبركيارق قيمة ميراثه في ثروة أبيه ملكشاه على أن يترك الخصومة، فلما قبض بركيارق مال المصالحة ترك مجلس المخاصمة، وقرأ آية ﴿والصلح خير﴾[1] حمل راية الدولة وتوجه إلى همذان دار الأمان، فأرادت تركان خاتون أن تعاقبه لأن «ظلم الأقارب أشد» ـ ورغبت في تأديب بركيارق ولما لم يكن هناك يد الاستعانة برجل عظيم في مثل هذا الأمر، فقد التجأت إلى الملك إسماعيل(**) خال بركيارق، بشرط أن تتزوجه إذا تمّ على يديه انفراط عقد سلطنة بركيارق وأن تقبل الخطبة له بمجرد أن يمحي اسم بركيارق من الخطبة والسكة، فتوجه إسماعيل على رأس

(*) تاج الملك أبو الغنائم واسمه المرزبان بن خسرو قيروز من رجالات السيدة تركان خاتون.

(١) سورة النساء، آية ١٢٨.

(**) إسماعيل بن ياقوتي ـ خال السلطان بركيارق وقد اتفق مع تركان خاتون ضده فأمر بقتله سنة ٤٨٠هـ.

جيش كانت أصوات طبوله أُذن الفلك لقتال بركيارق، وانطبق عليه المثل القائل «أطمع من طفيل»(١).

بيت شعر فارسي ترجمته:

جيش تحول حوافر خيله الجبال غباراً وتنثره فيعلو فوق الفلك.

وجرت بين الطرفين في سنة ست وثمانين وأربعمائة ـ حرب مهولة وقتال يطحن الرجال، وحولت سيوفهم الزرقاء (ص٧٥) ساحة القتال إلى منطقة حمراء كاللعل(*).

بيت فارسي ترجمته:

زلزلت الأرض والجبال من شدة القتال، وغمرت الدماء التي سفكتها السيوف البحر والبر وصلت الهزيمة في النهاية بالملك إسماعيل، وهرب من ميدان القتال والتجأ إلى أخته زبيدة خاتون، وفي رمضان من هذا العام قتل بركيارق إسماعيل «والظلم بالظلم والبادي أظلم» وضاعت روح إسماعيل اللطيفة بطمع فارغ «والطمع الكاذب مدق الرقبة» ونتيجة لكلام تلك السيدة وسقط في حبال الندامة والحسرة، وكانت تركان خاتون واحدة من الناقصات عقلاً وديناً «وطاعة النساء ندامة».

ولما مرّ على هذه القصة بضعة أيام أرسى تتش بن ألب

---

(١) الميداني، ج١، ص ٣٨٧.

(*) اللعل: الياقوت.

آرسلان في شهر شوال أساس الخصام مع ابن عمه بركيارق[1]، ولما يكن لدى بركيارق في تلك الحالة استعداد للمقاومة، فتوجه إلى أصفهان، وترك له منطقة كهستان[*] فلما اقترب من أصفهان راعى أخوه محمود رسوم الاستقبال، فتعانق الأخوان دليلاً على المحبة واللحمة، وجددا بإرادتهما أساس المودة، «وتمازجا كالماء والراح، وتناسب مثل الدر والوشاح ولما انتهى الأخوان من رسوم الاستقبال قبض انر وبلكابك اللذان كانا قائدي جيش محمود على بركيارق وسجناه في أصفهان في قلعة كوشك ميدان، ومن يمن طالعه ظهر مرض الجدري على أخيه محمود في تلك الأثناء، واعتلت صحته، وساءت إلى درجة كبيرة، فأوقفا قتل بركيارق، حتى يتضح لهما إلى أي مصير سينتهي أمر محمود، وتصادف أن لبى محمود دعوة المعبود (٧٦) وانتقل إلى رحمة ذي الجلال والعزة.

شطر من بيت فارسي ترجمته:

ما أكثر الرغبات التي صارت تراباً

فاختار الأمراء طوعاً أو كرهاً بركيارق وأجلسوه على عرش

---

(١) هذا خطأ لأن تتش كان عم بركيارق لا ابن عمه والسياق يدل على هذا لأنه ابن ألب آرسلان.

(*) كهستان: أصلها قوهستان تعني موضع الجبال يتصل أطرافه بنواحي هراة، وهذه الجبال تسمى بهذا الاسم بين هراة ونيسابور.

السلطنة فلما استقر على سرير المملكة، كان الوقت قد حان لاختيار وزير وإسناد الوزارة إلى واحد يكون فريداً بين عظماء الدهر، وحكيماً بين دهاة العصر فوصل مؤيد الملك ابن السيد نظام الملك من خراسان، وحظي بقبول حضرة السلطان فأجلسه على كرسي الوزارة لأن اختصاصه وإخلاصه لأسرة السلطنة قديم، وأوله متصل بآخره، وتليده موصول بطارفه «والشبل في المخبر مثل الأسد» ثم جمع بعد ذلك جيشاً ونهض به لدفع عمه تتش، وحدث وبعد مدة. جرياً على مبدأ «لكل جديد لذة»[1] وصل فخر الملك أخو مؤيد الملك من خراسان وأحضر للسلطان معه هدايا كثير، وتحفاً وفيرة فوضع السلطان أمامه دواة الوزارة وعزل مؤيد الملك، وقريباً من وقت حدوث هذا الأمر، طعن الملاحدة المخاذيل قطع الله آفتهم عن الإسلام السلطان النافذ الأحكام، فجرح جسده المبارك فلما التأم هذا الجرح برعاية الطبيب الذي له نفس عيسى. وقرأ الروح الأمين بإشارة من حضرة رب العالمين عليه «باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك». وشفي هذا الجرح الذي أحدثه هؤلاء المردة الشياطين بحقدهم الدفين بواسطة سكين، وسرت بشرى الفرحة في (ص٧٧) الشريان والعروق، لزبدة آل سلجوق

---

(١) الميادني، ج٢، ص ١٤٦ و١٧٧.

فأحدث أثراً منعشاً كماء الحياة، وكانت حلاوة هذا الخبر كالحلوى أخرجت الأسى والحزن من نفوس الأتباع والخدم، وقرأ سائر رجال الدولة دعاء ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾(١) وأسمعوه بعضهم بعضاً. ثم توجه السلطان إلى خُراسان حتى ينزع الملك من يد الملك آرسلان. ويصير حاكماً نافذ الأمر في تلك الممالك، وبرغم أنه كان عنده جيش وفير وأتباع عددهم كثير فإنه كان يخشى تهور عمه آرسلان وشجاعته، ويخاف من جرأته ومبارزته، وتصادف أنه حدث قبل وصول السلطان هدفه المقصود أن طعن غلام طاغ باغ عمه زينة بستان العظمة وبهجة محفل الجلالة بينما كان ثملاً بعد أن ظل يشرب خمراً وردية من الصبح إلى المساء، ومات في أثر هذه الطعنة، فاستقبل مبشر الإقبال السلطان بركيارق، فلما وصل إلى هدفه وجد كنزاً بدون مشقة. ومملكة بدون عناء، وعين أخاه السلطان سنجر حاكماً على هذه المنطقة، وفي الوقت الذي توجه فيه بركيارق إلى خراسان، ذهب مؤيد الملك الذي تولى أعمال الوزارة مدة ثم عُزل، إلى أحد عبيد السلطان ملكشاه يسمى اسفهسالار(*) آثر وقال له: «أنت مدعو للسلطنة ومكانتك بين الجند ليست أقل من الآخرين، والسلطنة بالقوة في القتال فأي دخل

(١) سورة فاطر، آية ٣٤.

(*) اسفهسالار: كلمة فارسية معناها قائد الجيش.

للحسب والنسب فيها»؟ فدخل بهذا المدخل إلى نفس اسفهسالار انر، وصادف هذا الكلام هوى في نفسه فلعب برأسه غرور السلطنة وهوسها، فتوجه بعزم العصيان إلى دار الملك الري، فلما وصل إلى ساوه(*)، طعنه جماعة من الباطنية بسكين، فهلك (ص٧٨) فلما لم يصادف ما فعله مؤيد الملك من تدبير موافقة من التقدير «وفوق تدبيرنا لله تقدير» هاجر من العراق وخراسان وقال شعراً هو «لا الناس أنتم ولا الدنيا خراسان» ذهب إلى كنجة(**). وقال كلاماً من نوع الكلام نفسه الذي كان قد قاله لانر ولم يحدث أثراً ـ للسلطان محمد أخي بركيارق وحرضه على العصيان، وفي شوال سنة اثنين وتسعين وأربعمائة خرجا من كنجه، وقبل أن يصلا إلى قهستان جعلت رياح سوء الحظ خيام سلطنة بركيارق مضطربة مختلة، فخرج الأمراء أينانج ويبغ وآخربك عن طاعة السلطان بركيارق وابتدأ عصيان هؤلاء الأمراء الطغاة أنهم التمسوا من السلطان أن يقتل مجد الملك القمي الذي كان زمام التدبير في المملكة في يده فلم يقبل السلطان هذا الأمر ولم يعده مباركاً رعاية لحقوق ذلك الرجل ونظراً لعدم ظهور جرم منه ولعدم ارتكابه أية جريمة.

(*) ساوه: مدينة بين الري وهمذان.

(**) كنجة: مدينة هي قصبة بلاد اران، وبلاد اران، يفصلها عن آذربيجان نهر الرس.

شطر من بيت شعر فارسي ترجمته:

لا ذنب ولا دم لا قيل ولا قال

ولم يستصوب السلطان هذا الخطأ، فبالغ في حمايته ورعايته طبقاً للمثل «كن سنداً لمن استند إليك» ولم يسمح للأمراء العصاة بالالتفاف حول خيمة مجد الملك القمي، وألجأ مجد الملك إلى حرم السلطان، فالتف الجيش حول خيمة السلطان العالية، ولم يراعوا حرمة السلطنة التي تعد المحافظة عليها من الأمور الواجبة في الشريعة ويعد هتكها من الأمور المحرمة، فانتهكوا هذه الحرمة وعدوا هذا الفعل الحرام مباحاً، ونهبوا الخزانة العامرة، ودخلوا الحرم المحترم وقطعوا مجد الملك قطعاً قطعاً في حضور السلطان (ص٧٩) فتحير بركيارق من جرأتهم وجسارتهم، وخرج من فتحة بالخيمة وتوجه إلى منزل آخربك، فخرج آخربك وقدم رسوم العبودية للسلطان، فعظمه السلطان وكرمه «والخضوع عند الحاجة رجولية».

بيت فارسي ترجمته:

الخشونة والحدة لا تجديان

الثعبان يخرج باللين من الثقب

والتمس منه أن يذهب ويصب ماء على نار غضب الحشم، ويمنعهم من ذلك الأمر القبيح الذي يعد شرعاً وعقلاً شيئاً فضيحاً فأطاع آخر بك وذهب، وكان هو متفقاً مع هؤلاء البغاة الطغاة ثم أرسل شخصاً إلى بركيارق يقول له: «إنهم لا

يقبلون نصيحتي ويعدون ترك المخالفة في هذه الحالة من المحظورات والصواب أن يركب السلطان مع عدد من الغلمان يشتريهم بالذهب، وأن يخرج من وسط فتنة هؤلاء الفسقة، ولم يجد السلطان بركيارق بداً من الإمتثال بعد أن سقط ورق المراد من شجرة حظه وأهال مبعوثو النكبة التراب على رأسه، وخرج من المعسكر فوراً، وتوجه إلى الري، ووصل السلطان محمد الذي كان طالباً للسلطنة من كنجة ومعه مجد الملك الذي كان دائماً يحرضه على المخالفة ويقول:

شطر من بيت شعر فارسي ترجمته:

الأفضل أن يسلِّم الشيخ الزمام للشاب.

فوجدا الأموال والخزانة والملك مهيئاً بدون معارضة الحساد والأضداد، فأصبح هذا كله تحت حكم السلطان محمد الذي جلس على عرش السلطنة بينما جلس السيد/مؤيد الملك على كرسي الوزارة، وبعد وقت قليل توجه بركيارق على رأس جيش يفوق عدد جنده حيز اليقين ومركز الظن والتخمين (ص٨٠) لقتال أخيه السلطان محمد الذي لم تكن لديه طاقة المقاومة فسلك طريق الهزيمة، وأمسكت يد القضاء بتلابيب مؤيد الملك، وأوقعته في دوامة التعب والعناء وقيدته بقيد البلاء، فأرسل في عاقبة الأمر رسالة إلى السلطان يقول فيها: «إذا عفا عني ملك العالم ومهر منشور الوزارة بخاتم عفونا عما سلف فإني أرسل إلى الخزينة مائة ألف دينار من

الذهب» فاقتضى كرم بركيارق أن يجيبه إلى ملتمسه وقرر أن تعطى له دواة الوزارة وقلم النيابة بمجرد تسليمه المال، ولما كان الحظ غير مساعد، والدهر الغدار غير معاون ومناصر فإنه تصادف أن حدث جدل بينه وبين أصحاب الخزانة حول اختلاف النقد والنوع وحدثت مضايقة في غير وقتها «والبخل شؤم والتسويف مذموم» وتأخر هذا الأمر لليوم التالي «وفي التأخير آفات، ورب أكلة تمنع أكلات» وفي اليوم التالي بينما كان السلطان مشغولاً بقيلولة قال الطشتدار(*) وهو يظن أن السلطان في استراحة، والظن يخطئ ويصيب، لزميل له «السلاجقة قوم عظماء ولكن بدون حمية». ولا غيرة عندهم قطعاً ـ فكيف يعتمدون الآن مرة بعد أخرى على رجل ظهر منه كفران وتقلب إلى الحد بعد أن عاش السلطان مدة يقيم كل يوم في منزل وكل ليلة في مكان بسبب شؤم تدبيره وتقديره.

شطر من بيت شعر فارسي ترجمته:

هو كل يوم في منزل، وهو كل يوم في مكان.

وكيف يصنعون مرة بعد أخرى ـ زمام الحل والعقد في المملكة في قبضته؟

جاء في المثل:

(*) طشتدار: وظيفة سلجوقية صاحبها مسؤول عن صب ماء الغسيل للسلطان.

من جرب المجرب حلت به الندامة[١].

السلطان لا يستمع بأذن العقل إلى هذا القول ولا إلى ما جاء في خبر «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»[٢] (ص٨١) ولا يصنعونه نصب العين. فاستمع السلطان إلى هذا الكلام كله وتذكر جرائم مؤيد الملك مرة أخرى، واشتعلت مشاعل الغضب فخرج في الحال من هذا المكان المخصص للقيلولة، كما خرج من خيمته واستدعى مؤيد الملك وقتله بيده بناء على ما قالوه في الشعر:

شعر فارسي ترجمته:

اقتل اليوم من تستطيع قتله، لأن النار إذا ارتفعت ألسنتها حرقت العالم فإذا استطعت أن تقتل العدو بسهم، فلا تدع الأمر حتى يلقى القوس السهم، وقال السلطان من شدة الغضب للطشتدار «رأيت كيف تكون حمية السلاجقة»؟ «ورب إنسان قتله اللسان» وكانت مدة عمر بركيارق خمساً وعشرين سنة، ومدة سلطنته اثنتي عشرة سنة، وكان وزراؤه فخر الملك حسن بن نظام الملك[٣] وأخاه مؤيد

---

(١) الميداني، ج٢، ص ٢٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٠.

(٣) فخر الملك حسن بن نظام الملك: هو الابن الأكبر لنظام الملك، تولى الوزارة في عهد السلطان بركيارق وخلعه منها سنة ٤٩٠هـ، ثم عينه السلطان سنجر وزيراً له وظل في هذا المنصب حتى اغتاله أحد الباطنية سنة ٥٠٠هـ.

أبا بكر[١]، وعز الملك أبا الليل الدهستاني[٢] ومسجد الملك أبا الفضل القمي[٣] وكان توقيعه «اعتمادي على الله وحده».

* * *

---

(١) مؤيد الملك: عبيد الله بن الحسن (نظام الملك) كان من المعروفين بالذكاء واللطف والظرف واستوزره السلطان بركيارق سنة ٥٨٧هـ، ثم عزله واعتقله، ثم أفرج عنه وبعدها اتصل بمحمد بن ملكشاه واتفق معه على خلع أخيه بركيارق، وتمكن بركيارق من القبض عليه وقتله سنة ٤٩٥هـ.

(٢) الأعز أبو المحاسن عبد الجليل بن محمد الدهستاني وزير السلطان بركيارق علي أصفهان، وتولى سابقاً منصب العميد في العراق (والعميد أشبه بالمحافظ في وقتنا الحاضر)، وقتل الدهستاني سنة ٤٩٥هـ.

(٣) مجد الملك أبو الفضل القمي: من الوزراء المشهورين بالبخل، وقد ثار ضده الأمراء والقواد وقتلوه سنة ٥٩٢هـ.

السلطان غياث الدين أبو شجاع محمد ابن ملكشاه ناظم أمير المؤمنين

كان السلطان الراحل محمد حامياً لحمى الإسلام، وزينة لمنشور الفتح والإقدام.

بيت فارسي ترجمته:

رئيس ملوك الدنيا، ومانح التاج لوجه الأرض، وبه اختتم تعمير العالم حتى الأبد وكان سلطاناً مؤيداً بتأييد رباني، وكان له إنصاف كامل وعدل شامل ومن كثرة علو رتبته في الجاه، وضع قدمه على مفرق القمر، وأحرز قصب السبق في ميدان المبارزة والقتال من الفلك الدوار، وكان سلطاناً رؤوفاً رحيماً، وكان على منهاج (ص٨٢) العدل وفضيلة الدين مستقيماً، وكان بعيداً عن المناهي والملاهي التي هي سبب اختلال أحوال التعمير والإصلاح، وكان مذكوراً بثبات العهد وصدق القول وحسن الفعل ومشهوراً بالعلم والتدين والحلم والتقوى.

شعر فارسي ترجمته:

قال الجبل حياء من حلمه إنني أعشق شهردي[1]، لأن

(١) هو الشهر العاشر من السنة الإيرانية وهو يبدأ ١٢/٢٢ وينتهي ١/٢٠.

سحاب دي يجعلني أضع غطاء فوق الرأس وقد بذل جهداً كبيراً في قمع أعداء الدين ﴿الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾[1] والقضاء على الكفرة والملاعين والمنكرين لشريعة سيد العالم ﴿الذين يكذبون بيوم الدين﴾[2]، وسعى وَكَدّ كَداً بلا حد في هدم بنيان قواعد الملاحدة الفسقة المخاذيل المرقة وإرساء أساس الإسلام، وإحكام مراسم الأحكام الإلهية وأنزل الدمار بديار الملاحدة التي لا أساس لها، وجعلها رماداً تذروه الرياح، وتلحق الخراب بديار الظَلَمةِ الفُجّار.

شعر:

فساس بلاد الشرق والغرب كلها
بأقلامه والمرهفات الذوالق

والحق مردة بادية الخذلان ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾[3] بإخوانهم وأصدقائهم ومواليهم ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾[4] وبعث بهم إلى أسفل سافلين ﴿ومن يَعشُ عن ذكر الرحمن نُقيّض له شيطاناً فهو له قرين﴾[5].

---

(١) سورة الشعراء، آية ١٥٢.
(٢) سورة المصففين، آية ١١.
(٣) سورة هود، آية ١٩.
(٤) سورة النساء، آية ١٣٩.
(٥) سورة الزخرف، آية ٣٣.

وقد نقل محررو ديوان الأخبار وناسخو نسخ الآثار أنه في الوقت الذي ظهرت فيه مخاصمة ومخالفة بين السلطان محمد وأخيه بركيارق واشتعل الجدال والقتال (ص٨٣) ارتفع شأن الملاحدة، واضطربت بلاد الإسلام بسبب تلك الفتنة وذلك البلاء، فقد أشاع دعاتهم الاضطراب في ممالك العالم، وخدعوا العوام بالخرافات المجوفة، والترهات المزخرفة، والعوام كالأنعام ليس لهم وزن بين أخيار الخواص في كل العصور، ولا عيار لهم في محك اعتبار كرام الأنام، وهم كشجر الصفصاف يهتز بكل ريح، ولا يستطيعون التفرقة بين موسى الكليم وفرعون اللئيم الظلوم، وبين النبي إبراهيم الخليل ونمرود الذليل، وبين محمد الأمين وأبي جهل اللعين، وبين ولي الله علي وبين يزيد الطاغي الباغي.

بيت شعر فارسي ترجمته:

إذا كان للعوام بقرة يصدقون أنها إله، ولا يصدقون نوحاً إذا اتصف بالنبوة، وكان في أصفهان شخص اسمه عبد الملك بن عطاش أطاع الشيطان. ﴿الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس﴾[1] «ويدعو إلى الكفر والإلحاد» ولما اطلع أئمة أصفهان، وفضلاء ذلك الزمان، على تلك الحالة المضطربة، فر وذهب إلى مدينة الري لدى المحتالين

---

(١) سورة الناس، آية ٥.

الشياطين وأمام جند الملاعين، سالكاً بادية الغواية وساكن هاوية الجهالة وقائد قافلة الضلال، ورئيس السائرين في طريق الوهم والخيال الملعون أبداً والمخذول سرمداً، المفلس في أسواق العقبى، والعاطل في مصنع الدنيا حسن الصباح[*] عليه اللعنات كل رواح وصباح، وترك ابنه أحمد العطاش في أصفهان، ونظراً لأنه في وقت حضور الأب، كان الابن يعلن توبته وينادي ﴿اغفر لأبي فإنه من الضالين﴾[1] ينادي والده قائلاً: ﴿أنا بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾[2] (ص٨٤) وكان يعلن التبرؤ منه في الظاهر «كالروث المغض والكنيف المبيض» فكان المسؤولون لا يضايقون بحكم المبدأ القائل «نحن نحكم بالظاهر». وكان يعيش تحت حماية مخالفته لأبيه السيئ السمعة، وموافقته لطوائف الإسلام والأمة، ونظراً لهذا الاعتقاد الفاسد كان مخمراً في باطنه وكانت صحة هذه الادعاءات الباطلة مقررة لديه، فإنه كان يلقى أبناء ذلك العصر من أرباب الدولة وأصحاب الملك والأذناب والأتباع في ورطة الكفر والإلحاد، ووهدة الظلم بلطائف الحيل وأول حيلة توسل بها أنه جعل نفسه معلماً لحراس قلعة «دزكوه» والمقيمين بجوارها

(*) الحسن الصباح: من زعماء الإسماعيلية في عهد ملكشاه السلجوقي، استولى على قلعة الموت من نواحي قزوين، توفي سنة ٥١٨هـ.

(١) سورة الشعراء، آية ٨٦.

(٢) سورة الحشر، آية ١٦.

وكانت حصناً حصيناً وقلعة متينة، وكان سور تلك القلعة مثل الجبل الشامخ الراسخ وكان خندقها مثل بحر عمان عريضاً لا نهاية له، ولما وجد ذلك الإبليس المليء بالتلبيس عن طريق المكر والتدليس مجالاً للتردد على القلعة التي تشبه الجنة المليئة بالحور والقصور التي كان السلطان الغازي ملكشاه السلجوقي قد بناها، وكان السلاطين الراحلون في أثناء غيابهم عن أصفهان يرسلون إليها بنات الحرم والأتباع والخدم وكل محترم من الحشم، وأخذ يتردد إلى الديالمة الموجودين بالقلعة، ويدعوهم إلى الإلحاد، فلم يستنكر أفكاره البنون والبنات والأبكار والثيبات، واستمعوا جميعاً إلى دعوته بسمع القبول فصار هذا المحتال الشقي أحمد العطاش الذي كان شقيق دلة المحتالة حاكماً على القلعة ومن فيها جميعاً، وتولي زمام القيادة والرئاسة، ولما سخَّر هؤلاء القوم لإرادته، وقوي قلبه بكثرة أتباعه أنشأ داراً للدعوة على باب المدينة بالقرب من دشت كور(*) وكان يأتي إليه كل ليلة من كل مدينة جماعة من ضالي وادي الشقاوة، ومختاري بادية الضلالة، ويستمعون إلى أباطيل ذلك المضل وخرافات (ص ٨٥) ذلك المذل، لأن جذور الطغيان والعصيان راسخة في أرض ضميره، وشجرة الظلم والعدوان قد نشرت أغصانها في عرصة صدره، وكان أحمد يعقد معهم

(*) دشت كور: من قرى أصبهان.

عقد بيعة، وعهد تبعية، ويرغبهم ويحببهم في قتل المؤمنين وهتك حرمة المسلمين، وظلّت سوق هذا الجاحد لله المغضب له رائجة مدة، وبقيت أوامر هذا الشخص ـ العديم الضمير والكلب التافه الذي كان يعيث في الأرض فساداً ـ منفذة إلى درجة أن أتباعه قتلوا كثيراً من المسلمين بإشارة منه، وبعثوا بهم إلى دار النعيم.

وقد روى ملاحو سفن الآثار وسائحو الأخبار أن رجلاً باغياً من قوم هذا الطاغي كان أعمى منذ ولادته، وكان يشتهر باسم سيد المدنى[(١)]. وهو لا يعلم.

بيت فارسي ترجمته:

إن الصفة القبيحة لا تزول بإطلاق اسم جميل على صاحبها، والمرأة لا تصير رجلاً إذا سميت حيدر، كان يقف في نهاية كل يوم وهو يمسك عصاً في يده، وكان ينادي على كل شخص يمر عليه، ليمسك بيده، ويوصله إلى باب المنزل، وكان العابرون يعتقدون أن إعانة المحتاج من الواجبات بمقتضى القول المعروف «من أعان مضطراً أعانه الله» فكانوا يعدون إعانته من المندوبات بمقتضى الخبر «الله تعالى في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم»[(٢)]

---

(١) يذكر في الكتاب سيد المديني والصواب ما ذكرنا في الترجمة.

(٢) حديث شريف: ذكره مسلم (ذكر) (ص ٣٧، ٣٨)، وفي سنن أبي داود (أدب) ص ٦٠، وفي سنن الترمذي (حدود) ص ٣، ومسند ابن حنبل، حـ٢، ص ٢٥٢، وفي الترغيب والترهيب للمنذري،

وكانوا يعتمدون على هذا الظاهر المزين، ويغفلون عن خبث باطنه، وهم لا يعلمون.

شعر فارسي ترجمته:

إن في هذا الطريق مائة ألف إبليس في صورة إنسان، حتى لا تعد كل من له وجه إنسان إنساناً (ص ٨٦).

شعر:

تـلـثـم حـيـن الالـتـقـاء ثـغـورهـم
والـلَّـه يـعـلـم مـا تـكـنُّ صـدورهـم

وكان هذا المدنى بسبب انعدام دينه قد حفر بئراً في الدهليز، وكان كل يوم يلقي في البئر واحداً من المؤمنين الصادقين الذي قاد هذا الملعون المنافق إلى منزله حسبة لله، ولما مرّ وقت على هذا الظلم، جاءت سيدة فقيرة معدمة لا أهل لها ذات صباح إلى باب هذا الظالم الفاسد الدين السيئ الطوية وطلبت صدقة فسمعت أنات وأصوات المحبوسين في سجن البئر الجهنمية تأتي من الدهليز يتألمون من شدة المرض، فرفعت صوتها بالدعاء: «يا مغيث الملهوفين والمرضى ألطف بمرضى هذا المنزل ونجهم من دائهم الذي لا دواء له» فخشي أصحاب هذا الفرعون المفترس أن تطَّلع هذه العجوز

= حـ٣ (ص ٢٥٠ـ٢٥١) من حديث زيد بن ثابت بلفظ (لا يزال الله في حاجة العبد ما دام في حاجة أخيه) ونسبه للطبراني وقال رواته ثقات.

على حقيقة الأمر. فخرجت سيدة مسرعة، وأرادت أن تلقي بها في هذا السجن الذي لا سدود له، فعرفت العجوز بالقرينة، أن في الأمر شيئاً. ولاذت بالفرار «والفرار في وقته ظفر» وجرت إلى رأس الشارع وقالت للمارين في الطريق: سمعت من المنزل الفلاني صراخ وأنات رجل معلق، ورأيت بعض حركات تخالف المألوف، وكان أهل المدينة منذ مدة في بحث وتنقيب ونقاش حول المفقودين، وكان الآباء المحزونون المحرومون بسبب فقد أبنائهم المظلومين يجلسون كما يجلس أبو يوسف الكنعاني، وقد عصرتهم الأحزان، فلا يوجد أثر للأبناء المفقودين، ولا يسمع خبر عن فلذات أكبادهم الضائعين، ولا تصل ريح قميص يوسف المحبوب (ص٨٧) إلى مشام كل يعقوب منكوب، ولا تصل من الأب الهلع القلب راسلة إلى الابن الخائف اليتيم المعذب، وكانت العين المبصرة لكل أب حزين تبكي بدل الدمع دموعاً على فراق الابن المدلل الحنون ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾[١] وكان كل أب قد أودع بذور محبة ابنه في أرض قلبه فكان يصرخ بشدة من حرقة فرقه نور بصره، ويوصل صراخه إلى عنان السماء ويقول كما جاء في الشعر:

جماعة الأيك هل تدرين ما الخبر
وهل بقلبك مما آثروا أثر؟

---

(١) سورة يوسف، آية ٨٤.

واهـــاً والأيـــام لـــنـــا ســـلـــفـــت
ومـجـلـس الأنـس فـيـهـا فـائـح عـطـر
يـا لـيـتـهـم نـزلـوا فـي مـقـلـتـي فـرأوا
أن الأحـبـة هـم لا الـسـمـع والـبـصـر

وفي شعر فارسي ترجمته:

أيتها القافلة إذا عزمت على الرحيل، لنا عندك حاجة فاحضريها.

أحضري خبراً عن يوسف الكنعاني الذي خرج من المدينة إلى يعقوب.

وكان الأصدقاء يتأوهون من فقدان الأصحاب الذين كانوا توائم لقلوبهم لأنهم أحباب لهم منذ كانوا رضعاً في المهد قائلين يا ويلتاه، ويصرخون من الفرقة «آه بلغ السيل زباه» وكان صراخهم يرتفع بين حين وآخر بلا ضابط وكانت الأمهات المحبات يهلن التراب على رؤوسهن حسرة على فراق أبنائهن ذوي الطباع الحسنة ويقلن:

بيت شعر فارسي ترجمته:

أنا أطوف الشوارع جارياً جارياً في طلبك، مثل الحيارى أديم النظر إلى البدر.

بيت شعر عربي:

مـــا حـــال مـــن كـــان لـــه واحـــد
غـــيـــب عـــنـــه ذلـــك الـــواحـــد

والقصة أن جماعة ممن جرحت قلوبهم في تلك الغصة،

وكان خاطرهم مكسوراً، وذهبوا في شارع (ص٨٨) سيد المدنى، وفتحوا رأس البئر، فوجدوا أربعمائة رجل بعضهم مقتول، وبعضهم مصلوب بالمسامير على الأبواب والحيطان، وجماعة منهم قد بقي لهم من رونق الحياة رمق ومن شمس البقاء شفق.

بيت فارسي ترجمته:

«إذا لم ترجم مثل هؤلاء القساة القلوب بالأحجار فإن الفلك يستنكر ذلك كثيراً» وتذهب القصة إلى أن أهل أصفهان سمعوا ذلك الخبر، فاجتمع خلق كثيرون، وقبضوا على المدنى المفسد ومن تابعه من الكفرة والفجرة، وأحضروهم إلى سوق الجيش (لشگر) وجعلوهم عبرة للنظار، وزجراً للشطار، بأن حروهم بالنار. وأشد النار عذاب النار. وأنزلوا الدماء بأجساد هؤلاء الكفار الأشرار، ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾[١] ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[٢] وفي الوقت الذي توجه فيه السلطان محمد إلى بغداد اغتنم سكان قلعة دز كوه ـ هذه الفئة الضالة الوضيعة ـ فرصة غياب السلطان وحملوا إلى القلعة ـ ذخائر ـ كثيرة وكان شأنهم يزداد تألقاً ورونقاً كل يوم واجتمع حولهم أتباع لا حصر لهم حتى رجع السلطان من بغداد على رأس جيش كبير.

---

(١) سورة إبراهيم، آية ٤٢.

(٢) سورة الشعراء، آية ٢٢٧.

بيت فارسي ترجمته:

جند مثل النمل والجراد لا حصر لهم

فرسان حرب ورجال قتال

وعزم على دفع هؤلاء الملاعين تطبيقاً لقوله تعالى ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾[1] وظل السلطان مشغولاً بالقضاء على هؤلاء الملاحدة الظالمين مدة سبع سنوات بهذا الجيش الذي لا عد له ولا حصر، فلما علم هذا الشيطان الوسواس أحمد العطاش في نهاية الأمر أن زمن الشعوذة والتدليس سينتهي (ص٨٩) وبناء مكره وخديعته سيصير يباباً وأن نداء «ادخلوا النار» سيصل إلى سمعه وسمع أتباعه، بعث برسالة إلى وزير السلطان سعد الملك الآبي الذي كان لسوء الحظ يقيم صداقة مع ذلك العدو للملك والدين ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾[2] وقال له: «لقد وصلت السكين إلى العظم، وقد نفذت الذخيرة التي كانت سبب في بقاء النفس، وستسلم القلعة طوعاً أو كرهاً».

فأجاب سعد الملك العديم الدين: «تمسك بالعروة الوثقى للصبر لمدة أسبوع آخر، وكن ثابت القدم حتى أهلك أنا السلطان» وكان السلطان محمد ملكاً محرور المزاج يفصد مرة كل شهر. فاتفق سعد الملك مع فصّاد فاسد وأعطاه ألف

---

(١) سورة التوبة، آية ٧٣.

(٢) سورة المائدة، آية ٥١.

دينار ذهباً وسلاحاً مسمماً لإزهاق روح السلطان، وتصادف أن علم حاجب سعد الملك بهذه المؤامرة، وكانت عنده امرأة ملائكية الوجه، كان فنانو الصين يقلدون ما في وجهها من جمال من فنونهم.

شعر فارسي ترجمته:

إذا رأت الجميلات في ذلك العصر وجه تلك الجميلة.

يقطعن أيديهن بدلاً أن يقطعن الفاكهة التي بأيديهن.

فقال لها هذا السر من فرط المحبة، وقالت هي هذا الأمر أيضاً لعاشق جذاب وصديق وفي كان يتحدث معها مدة عن العشق والولاء والمحبة والهوى، فأرسل ذلك الشاب تقريراً بالأمر إلى واحد من أصدقائه كان وكيلاً مسؤولاً عن أمور القاضي صدر الدين الخجندي[*]، وشاع الخبر بروايات كثيرة.

شطر من بيت شعر فارسي

وكل سر جاوز الاثنين[1] شاع.

فعلم صدر الدين بهذه الحكاية، وذهب على الفور لزيارة السلطان وعرض الأمر عليه، فتمارض السلطان في اليوم التالي واستدعى الفصّاد، حتى يفصد وفقاً لعادته فلما ربط

(*) الخجندي: هو صدر الدين عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الخجندي رئيس الشافعية بأصفهان، قتله الباطنية في سنة ٥٢٣هـ.

(١) في النسخة الفارسية «اثنان» وهذا خطأ نحوي.

الفصاد ساعد سلطان الإسلام ذي الاحتشام، وأخرج الموسى ليجرح جسده نظر السلطان للفصّاد بغضب، فخاف الفصّاد، وطلب الأمان لروحه وكشف سر هذا السلاح، وعرض بصدق حقيقة الأمر، فأمر السلطان وفقاً لقوله تعالى ﴿جزاء سيئة سيئة﴾[١] بأن يفصدوا للفصّاد بهذا السلاح، فانتقل في الحال من بهجة دار الوجود إلى صحراء العدم.

ولما ثبت صدق هذه القضية وأصبح الظن يقيناً شاهد السلطان بعين اليقين حقيقة الوزير، فألقى سعد الملك الأمر في تراب المذلة وفصل رأس ذلك الملعون بسيف في لون الماس ﴿والله لا يهدي كيد الخائنين﴾[*].

وبعد يومين سلم الملاحدة القلعة، وأخذوا أحمد العطاش الذي كان من كثرة التجبر يريد أن يقول ﴿أنا ربكم الأعلى﴾[٢] فاستكبر وافتخر معتمداً على أتباعه الكثيرين ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير حق﴾[٣] ولكي يكون آية للمفسدين الواجب قتلهم من أمثاله أحضروه وأتباعه عراة إلى أصفهان، ومصداقاً لقوله تعالى ﴿إنا اعتدنا للظالمين ناراً

---

(١) سورة الشورى، آية ٤٠ ونص الآية: وجزاء سيئة سيئة مثلها.

(*) سورة يوسف، آية ٥٢.

(٢) سورة النازعات، آية ٧.

(٣) سورة القصص، آية ٣٩ وصحيح الآية: ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾.

أحاط بهم سرادقها﴾[١] أشعلوا ناراً عظيمة وأحرقوهم جميعاً إلى آخرهم وأسلموا بيدر عمرهم مثل الغبار لريح القهر الصرصر، وارتفع من باب بنيان الإسلام وسقفه نداء ﴿انظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾[٢] وسبب ذهاب السلطان محمد إلى بغداد الذي كان سبب ارتفاع شأن الملاحدة أن (س٩١) عبيد أبيه صدقة وأياز عصيا أمره وجمعا جيشاً أكثر من الرمل والحصى وأتباعاً عددهم أكثر من أن يعد ويحصى، ولهذا السبب توجه السلطان من أصفهان إلى مدينة السلام، ويقولون أن السلطان، لم يكن له في مثل هذه الحالة جند يستطيعون إن يتصدوا للمبارزة في ميدان الهيجاء وتحطيم قلب العدو في ساحة القتال ﴿وما كان له فئة ينصرونه من دون الله﴾[٣] غير أنه هب فجأة نسيم من مهب السعادة، وبرق برق من مشرق الإقبال وألقى السحاب ظله على جيش الأعداء، وظهرت علامة رجع جيش صدقة وأياز من هولها يائساً وألقى الجند جميعاً السلاح، وأعدوا عدة الموت وقتل صدقة وأياز وآل إلى الجند المال الذي أخذاه من قبل كما قال تعالى: ﴿فذاقت وبال أمرها وكانت عاقبة أمرها خسراً﴾[٤] ولوى

(١) سورة الكهف، آية ٢٩.

(٢) سورة الأعراف، آية ٨٦.

(٣) سورة الكهف، آية ٤٣.

(٤) سورة الطلاق، آية ٩.

السلطان عنان عزمه المظفر نحو أصفهان بعد نيل المطلوب وحصول المقصود، ونعم بعرش المملكة وعرائس الحظ والسعادة.

شعر فارسي ترجمته:

الدنيا مطيعة والفلك عبد والملك داعٍ، والأمر متجدد والدولة قوية والحظ شاب والفتوح صوب اليمين والسعود صوب اليسار، والفلك أمام الركاب والزمان تحت الزمام.

وقد نقل ممهدو قواعد التاريخ أن السلطان محمد كان يميل إلى حب المال، ويرغب رغبة تامة في جمعه، ويقولون إن وزيره السيد أحمد بن نظام الملك كان ينتهج طريق المخاصمة وأسلوب المصادقة مع السيد أبي هاشم(*) والد علاء الدولة الهمداني ـ أحلها الله غرف الجنان وكساهما خلع المغفرة والرضوان ـ (ص٩٢) وكان دائماً يقلق سمع السلطان بقبح حكاياته حتى وصل الأمر إلى درجة أن تغيّر السلطان على السيد، وأذن للوزير السيئ التدبير بإيذاء ذلك السيد العديم النظير، قرة عين البشير النذير، وتعهد الوزير أن يأخذ من السيد خمسمائة ألف دينار ذهب لخزانة السلطان، وقبل ذلك أرسل شخصاً للمطالبة بهذا المبلغ وأشار بأخذه، فعلم السيد بهذا الأمر وجاء في أسبوع من همدان إلى

(*) أبو هاشم: يسميه ابن الأثير الشريف أبو هاشم وهو رئيس همدان ويذكر الراوندي أنه جد علاء الدولة.

أصفهان، وطلب فرصة، وفي الليلة نفسها قابل السلطان وبكى وقال: إن الوزير له مدة يعمل في تدبير كل أنواع التزوير حتى أوصل ضياعي وعقاري من درجة الانتقاع إلى مرتبة الضياع وهو الآن يسعى ـ بعد خراب البصرة ـ إلى تحطيم نفسي، ويقول أنا اشتريت أبا هاشم من سلطان العالم بخمسمائة ألف دينار ذهب، وهكذا يبيع حاكم بني آدم ابن بيت النبي وفلذة كبد الولي وثمرة شجرة علي الذي حقه أن يذاع ولا يضاع وأن يبتاع ولا يباع.

شعر فارسي ترجمته:

«والله ينبغي أن يُقيد بمسمار القضاء مثل هذا السيئ السيرة ونظير هذا الإنسان) وإذا كانت هناك ضرورة لمال من أجل الجند، فإن السلطان يستطيع الاعتماد عليّ «أنا الدرويش». وبحكم أن «الضرورات تبيح المخطورات» فأنا تحت طوعك واختيارك بدون وساطة ومعرفة هذا المكار السيئ الفعال، وأنا أقدم ثمانمائة ألف دينار ذهب بشرط أن يرفع السلطان دواة الوزارة من أمام يده وكرسيه، وأن يطهِّر الديوان الرفيع الشأن من أذى حضور هذا الوزير السيئ التدبير الذي جعل سلطة الوزارة أداة للأذى وهتك حرمة فلذات كبد الرسول وهدم أساس رفعة أبناء (ص٩٣) البتول، وهو يظن أن ذلك شهامة وثمرة السعادة لأنه ليس متحلياً بالأوصاف الحسنة وليس مقتدياً بآثار فضل أبيه المشهور، فهو لم يتخلق بهذه الأخلاق مكتفياً بالانتماء إلى أسرة نظام

الملك، فهو يعد عراقة الأصل كافية، ويجب جعل نص ﴿إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾[(١)] نصب العين، والاعتبار بالأثر القائل «سوء الاكتساب يمنع من الانتساب» لأنه كما جاء في الشعر:

شعر فارسي ترجمته:

ليس كل شخص اسمه حسن، جميع أفعاله مثل نظام.

الحافر حديدي، ولكنه لا يفعل وقت الفضل مثل هسام[(٢)]

فاستمع السلطان إلى كلام أبي هاشم بسمع القبول لأنه مظلوم وليس بظالم وأدى المبلغ المطلوب في أسبوع من غير أن يبيع ملكاً أو يقترض قرضاً، وسقط الوزير السيد أحمد في قيد المحنة والندامة، فلم يكن تعرضه للأسرة المطلبية والعائلة الهاشمية ذا فأل حسن عليه، لأن هؤلاء السادات الأشراف والأشراف السادات قد حظوا بالتشريف من حضرة ذي الجلال ﴿وما أسألكم عليه من أجر إلا المودة في القربى﴾[(٣)] وتشرفوا بخلعة (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي)[(٤)] فالجزء والكل وصلت جذور إقباله إلى الثرى

---

(١) سورة هود، آية ٤٦.

(٢) يبدو أنه يشير إلى اسم حصان.

(٣) سورة الشورى، آية ٢٣.

(٤) حديث شريف، مسند ابن حنبل، حـ٤، ص ٢٧٨ و٣٥٧، ٣٨٣.

وتجاوز ارتفاع غصنه الثريا، فهي شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء وهم ثمرة شجرة ألقت أغصانها وأفنانها وظلها على مفارق أحوال العالم وأهل العالم.

شعر:

من معشر سادة جحاجحة
سادوا فشادوا لدين اللَّه بنيانا
على رؤوسهم والصدق متبع
عمائم أخجلت في الفجر تيجانا

وعاقبة الظلم وخيمة.

وكان زمن ولادة السلطان شهر شعبان سنة أربع وسبعين وأربعمائة، وكانت بداية حكمه سنة اثنتين وتسعين ومدة حكمه ثلاثة عشر عاماً[١] وكان وزراؤه مؤيد الملك بن نظام الملك وسعد الملك الأبي[٢] وربيب الدولة أبا منصور القيراطي[٣] وخطير الملك أبا منصور اليزدي[٤]، وكان توقيعه: «استعنت بالله وحده».

---

(١) هذه المعلومات غير دقيقة لأنها توحي بأن السلطان محمداً مات سنة ٥٠٥هـ، والحقيقة أنه مات سنة ٥١١هـ.

(٢) أمر السلطان بصلبه سنة٥٠٠هـ بباب أصفهان.

(٣) وزيراً للسلطانين محمد ومحمود وتوفي سنة ٥١٣هـ.

(٤) ورد اسمه في الكامل لابن الأثير (خطير الملك أبو منصور الميبذي) وتوفي سنة ٥١٥هـ.

السلطان معز الدنيا والدين أبو الحارث سنجر بن ملكشاه برهان

كان السلطان سنجر حاكماً قاهراً للأعداء، وسلطاناً خير الأفعال، معزاً للدين معيناً للخلق، احتمت به الدنيا بأسرها، وغمر بسيط الدنيا السرور في عهده، وصارت أنحاء الربع المسكون وأرجاؤه كلها مجلساً للسرور ومربعاً لجنده، وقد جلس على مسند العز والرفعة والقدرة منذ سن النشوء والنمو إلى عنوان عهد الصبا وإلى الوقت تنفس فيه صبح ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾[1] من عارضيه، وقد أطاعه جبابرة العجم وأكاسرة العالم ودانوا له (ص٩٥) بالطاعة والولاء، ودق مبشرو الاقبال طبول سلطنته وإجلاله فوق ظهر الفلك، وزلزل حراس بلاطه بدقهم الطبول خمس مرّات في اليوم في جهات العالم الست أطباق الأرض السبعة، وسجدت الشمس طاعة له وهي ملكة على الكواكب السيارة، تمنح القمر ضياءه، وتسل سيفها الذهبي من غمد الأفق لتسخر به العالم،

---

(١) سورة مريم، آية ٤.

وخضعت له بكل هذه العظمة والإرادة، الذي كان يعبده شاه نيمروز(*) ـ لأنه يفيض بنوره على أجرام الفلك كلها ـ صار تابعاً له وأوصل حيث أبهته وعدله إلى أسماع المقيمين في العالم العلوي، وبدون مبالغة الإنسان يعجز عن وصف إتساع ملكه ورفعة شأنه، لأن أحداً لا يصف الفلك بالعلو، فقد كان سلطاناً عظيماً، صار في إرساء قواعد تعمير العالم عديم المثال، وبلغ في رعاية أصول الحكم غاية الكمال وكان آية في قمع الأعداء والأضداد، وفتح الأمصار والبلاد، وتحصيل أنواع المراد وكسر قلوب أهل العناد، وترفيه حال جمهور العباد، وقد كلف نفسه النفيسة مشقة السفر وتعب القتال أربعين عاماً حتى يجعل أبناء العصر مطيعين لأمره، وظفر بعروس المراد في كل ناحية توجه إليها لفتحها.

شعر:

لـم يـرم قـومـاً ولـم يـنـهـض إلـى بـلـد
ألا يــقــدســه جــيــش مــن الــرعــب

وقد استخلص مملكة غزنين التي كانت مقر السلطان محمود ذي العظمة والتمكين ولم يكن لأحد من آل سلجوق أمر نافذ فيها، ولم يكن يسري عليها أمر أي واحد منهم أو نهيه وأسند نيابة السلطنة في تلك (ص ٩٦) المملكة إلى بهرام شاه الغزنوي الذي كان ينتمي إلى أسرة السلطان الراحل

(*) نيمروز: معناها بالفارسية نصف يوم، اسم لولاية سجستان وناحيتها.

محمود السامية، ولما تمرد أحمد خان ـ الذي كان حاكماً على ولاية سمرقند ـ في وقت وفاة السلطان المرحوم بركيارق، ذهب السلطان سنجر في سنة أربع وعشرين وخمسمائة إلى باب سمرقند، وأقام هناك أربعة أشهر، حتى يحقق مطلوبه ومراده، وجعل زمام روح أحمد خان يستريح، ووضع لجان الأحكام على رأس ذلك العاصي الصعب اللجام، وصار نافذ الأمر في ملك خوارزم وسيستان(**) بقوة الأتباع، وشوكة الأشياع، وكانوا يقرأون الخطبة باسم السلطان على منابر العالم من حدود كاشغر إلى أقصى بلاد اليمن ومكة والطائف وعمان ومكران وآذبيجان إلى بلاد الروم والبلغار.

شعر:

كالشمس في كبد السماء وضوؤها
يغشي البلاد مشارقاً ومغاربا

وبعد عام كان فيه ذلك الملك يغير على عرصة السلطنة، ويجري حصانه في ميدان المبارزة، سقط بوجهه على التراب وأسلم ذلك الفارس الشجاع في القتال الروح فخطبوا في جميع ممالك الإسلام باسم سنجر وألقابه، ويقولون إنه لما أصبحت أرباع الآفاق وأصقاعه خت حكمه أخرج أمراء جيشه المحظوظون المظفرون يد التعدي من جيب القهر بحكم

(**) سيستان: تعني سجستان.

﴿أن الإنسان ليطغى إن رآه استغنى﴾[1] لأنهم كانوا يملكون أسباب الرفعة والظفر كما ينبغي ـ ولا يرون أحداً قط أكثر رفعة من جنابهم.

شعر:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعلة لا يظلم[2]

(ص ٩٧) وتعاهدوا معاً على الإغارة على أموال الرعايا، وإثارة فنون الفتن بين البرايا وظنوا أن الآية الخاصة بغصب أموال المسلم والمعاهد والمقيم والمجاهد منسوخة، وأحكامها مفسوخة، واعتقدوا أن وعد الله في قوله ﴿والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً﴾[3] برهان مهجور ودليل محجور، فجعلوا الظلم والاضطهاد شائعين وعامين في جميع ممالك الإسلام، فابتلى وتألم الخواص والعوام والكرام واللئام، والأنام في تلك الأيام بذلك البلاء بلا مانع، ولم يسلم الشريف والوضيع والرضيع والرفيع، من شر هذا الأمر وضرره ولم يجد إنسان منجى من هذا الحكم العام، ولم يكن لأحد مهرب من تلك المشقة لأن النسخ في مذهب

---

(١) سورة العلق، آية ٦.

(٢) شرح العتبي، ج١، ص ٢١.

(٣) سورة الإنسان، آية ٣١.

هؤلاء الظالمين من المحالات، والتخصيص من الممتنعات وأخذ مال المسلمين والمسلمات من المندوبات، والتعدي والتطاول على البنين والبنات من الواجبات، وكانوا يعدون التعاون في ارتكاب ذلك الأمر الحرام سبباً في استجلاب الآلام، وترك ذلك الأمر المحرم موجباً لاستحقاق الذم، واستمر هذا حتى شهور سنة ست وثلاثين وخمسمائة حينما توجه السلطان من دار الملك مرو لدفع جيش الخطا[*]، وتنظيم أمور الرعايا، ورفع الظلم عن البرايا ومنع جور الجند المليء بالبلايا وكان أهالي ما وراء النهر بعد أن تحملوا كل ألوان الظلم والجور مدة بأمل ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾[1] قد يئسوا، فأرسلوا في طلب جيش أجنبي، فلعلهم يستطيعون بحضوره أن يتخلصوا من تعدي جند خراسان «وهم أظلم من قاض».

(*) الخطا؛ ـ قبائل تركية سكنت شمال شرقي إيران وكونت دولة عرفت بدولة القره خطائية، ولما اتسعت هذه الدولة صارت تهاجم أملاك سنجر واصطدموا بجيش سنجر في معركة (قطوان) بالقرب من سمرقند سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م وكانت النتيجة أن انهزم سنجر ووقوع زوجته أسيرة بأيدي الخطا وكان لهذه المعركة أثرها السيئ في مصير سنجر وضعف دولته.

(١) سورة الطلاق، آية ١.

وفي الجملة استعرض قواد جيش خراسان بإشارة من السلطان جنودهم وكانوا يعلنون في أنحاء العالم أن ﴿جندنا لهم (ص٩٨) الغالبون﴾[١] ويدعون في ميدان الحرب قائلين ﴿إنهم لهم المنصورون﴾[٢] وأن سيوفهم الصقيلة القاذفة للهب يخرج الماء والنار من قلب الحجر والحديد، وأن ربات سيوفهم الزرقاء تذيب الحديد والحجر مثل الشمع والسكر في مواجهة النار والماء وكان الجيش يتكون من مائه ألف جندي كل واحد منهم له شجاعة يدّعي بها أنه مساو لرستم[٣] وهم جميعاً مقيدون في الحساب وفي الجريدة والكتاب، وتوجه رئيس الخطا الكافر إلى ما وراء النهر بجند من الأولاد المدللين المتزينين وكأنهم طرر مجعدة لجميلات الصين، بعدد كأوراق الأشجار وكالكواكب السيارة، ولما تشابك الطرفان في قتال وواجه كل منهم الآخر كالأبطال الذين لهم سطوة الأسود وكالتماسيح الذين لهم جرأة النمور، جاء لنجدة الخطا أربعون ألف فارس كانوا قد تعاهدوا معهم على الاشتراك في القتال وأرسوا معاً قاعدة الوفاق ووقعوا عهد الاتفاق وسدوا طريق المخالفة والنفاق بينهم، وجاء هؤلاء

---

(١) سورة الصافات، آية ١٧٣.

(٢) سورة الصافات، آية ١٧٢.

(٣) قائد فارسي انتصر عليه العرب المسلمون الفاتحون في معركة القادسية المشهورة، وقد قتله الأبطال العرب ليلة الهرير آخر أيام القادسية المجيدة.

جيش خراسان من الخلف، فأصيب جيش خراسان بهزيمة، وبواسطة هذه الهزيمة انتهى عهد الكمال بالنسبة لجلال السلطان، وقتل في هذه الواقعة ثلاثون ألفاً من الظالم والمظلوم والحاكم والمحكوم.

شعر:

فيوم علينا ويوم لنا

ويوم نساء ويوم نسر

وقال الملك تاج الدين أبو الفضل الذي كان مالك ملك نيمروز للسلطان من شدة الحزن والتأثر «إن المقام ليس مقام الشجاعة والثبات، ولا بدَّ من الخروج طوعاً أو كرهاً من وسط هذا (ص٩٩) الجيش الجرار».

شعر:

والناس كلهم في كل حادثة

فداء نعلك أن تغتالك الذلل

فهجم السلطان ومعه ثلاثمائة ألف فارس ـ يشرعون مخالبهم في وقت الحرب كالنمور ويكشرون عن أنيابهم كالتماسيح ـ على قلب جيش الكافر.

شعر:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم

طاروا إليه زرافات ووحدانا

وخرج من وسط جيش الكافر وتوجه لحصار ترمذ، وقد قال فريد الدين الكاتب في ذكر هذه الواقعة الهائلة الشعر التالي:

شعر فارسي ترجمته:

أيها الملك لقد استقام العالم بسيفك، وأقنص سيفك من الأعداء طوال أربعين عاماً فإذا أصابتك عين السوء فهذا أيضاً قضاء، فإن الله وحده هو الذي يبقى على حال واحدة وفي وقت صدمة هذه الكارثة، تمرد آتسز حاكم خوارزم، وتطاول في مرو ونيسابور، ونهب كثيراً من أموال المسلمين وخزائنهم الخفية، وبعد مرور عام على هذه الواقعة، جاء رسل من مختلف الأطراف إلى حضرة السلطان، واحضروا معهم أموالاً كثيرة وهدايا لا حصر لها، وتجدد رونق الملك، واستيقظ الحظ النائم، وصحت عين الحظ من النوم، وذهب السلطان بعد انتظام الأمور إلى الري، ويرجع ابن أخيه السلطان مسعود مسعود عن طريق بغداد وجاء إلى حضرة السلطان القوي الحظ، السامي في الرفعة كالفلك وأحضر معه تحفاً وهدايا لا حصر لها، وفي هذه الأيام القليلة، وصلت من قبل السلطان بهرامشاه بن سبكتكين(*) رأس سورى(**) الذي كان ملك الغور وتوجه كثير من الأطراف إلى حضرة السلطان، وقد نظم فريد الدين الكاتب هذين البيتين يوم تقديم الهدايا (ص١٠٠) وأنشدهما أمام السلطان.

(*) ورد في راحة الصدور للراوندي ص ١٧٥: بهرامشاه بن مسعود.

(**) سوري: يعني سيف الدين سوري بن الحسين ملك الغور.

شعر فارسي ترجمته:

إن الـــذيـــن نـــافـــقـــوا فـــي خـــدمـــتـــك

أضـــاعـــوا عـــمـــرهـــم هـــبـــاء فـــي الـــنـــهـــايـــة

فقد مات سام بالسرسام عافاك الله، وها هي راس سورى يجيئون بها إلى العراق وقد توقف السلطان في الري ستة عشر يوماً، ثم رجع بعد ذلك إلى خرسان، ولما مضى عام على هذا الموضوع، وانقضت مدة على هذه الحال: تمرد حسين(*) ملك الغور، واتفق معه جماعة من أتباع السلطان وتعاهدوا معاً، وانضم إليهم علي الجتري الذي كان السلطان قد رفعه من رتبة العبودية إلى مرتبة الحجابة، وانتشله من تراب المذلة، ورفعه إلى أوج العزة ولهذا قالوا في الشعر.

شعر فارسي ترجمته:

السحاب الذي يجلب ماء الحياة، ولا تشربه أبداً من غصن الصفصاف.

فلا ترفع وضيعاً أبد الدهر، لأنك لن تأكل السكر من عود الحصير.

(*) الحسين بن الحسين ملك الغور، وقد خرج على السلطان ومعه (علي الجتري) الأمير حاجب السلطان وصاحب قطاع هراة وقد تمكن الجيش السلجوقي من الانتصار وأسر ملك الغور الحسين وكذلك علي الجتري وأمر السلطان أن يشطر علي الجتري نصفين تحت العلم وأبقى الملك الحسين أسيراً لديه.

وجاء السلطان من ولاية مرو إلى ناحية هراة، وتقاتل مع جيش الغور، وساعده الحظ وناصرته السعادة، فقضى على عدوه بتوفيق الباري تبارك وتعالى ﴿فجعلهم كعصب مأكول﴾[(١)] وقتل علي الجتري[(*)] وأسر الملك حسين، ونظراً لأنه لم ينتصر في حرب بعد واقعة الخطا الكفرة، ولم يتحقق له فتح كما هو المتعارف، فقد سر وانشرح صدره بحصول هذا المقصود واسترجع ملكه رونقه الأول، واستقرت هيبة السلطان الغازي في قلوب المطيع والعاصي والأداني والأقاصي وزال سبب شماتة الأعداء، وانقشعت الفتنة والغوغاء.

وفي آخر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وقعت واقعة الغز (ص١٠١)، وقد ثقل العارفون بدقائق الأخبار والعالمون بغوامض الآثار صورة نزول ذلك العقاب العظيم وكيفية حلول ذلك العذاب الأليم أن الغز كانوا طائفة من التركمان يتخذون لهم قلعة في أطراف بلخ ونواحيها، وكان مقرراً أن يقدموا كل عام على التواتر والتوالي إلى خمسة وعشرين ألف رأس من الغنم لمطبخ السلطان الراحل، كما كان مقرراً أن يتم

---

(١) سورة الفيل، آية ٥.

(*) علي الجتري: فلك الدين علي الجتر حاجب السلطان سنجر وقد ثار على السلطان بتحريض من ملك الغور الحسين بن الحسين وبعد انتصار سنجر أمر بقتله والتخلص منه سنة ٥٤٤هـ.

تحصيل المال المقرر عليهم بواسطة خوان سالار، وأن يكون الأخذ والعطاء معه في هذا الأمر وكان هو يرسل كل عام محصلاً من قبله لهذا الغرض، وكان المحصل يتطاول عليهم ـ اعتماداً على أنه من ملازمي بلاط السلطان ـ ويحقر عظماءهم، وبلغ الأمر درجة جعلتهم لا يرسلون المال المقرر عليهم في سنة من السنوات ويقتلون المحصل فلما لم يرجع المحصل في الموعد المعهود، عرف خوان سالار إلى أية درجة بلغ الأمر ولكنه لم يجد مجالاً لعرض الموضوع، حتى جاء قماج والي بلخ إلى مرو، فذهب إليه خوان سالار وعرض الأمر عليه. فعرضه في حضرة السلطان فقال إن الغز قد تمردوا وأظهروا العصيان فلو ولاني السلطان حاكماً على هذه الطائفة فإني لن أدعهم يخرجون عن دائرة الطاعة والانقياد، ولن أدعهم يتعدون ويتطاولون، فقبل السلطان وعينه مسؤولاً عن هذا الأمر، فأرسل قماج نائباً من قبله إلى بلاد الغز، فلم يعظموا مبعوثه وقالوا: «نحن عبيد السلطان وحده ولا نمتثل لأحكام الآخرين» فرجع نائب قماج، وتوجه قماج بجيش جرار لقتال الغز، وتصادف أن قتل في الحرب.

شعر:

(ص ١٠٢) إذا لم يكن عون من اللّٰه للفتى

أكثر ما يجني عليه اجتهاده

فلما بلغ السلطان نبأ قتل قماج وجه ركابه المبارك صوب الغز، وعندما علم الغز بتحرك السلطان أرسلوا جميعاً رسولاً

إلى حضرة السلطان وقالوا: لقد كنا دائماً عبيداً مطيعين وقد امتثلنا الأوامر والنواهي وانقدنا لها، ولم يظهر منا عصيان في أي وقت، وإذا كان قد صدر منا على سبيل الخطأ جرح لقماج في ميدان الهيجاء، فابتلي بسهم واحد من قومنا فقتل بمقتضى القول المعروف «إذا جاء القضاء ضاق الفضاء»[1] فإن سلطان العالم يعلم أنه كان قد نهض للقضاء علينا، وصمم على قتالنا، ودفع الصائل لا يوجد مغرماً والبادئ أظلم، فلا يؤاخذنا السلطان بهذا الذنب، لأن كنا ندفع الصائل وليس عن عمد وقصد فلا يقتص من القاتل في هذه الحالة، لأننا سندفع دية مقدارها مائة ألف دينار ذهب ومائة غلام تركي، إذا وجد كل واحد منهم العناية، فإنه يفوق في المرتبة درجة قماج، وعلى هذا فإننا نلتزم بكل ما يأمر به السلطان، فقبل السلطان ما قاله الرسول، تطبيقاً للقول المعروف «العفو عند الاقتدار من علو الأقدار».

شطر شعر فارسي ترجمته:

كان يسمع النداء من الملائكة العلويين يدعو إلى العفو.

وتطبيقاً لقوله تعالى ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾[2] ولأن السلطان كان يرى في صحيفة الشرع آية ومن

---

(١) الميداني، ج١، ص ٩٨.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٤٣.

عفا وأصلح فأجره على الله[1] وكان يصل من عالم الروح ومن عالم الأسرار إلى أذن عقله هذا الشعر (ص١٠٣).

لـئـن نـقـطـع الأقـوام عـن كـل عـثـرة
بـقـيـت وحـيـداً لـم تـجـد مـن تـواصـل

بيت فارسي ترجمته:

«من بداية دوران العالم إلى زمن السلطان، كان العفو من العظماء والذنب من العبيد» فأراد السلطان أن يمنحهم مأمولهم، ولكن بمقتضى قوله تعالى ﴿وشاورهم في الأمر﴾[2] تشاور مع أمراء الدولة فصاحوا وقالوا: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾[3] وأن قبول العذر والحالة هذه يشل القانون فيسود الهرج والمرج في الدنيا، وتزول حشمة السلطنة دفعة واحدة، وإذا امتنع السلطان عن القتل والقصاص تزول حرمة دماء المسلمين وخروجهم ويباح ارتكاب كل أمر حرام، وقد قالوا من قديم:

شعر فارسي ترجمته:

الملوك يسفكون دماء ضد شخص من أجل مصلحة.

فلم ير السلطان من المرؤة أن يخالف الأمر بعد مشورتهم، فتوجه لقتال الغز، فلما اقترب منهم، قدم الغز أعزاء قومهم

---

(١) سورة الشورى، آية ٤٠.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

(٣) سورة المؤمن، آية ٨٥.

وفلذات أكبادهم أمامهم، واتجهوا نحو حضرة السلطان، وقالوا متضرعين ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾[1] وكان كل واحد منهم يقول على سبيل الافتقار والاعتذار هذا الشعر:

شعر فارسي ترجمته:

أغفر أيها السلطان حتى يجد ذنبي الأمان عند عفوك.

فأنا مسكين ذو ذنوب، وهذا هو اليوم الذي ينفع فيه عفوك.

(ص ١٠٤) وكانوا مستعدين لأن يدفعوا غرامة مقدارها مَنّ[2] من الفضة عن كل بيت حتى لا يسمح السلطان بقتلهم، ويلبسهم خلعة العفو وشفيع المذنب إقراره بذنبه وتوبته اعتذاره، فأراد السلطان من فرط رحمة السلطان وعاطفته الملكية أن يجعل ذنب تلك الطائفة نسياً منسياً، تطبيقاً للمثل القائل (دع المراء وإن كنت محقاً)[3] فأمسك الأمير مؤيد بزرك وعمر العجمي بعنان السلطان وقالا: القصاص مهم والشروع ملزم وبالغا في الترغيب في الذهاب لقتالهم، فلما وصل جند السلطان إلى مقصدهم وتهاونوا في القتال لأن الأمير مؤيد كان عدواً لهم، وتقاعسوا عن إظهار الشجاعة

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٨٦.

(٢) المن= ٢٤ كيلو.

(٣) الميداني، ج٢، ص ٢٤١.

وجاء الغز مثل الأسود الهصورة إلى ميدان القتال للدفاع عن أرواحهم وديارهم، ولما لم تقبل شفاعتهم، ولم توصل ريح العناية رائحة العطف والعفو إلى مشامهم، فإنهم صمموا على العصيان، واتسموا بسمة الطغيان والكفران، وآخر الدواء الكي، وقال كل واحد منهم للآخر البيت التالي:

بيت شعر فارسي ترجمته:

فعلنا كل حيلة جاءت في تصور العقل، والآن جاء وقت الجنون.

وفي الجملة فإن جيشهم العرمرم حطم جيش السلطان الأعظم في وقت قصير بسرعة خاطفة ولهذا قالوا شعراً[(١)].

شعر فارسي ترجمته:

إذا جئت إلى الحرب خائفاً أيها الحكيم، تفشل ولو جئت ومعك المئات، ألا ترى أن القطة الضعيفة، تستطيع بمخالبها أن تخلع عين النمر.

(ص ١٠٥) ولما انهزم جيش السلطان، واختل انتظام الأمور ونظامها في السلطنة جاء الغز في أثر المهزومين، فوقع خلق كثيرون لذلك السبب في دوامة الندامة وغرقوا في النهر، وراعى الغز حرمة السلطان بمقتضى القول المعروف «الحر حر وإن مسه الضر» وأحضروا السلطان إلى دار الملك

---

(١) كليات سعدي، ص ٥٨.

مرو، بدون أن يلحقوا به أذى وجعلوا جماعة من قومهم يحرسونه ويلازمونه، فشرب السلطان جرعة الندامة من يد ساقي قهر الدهر، وسقط دوامة الحسرة.

شطر شعر فارسي ترجمته:

صارت المحنة حارسة لسنجر مالك الرقاب.

وأخرج قوم الغز يد السطوة من جيب القدرة في مدينة مرو التي كانت منذ عهد جغرى بك إلى زمانهم مقر السلاطين الماضين وخزائن الملوك السالفين.

شعر:

بـــلـــد طـــيـــب ورب غـــفـــور
وتـــرى طـــيـــبـــه يـــفـــوق الـــعـــبـــيـــرا
فـــإذا الـــمـــرء قـــدّر الـــســـيـــر مـــنـــه
فـــهـــو يـــنـــهـــاه بـــاســـمـــه أن يـــســـيـــرا

ونهبوا النفائس والدفائن والذخائر والخزائن لكل مقيم ومستوفر ومحسود وحاسد وقاصد ومقتصد، واغتصبوا متاع كل غني وفقير وكبير وصغير وفاضل، وراجح ومرجوح، ومن آثار دمار ذلك الجيش المتوحش في تلك الربوع والديار أن الأغنياء سقطوا من مسند العز مثل صديق المعشوق العديم الوفاء ووقعوا في قيد العجز والعوز وأصبح أمر المنعمين المرفهين مضطرباً مثل طرة المعشوقة الجميلة الآسرة للقلوب، وانكسر الفقراء من تلك الواقعة وجرحت قلوبهم، وصار الأغنياء أصدقاء الفقراء ومن أهلهم.

بيت فارسي ترجمته:

(ص ١٠٦) يخيل إليك أن كل تلك العظمة والأبهة لم تكن يوماً.

وأن تلك الدولة المترامية الأطراف لم تقم يوماً.

شعر:

هـذي الـديـار فـأيـن نـور بـدورهـا
أيـن الـشـمـوس الـمـشـرقـات بـدورهـا

ولما شبع الغز من نهب تلك المنطقة والإغارة عليها، توجهوا إلى نيسابور، وكان أهل الإقليم في البداية قد قاموا لردّ الغز وأخذ الثأر منهم، وأرسلوا عدداً من دار البوار، ولكن الهزيمة حلت بأهل نيسابور في عاقبة الأمر، فالتجأوا إلى المسجد الجامع، وكان الغز الكفرة قد فرغوا من الكر والفر، وصار كل واحد منهم زعيماً رفيع القدر، فشرعوا سيوف القهر، وقتلوا كل من كان في ذلك المسجد من شيخ وشاب وعجوز وشابة وأمي وكاتب ومذنب وتائب ومتمرد وطائع، وغني وجائع وخامل وذائع وكامل وضائع وفقير ومسلم وكافر وقاعد ومجاهد ومؤمن ومعاهد فجرى من دماء المقتولين نتيجة للأفعال الذميمة لهؤلاء الضالين نهر مثل نهر جحون.

شعر:

حـتـى تـركـن الـمـاء لـيـس بـطـاهـر
والـتـرب لـيـس يـحـل لـلـمـتـيـمـم

وكثيراً ما دفنوا رجالاً ونساء بقوا في عاصفة البلاء بلا كفن بآلاف الأنواع من الحسرة والمحن في هذه الواقعة الشنيعة، وكثيراً ما بقي سكان منازل الفضل والغنى والمتوطنون في معهد العز والعلا والسادة الرفيعو القدر، والأتباع الأوفياء والمعشوقات الجميلات والعشاق المتيمون من تلك الفتن بلا كفن وبلا مدفن.

شعر فارسي ترجمته:

(ص ١٠٧) الوجه الذي لم يؤذه ظل جناح ذبابة، والشفة التي كانت تريد أن تقبل نفسها اخترق هذا الوجه حد السيف فلوَّثه. ولوّث تلك الشفة فم الكلب وانتهى ولم يكن للوجه فائدة من العدة والجيش، ولم يكن لتلك الشفة نفع من الذهاب والعودة ذلك اليوم الذي كان مشحوناً بالحوادث العظام مليئاً بالبلا والنوائب الجسام، وغطى الليل بردائه الأسود على رؤوس من نكبتهم الأيام مصداقاً لقوله تعالى ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾[1]، وكان الأمل أن يغمد هؤلاء اللئام الأشرار سيوفهم حتى طلوع الصبح الصادق، غير أنهم أشعلوا ناراً مهولة في أطراف المسجد الأربعة، فاستمرت النيران مشتعلة في الأخشاب المذهبة المدهونة والأعمدة المنقوشة بنقوش بديعة متنوعة حتى النهار، وكانت شرارات

---

(١) سورة الفرقان، آية ٤٧.

النار تضيء كل باب وكل جدار في تلك الديار، وكان الغز ينهبون ويغيرون حتى الصباح على ضوء النار وإنارتها، وكانوا يقتلون الناس على أبشع الوجوه، وينهبون أموال المقتولين الشهداء والمقبولين في حضرة ذي العرش المجيد، وأقاموا مدة في المدينة وكانوا يتجولون في المدينة في أثناء النهار المضيء، ولو وجدوا في ظلمة الليل بقايا أناس هربوا في مكان بعيد أو أحداً بين الحياة والموت أمسكوهم جميعاً وقتلوهم، وإذا كان بقية أهالي تلك الناحية قد بقوا على قيد الحياة فلم يقتلوا حتى الآن، فلأنهم كانوا يهربون في أثناء النهار ويختبئون في الآبار والقنوات المهجورة القديمة ويقضون اليوم غرقى الألم والمحن، ويخرجون في أثناء الليل حينما يذهب الغز إلى الصحراء (ص١٠٨) ويذهبون إلى منازلهم ومقامهم، ويتفقد كل منهم منزله فيجد أنه لا داعي فيه ولا مجيب.

شعر:

هـذي الـمـشـاهـد والآثـار والـطـلـل

مـخـبّـرات بـأن الـقـوم قـد رحـلـوا

وصار مجلس العشاق المغمومون المحرومون مقبرة للشهداء والمظلومين المرحومين وأصبح مجمع الأصحاب الأوفياء منزلاً ومضجعاً للموتى والقتلى بعد أن كان هؤلاء يجلسون في محفل الأمير، أما كاتب الأمير فإن يد التدبير جعلته يضع

رجله على بساط العدم، وصارت مدارس العلماء مدروسة، ومعالم الفضلاء منكوسة، وأصبحت كواكب إقبال كل منهم مطموسة وبهجة حال كل شخص معكوسة، وكان كل منهم يقول للآخر هذا الشعر:

لا أنت أنت ولا الديار ديار

بيت شعر فارسي ترجمته:

انظر أجساد ملوك العالم تتمنى الأكفان، تتساقط فوق بعضها أكثر حقارة من التراب، وقتل هؤلاء الكفرة الظلمة في هذه الواقعة شيخ الإسلام وقبلة الأنام سهيل يمن اليمن، وشِعْرَي شام الصدق المهتدي إلى سبيل النجاة، المرتقي إلى عوالي الدرجات عبد الرحمن الأكاف(١) الذي كان نسر فضاء الزهد والمعرفة وعنقاء قاف التقوى والولاية، الولي المشهور، ووالي حضرة الله القدير، كما قتلوا مولى أكابر الأيام ورافع راية الإسلام تاج الشريعة وكاشف رياح الحقيقة المرتجى من الله أن يكرمه في الآخرة كما أعزه في الأولى محيي الدين محمد بن يحيى(٢) الذي كان يحمل على إحياء العلوم العقلية

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الصمد أبو القاسم ابن الأكاف، ذكر ابن الجوزي أنه توفي سنة ٥٤٩هـ، المنتظم، حـ٩، ص ١٥٩.

(٢) محمد بن يحيى أبو سعد النيسابوري ـ رئيس الشافعي بنيسابور في عصره تفقه على الغزالي ودرس بنظامية نيسابور، قتله الغز لما استولوا على نيسابور سنة ٥٤٨هـ.

وترجمة الأحكام الشرعية، وكان في شرح معالم التنزيل يتساوى مع البغوي[١] محيي السنة، وكان يضارع جار الله الخوارزمي في كشف أسرار التأويل وكانت مقاماته الحميدة جميلة مثل كلمات (ص١٠٩) البديع الهمداني[٢] ومقالات الجريري[٣] ومقامات الحريري[٤] وعباراته الرائقة وإشاراته الحكيمة كإشارات آصف مثل استعارات اليميني وعوارف معارف اليقيني مرغوبة، وكان محصول عمره أحكام أصول الدلائل الشرعية، وإنتاجه تحرير مباحث فروع المسائل الفقهية، وبيانه مفتاح توضيح اللطائف النقلية، وبنانه واسطة تنقيحات الإشارات العقلية. تغمدهما الله بغفرانه وأسكنهما فسيح جناته، وقد هلك في تلك الحادثة التي كانت صفتهما ﴿واتقوا فتنة لا نصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾[٥] هذان

---

(١) البغوي ـ الحسن بن مسعود بن محمد الغراء، فقيه، محدث، مفسر نسبته إلى بغا من قُرى خراسان، توفي سنة٥١٠هـ.

(٢) البديع الهمداني «أحمد بن الحسين»، صاحب مقامات الهمداني والمتوفى سنة ٣٩٨هـ.

(٣) الجريري: أحمد بن الحسين من كبار أصحاب الجنيد البغدادي كما صحب أبا عبد الله التستري، توفي نسة ٣١٠هـ ببرداد.

(٤) القاسم بن علي بن محمد صاحب المقامات المشهورة والمتوفى سنة ٥١٦هـ.

(٥) سورة الأنفال، آية ٢٥.

العالمان العظيمان في أمور الدين، وهذان الشخصان المنقطعا القرين، على أيدي هؤلاء الملاعين.

بيت فارسي ترجمته:

ارتفع ضجيج من العالم بأن حلّ البلاء، فارتفع صراخ من الخيمة والصحراء ومن شدة تلك الواقعة الشنيعة نقل أشراف أقاليم علوم التواريخ أنه لما ذهب قوم الغز من تلك الديار ولم يكن قد بقي من أهل نيسابور إلا بضعة أشخاص معدودين كانوا يحقدون الواحد منهم على الآخر حقداً دفيناً بسبب اختلافهم في المذهب وتباينهم في المعتقد فكان واحد يتمم الآخر بأنه ساه مبطل فيتهمه الثاني بأنه مخطئ مضل، وكان كل واحد منهم يذهب ليلاً إلى محلة الآخر فيشعل النار في مقام السني والمتشيع.

بيت فارسي ترجمته:

هذا يضرب ذلك بمخلبه، وذلك ينقر هذا بمنقاره فغرقت تلك المدينة الصحيحة الأديم العليلة النسيم الضاحكة التراب الباكية السحاب بشؤم هذه الفتن العظيمة كما تغرق السيول الأرض المرتفعة، وبلغ حصول الكارثة في ذلك المتنزه (ص١١٠) العامر الذي كانت قصوره تعكس صورة من ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾[١].

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٥.

شعر فارسي ترجمته:

وكان لونه يشبه السماء الزرقاء الصافية، وكان هواؤه مثل النسيم المنعش للروح وقد منحت النسيم لتربته لطافة طوبى، ووهب الهواء لمائه حلاوة[١] الكوثر وكان مجمع الأكارم ومنبع المكارم، ومرحلة قافلة النزهة وقبلة أرباب الفرحة يتوجه إليه طلاب كل يسير وعسير ويقيمون فيه، ويقول القاطنون فيه لبعضهم حين الرحيل منه هذا الشعر:

بيت شعر فارسي ترجمته:

من له زهرة أوتيت من العنبر ما يمكنها من أن تقول كلاماً في وداع نيسابور.

وبلغت درجة المصيبة حداً أن المدينة فقدت ميزتها فلا المجاور يستطيع أن يستظل بظلها ولا المسافر صارت ملجأ له يستطيع أن يلجأ إليه وقت الحاجة فكان الشعر التالي ورداً على لسان كل واحد من المظلومين في كل زمان.

شعر فارسي ترجمته:

ليست لي مسكناً ولا مأوى ولا منزلاً ولا مقاماً، وليست لي مؤنساً ومحرماً وصديقاً ونديم.

إن حسرة أصحاب البلاء عظمي على قلبي، وفرقة الأحباب عذاب أليم على جسدي حتى ليخيل إليك أنني أنا

---

(١) طوبى والكوثر من معالم الجنة.

المسكين سأسقط حسرة، حينما أرى مثل هذا التعب والمشقة من مكان الإلفة والنعيم.

لقد صارت مساكن الوزير والكاتب مهدمة، وأصبح عاليها سافلها، وأضحت منازل الأمير بلا سقف أو باب، وسقطت البيوتات القديمة، وصارت جنات النعيم خربة ﴿عاليها سافلها﴾[1] وبعد حدوث هذه الحادثة وحلول هذه الواقعة، أصبح الباقون من أهل نيسابور مبتلين بالجوع ويخيل إليك أن آية ﴿لنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾[2] (ص١١١) نزلت في شأنهم وصورت آية ﴿وأخرجناهم من جنات وعيون وزروع ومقام كريم﴾[3] حقيقة حالتهم المضطربة التي تدمى القلوب.

شعر:

قـــد أصـــبـــح الـــنـــاس فـــي غـــلاء

وفـــــي بـــــلاء تـــــداولـــــوه

واشتد فيها الغلاء، وراجت فيها إلى أبعد حد ـ سوق العناء، بحيث إنه لو كان واحد قد نجا من شر جيش البلاء أو كان مجهول الاسم نجا من صدمة قهر هؤلاء الكفرة فإنه كان يتشبث بأذيال الموت ويحسد الموتى ويقول هذا الشعر:

---

(١) سورة هود، آية ٨٢.

(٢) سورة البقرة، آية ١٥٥.

(٣) سورة الشعراء، آية ٥٧.

فيا حسداً مني لمن يسكن القبرا

وقد عزت الجنة حتى نسي المحب الأحبة، وقد اتبع الغز في ذلك الوقت ـ هذا الأسلوب مع أكثر أهالي بلاد خرسان، واتحد معهم الأوغاد والأوباش وأشرار الناس، وبقي السلطان سنجر عامين في وسط هؤلاء القوم الماكرين، وفي النهاية ضم مؤيد الذي كان من الوزراء ـ جماعة من الغز إلى جانبه، وكان مشهوراً بوفور الشهامة وبعد النظر، وكان ممتازاً في تفكير ليس في حاجة إلى إرشاد مرشد وشيخ، وركب مع هؤلاء الغز بحجة الذهاب للصيد على الطريقة المعتادة، وكان قد رتب من قبل عدداً من المعابر وأعدها في مقابل ترمذ، فعبروا جيحون ووصلوا إلى قلعة ترمذ ونجوا من تحكمات كل مدبر، ولما بلغ صوت الفوز بهذه الفرصة ونبيل هذه الموهبة سمع الجند تجمعوا، واجتمع الأمراء المتفرقون «كائنين القصائد في الضمائر والعقائد» وتوجهوا مشياً على الأقدام إلى حضرة سلطان الإسلام، وتوجه السلطان إلى دار الملك الري ونظراً لأنه رأى الخزائن خالية (ص١١٢) والممالك عارية من الرونق والعمارة ووجد الرعاة منتشرين والولاة منكسرين والمملكة مسمرة وصحيفة السلطنة مبترة، فإن الأفكار القاتلة سيطرت عليه واشتعلت نار الحزن في داخل نفسه وروحه فظهر عليه المرض الذي كان آخر الأمراض وبنفس الأعراض، واشتد عليه المرض، وكانت أسبابه وعلاماته واضحة، ولم تكن الطبيعة قد علمت طبيب

الأزل نهائياً طريقة شفاء تلك الأمراض، ولم تلقنه وسائل علاج هذا الداء، فعجز عن معالجته، فتغلب عليه المرض الذي لا دواء له وحطم جسده وروحه، ونهض الموت الذي يقبض الأرواح بدون محاباة لاسترداد بضاعته وقد قبض قبل ذلك مئات الآلاف مثل سنجر وقيصر ودارا والإسكندر وألقاهم في حربه معهم في محبس العدم كما قضى على كثيرين من أمثال كيقباد وقباد وخسرو فرهاد[1] فصرعهم في أثناء مبارزته معهم ونثر عليهم تراب الفناء، فلم يسترح إلا بعد أن قضى على وجود سنجر واجتثه من جذوره.

شعر:

مولى سلاطين الأنام لقد مضى

وبفوته للملك ضاق الحنجر

قد نال من دنياه خمس أذرع

من بعد ضبط الممالك سنجر

ويموت ذلك السلطان العادل وذهاب ذلك الملك الكامل فتحت الفتنة عينها كالنرجسة وتجاسرت وصار العدل المعتدل المزاج كالبنفسج أسير الحسرة والأسى، وكان نداء يصل من منافذ السماء فيبلغ سمع الأنس والجان يقول:

شعر فارسي ترجمته:

يا سلطنة مثل الصباح مزقي الثوب حتى الناف، ويا مملكة

---

(١) ملوك الفرس الأقدمين.

مثل الليل قطعي الشعر حتى الكتف ويا تاجاً لقد انفرط عقد الملك فتمرغ في التراب، ويا حظاً لقد تحطمت كأس الشاه فاشرب السم.

وكان مسقط رأس السلطان سنجر مدينة سنجار(*) في بلاد الشام وكان وقت ولادته شهر رجب سنة (ص١١٣) تسع وسبعين وأربعمائة، وكانت مدة عمره اثنتين وسبعين سنة وبضعة أشهر، وكانت مدة حكمه واحداً وستين عاماً، عشرين عاماً في ولاية خراسان من قبل أخيه، وواحداً وأربعين عاماً في ممالك العالم، ووزراؤه هم شهاب الدين أبو المحاسن ابن أخي السيد نظام الملك الطوسي، وشرف الدين أبو طاهر القمي وطغانبك الكاشغري ومعين الدين أبو نصر الكاشي، وصدر الدين أبو إسحق بن نظام الملك وابن أخيه ناصر الدين طاهر بن فخر الملك ونصر الدين محمود أبي توبه(١) وقوام الدين، أبو القاسم الطغرائي وكان توقيعه: ومن يتوكل على الله كفاه.

(*) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، الآن من العراق في محافظة نينوى.

(١) وردت هكذا والصحيح أبو توبة.

السلطان مغيث الدين محمود بن محمد ابن ملكشاه يمين أمير المؤمنين

كان للسلطان محمود طالع مسعود وصفات محمودة. ووجه جميل وسيرة مرغوبة وبيان مليح ولسان فصيح، وكان طبعه اللطيف داركاً لكل مشكلة، وكان رأيه الرزين فكاكاً لكل معضلة، وكان يحفظ إيراد الديوان وخرجه ويضبطه بقلمه، وكان لوح ضميره المنير جامعاً لحساب المملكة، وكان الحكم مع الحكم والحلم مع العلم متقاربين في ذات ملك صفاته، وكان الفضل مع السخاء والشرف مع الشجاعة متلازمين عنده.

شعر:

هو الدين والدنيا هو اللفظ والمعنى هو الذروة العليا هو الغاية القصوى ولكن عمره الغالي الذي هو رأس مال الأماني وعنوان كتاب التوفيق ـ يساعده (ص١١٤) كما أن الحظ لم يعاضده، فقبل أن تتفتح عن نسر مراده وتسفر عروس ملكه عن وجهها كاملاً ذهب من الدنيا.

شطر بيت شعر فارسي ترجمته:

لف رأسه في كفن الموت ورحل

ويقولون إنه كان يداوم مباشرة النساء، وكان يحب المباشرة إناء الليل وأطراف النهار فلما تجاوز مرتبة الاعتدال إلى حد الكمال اتجهت قوة النفس نحو النقصان، فظهرت عليه أمراض مزمنة كان علاجها عسيراً، فدفع روحه الغالية ثمناً لهذا الولع بالمباشرة، ورب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً، وكان جلوس هذا السلطان العظيم الحظ في شهور سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وكان مقر عرشه وقصره في بغداد وأصفهان وكانت بينه وبين أمير المؤمنين المسترشد بالله مخالفة ومضادة وعداوة ومخاصمة فتوجه مرتين إلى باب بغداد، واستولى عليها، ولما جاء السلطان المشهور سنجر إلى العراق وقعت بينه وبين السلطان محمود حرب وكان محمود محسود الأقران مغبوطاً من أهل العالم، وانهزم محمود في آخر الأمر، واتخذ طريق الفرار، وبعد ذلك تحركت في السلطان سنجر عاطفة العطف على الأهل، ونداء القرابة واللحمة، فاستدعى محموداً، وخصص له حكومة العراق وزوجه ابنته ما هملك خاتون، فقوي أساس القرابة القديمة بالمصاهرة الجديدة، ويقولون إن السلطان محمود كان له خدم كثيرون، ونظراً لأنه كان يقضي أكثر أوقاته في الحرم المحترم، فإن هؤلاء كانوا يرفعون ظلامة المظلومين ويعرضون قصة غصة المحتاجين، فوصل كل منهم إلى المراتب العوالي ومناصب الأعالي فاطلعوا على النقير والقطمير والقليل والكثير من أحوال الديوان. وكانت ولادة السلطان (ص١١٥) في الحادي

والعشرين من شوال سنة تسع وتسعين وأربعمائة وكانت مدة عمره سبعة وعشرين عاماً، ومدة ملكه أربع عشرة سنة، ووزراؤه هم ربيب الدولة أبو منصور القيراطي وكمال الدين السميرمي وشمس الملك عثمان بن نظام الملك وقوام الدين أبو القاسم وأنوشيروان بن خالد الكاشي، وكان توقيعه «اعتصمت بالله».

السلطان ركن الدين أبو طالب طغرل ابن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين

كان السلطان طغرل ممتازاً بين سلاطين عصره بالعدل والشجاعة والبذل والسخاء وكان مستثنى من بين ملوك العالم بالخلق الرضي والكرم الجبلي، ولا يجتنب الهزل والملهيات والفواحش والمنهيات، وكان يعد التأني والوقار في جميع الأعمال من الواجبات بمقتضى القول المعروف «لا يوجد العجول محموداً» وكانت آيات عدله ناسخة لقصص أفريدون، ونسخت حكاياته قواعد أنصاف أنوشيروان وحبه للعدل ورفع قدر الدولة من مدارج العالم السفلي إلى معارج العالم العلوي وقد أسند السلطان سنجر الذي كان عمه ولاية العهد إليه رعاية لحقوق القرابة ومحافظة على مراسم الاتحاد، وجعله نائباً عنه وأسند إليه عنان العقد والحل في كليات الأمور وجزئياتها في طول ممالك بسيط الأرض وعرضها، فلما رجع من مقابلة السلطان، وجاء إلى العراق ظهرت خصومة بينه وبين أخيه مسعود نتيجة للحسد الذي هو من لوازم الملك وسوابق (ص١١٦) الحقد الذي هو من خصائص القرابة فتلاحقت هذه الأشياء فقاما لوضع أساس العداوة،

ورفع قاعدة الاتحاد من بينهما، وكان الدهر الغدار ينصر طغرل يوماً، ويمنح أخاه طالعاً مسعوداً يوماً آخر، فيتنكس علم إقباله، وأحياناً أخرى يصير جند مسعود وحشمه أذلاء يلوذون بالفرار، ولكن الفتح الأصلي والظفر الكلي كانا في آخر الأمر لمسعود، فبلغ المراد والمقصود، ونادى منهي التقدير بقول الشاعر:

إذا لم يعنك الجد فالجد باطل
وسعيك فيما لم يقدر مضيع

بيت شعر فارسي ترجمته:

العظمة لا تتحقق بالجهد
ما لم يحالفه الحظ الحسن

وأبلغ هذا النداء إلى سمع طغرل، فانكسفت شمس عمره في مدينة همدان في شهر المحرم سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وانخسف قمر جاهه، ورحل إلى روضة الرضوان وقصور الجنان.

بيت شعر فارسي ترجمته:

أخذ الفلك اللقمة من فمه وألقاها في التراب، وأحضر الحظ القدح أمام شفته ثم أراقه ولم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين، ولم يستقر على عرش السلطنة أكثر من ثلاث سنوات، ووزيراه هما قوام الدين أبو القاسم وشرف الدين علي بن رجاء، وكان توقيعه «اعتضدت بالله وحده».

السلطان غياث الدين أبو الفتح مسعود ابن محمد قسم أمير المؤمنين

كان السلطان مسعود رئيس ملوك العجم، وقدوة حكام الأمم، وكان مقدماً على خلق العالم بقوته وشوكته، وكانت فيه سخاوة يعجز القلم عن شرحها ولا يدخل ذكرها في حيز الفهم، وكان يساوي أفريدون في المرؤة والفتوة، ويتساوى مع حاتم الطائي في الكرم، وقد تيسر له إحياء قواعد خيرات معن بن زائدة ويحيي البرمكي، وتهيأ له الاقتدار بمآثر ومكرمات دارا وكسرى.

بيت شعر فارسي ترجمته:

هو الذي يمنح الملك بسؤال واحد، ويأخذ الملك بحملة واحدة.

وكان يقسّم الأموال وعائدات المملكة على الخيرين الموجودين في حضرته ولم يجد ويجتهد في جمع المال وإدخاره، فكانت خزانته في أكثر الأوقات خالية من النقود والحل والجواهر واللآلي، وما كان يرسله عمال النواحي من المال المقرر إلى الخزانة السامية، كان يمنحه في الحضرة العالية للأصاغر والأعالي، وكان لا يؤمن بإدخار المال

ذخيرة تطبيقاً للحديث «بشِّرْ مال البخيل بحادث أو وارث»[1].
وكان يعد الإمساك والبخل أمراً محرماً بمقتضى القول المشهور: «البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار» وبهذه الطريقة كانت أمور حضرة ذلك السلطان مقبلة.

بيت شعر فارسي ترجمته:

أراد السحاب أن يقول لكف الجواد أنت سخي، فقال الفلك لا تقل سخياً، إنه السخاء نفسه، وكان يطبق هذا البيت في سلوكه، وكان أمر مملكته وفق المرام دائماً، ومع وجود هذه الخصائص والمناقب التي كانت مضيئة كالشهاب الثاقب كان له أنس عظيم مع طائفة الدراويش وكان يحترم المنكسرة قلوبهم الصادقي الإيمان ويوقرهم ويعظمهم، تطبيقاً للقول القدسي المعروف «أنا عند المنكسرة قلوبهم» وهو على حق بدون ريب.

بيت شعر فارسي ترجمته:

الناقدون البصيرون يفضلون المنكسرة قلوبهم، والمستقيمة قلوبه لا يحبون الملونة وجوههم.

وكان دائماً ينصح نفسه المتمردة بهذا الشعر:

بيت فارسي ترجمته:

إذا أردتِ التكبر فذلّي للسادة، وإذا أردت التواضع فكوني مع

---

(1) حديث شريف، مسند ابن حنبل، حـ**٣**، ص **٣٢٤**.

الدراويش. وكان يعظم علماء الأيام وفضلاء الأنام ويحترمهم احتراماً عظيماً تطبيقاً للقول المعروف «أكرموا العلماء فإنهم ورثة الأنبياء فمن أكرمهم فقد أكرم الله ورسوله» وكان يعد تفخيمهم وإكرامهم من اللوازم وكان مثل ليلى يصادق ويحب كل مجنون غائب عن وعيه، تطبيقاً للحديث «إن أكثر أهل الجنة البلهاء»(١) وكان يصاحب ويميل إلى كل شيخ سكر من شراب المعرفة، وشراب المعرفة هو شراب وكل شراب دونه سراب، ولم يكن مجلسه يخلو من الندماء الطيبي البيان، والظرفاء ذوي العذوبة في اللسان، وكان لا يمنع الهزل والمطايبة، والمزاح في الكلام كالملح في الطعام.

ولما أمسك متقاضي الأجل بذيل أخيه طغرل، وحمله من الدار الدنيا إلى مسكن العقبى، كان السلطان في بغداد فطلب أمراء العراق منه أن يجيء ويجلس على عرش المملكة، ونظراً للنزاع الذي حدث بين الأخوة بنزْغٍ من الشيطان فإن أمراء طغرل الذين انهزموا من السلطانِ ذي الحظ المقبل (ص١١٩) طلبوا السلطان داود أيضاً من تبريز، ولكن توفيق الله أمد السلطان مسعود وساعده الحظ، وجاء في مدة أسبوع من بغداد إلى همذان، فأظهر الأمراء له الولاء

---

(١) حديث نبوي، ورد في كشف الخفاء، حـ١، ص ٤٦٤ (أكثر أهل الجنة البله) رواه البيهقي والبزار والديلمي والخلعي، انظر إحياء علوم الدين، حـ٣، ص ٢٣.

بحكم الضرورة، وجلس على العرش وبدأ يظهر الصداقة والتودد لداود، وأسند إليه ولاية العهد، وجعل ابنته كهر خاتون تحت سلطانه، ونظراً لأن داود والأتابك قره سنقر كانا عند سماع نبأ وفاة طغرل قد تعاهدا على خدمة أمير المؤمنين المسترشد بالله وكتبا له رسالة قالا فيها: «إذا أراد الخليفة أن يغزو دولة العراق وخراسان فنحن عبدان له نخلص في طاعته ونخرج يداً بيضاء في معاونته ومعاضدته ومساعدته ومناصرته» فإن الخليفة خرج من بغداد لأداء هذه المهمة فلما عبر من دينور وصل السلطان إليه على رأس جيش كبير، فانهزم أمراء الخليفة وولوا وجوههم صوب طريق الفرار والهزيمة، فأرسل السلطان حاجبه الخاص حتى يقدم لأمير المؤمنين فروض الطاعة والولاء، ويرتب للخليفة كل ما يتعلق برسوم الخلافة، ويتوجه معه صوب آذربيجان، فلما وصلا إلى حدود مراغه طعن فراعنة الملاحدة الخليفة بسكين وجعلوه شهيداً فلما وصل نبأ هذه الواقعة إلى ابنه الراشد اجتمع حوله جند أشداء بسرعة كبيرة وأبطال يفوقون شجاعة بهرام في وقت القتال وكانوا مشرعين أسلحتهم وجاهزين للنزال، وقاموا مطالبين بالثأر، وجاء السلطان إلى بغداد ومعه أتباع كثيرون فهرب الراشد إلى أصفهان تطبيقاً للمثل «لا يجتمع السيفان في غمد واحد» ولما جاء في الشعر:

شطر من بيت شعر فارسي ترجمته:

وجود ملكين في ولاية يسبب اضطراباً.

وحاصر المدينة (ص١٢٠) وتصادف أنه كان قد حدث في ذلك العام قحط شامل وغلاء هائل، وارتفعت الأسعار إلى درجة أن البائع من شدة ظلمه كان يزن حبة القمح بعد توسل وضراعة كثيرة إليه ـ بحبة من اللؤلؤ، ويبدل بتلك وزناً بوزن، ويبدل حبة الشعير ـ بعد كثير من الصياح والنفير ـ بحبة من الكافور، فصار سعر الشعير عالياً في درجة الشعرى وأصبحت سنابل السماء تحسد سنابل الأرض، فاشتعلت النار في بيدر روح وجسد كل رجل وامرأة، وارتفع الدخان من كل أسرة، وأراقت واقعة انعدام الخبز ماء وجه كل إنسان وسوت وجهه بالتراب، فكان الأعزاء القانعون يتحدثون عن الغنى تطبيقاً للقول المعروف «والعز لمن قنع» ويقضون أيامهم مطبقين ما جاء في المثل «القناعة مال لا ينفذ» فلا يلتجئون إلى كل زيد وبكر ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾(١) وأصبحت البلاد في تلك السنة التي حلّ فيها القحط ينطبق عليها قول الله تعالى ﴿كأن لم تكن بالأمس﴾(٢)، وصار الأغنياء عباد الدنيا الذين كانوا قد اجتهدوا مدة في تحصيل المال وتكثير المنال، وألقوا طائر النفس طمعاً في الحبة في شراك البلاء بسبب هذا الغلاء بلا مال ولا ثراء، وعلى هذا بلغ أمر هذه الداهية والحداثة الشنعاء إلى غاية فترت فيها

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٧٣.

(٢) سورة يونس، آية ٢٤.

عواطف بني آدم لحظة بعد لحظة بسبب انعدام القمح والطعام وامتلاء قلوبهم بالآلام، فكانت الأم الجائعة تأكل ابنها الضعيف، وكان الأب الشفوق يأكل ابنه فلذة الكبد ونور البصر وكأنه شهد وسكر، وفي هذه (ص١٢١) السنة قتل واحدٌ من الملاحدة الخليفةَ الراشد وأمر السلطان البيعة للمقتفي أخي الراشد[١] وأجلسه على مسند الخلافة، ولما ذهب في السنة التالية إلى مدينة السلام عين محمداً[٢] المسؤول عن الخزانة خازناً للأسرار وأسند إليه الوزارة، ونظراً لأنه كان رجلاً دقيقاً مشفقاً يريد أن يظهر أثر كفاءته وكياسته فإنه حرم أمراء الحضرة من مخصصاتهم وإقطاعاتهم، وكان يعطي الجند ويملأ الخزانة، ولهذا لم يكن احترام الأمراء له كما ينبغي نظراً لتهورهم وجسارتهم، واتفق رأيهم على العمل على كسر جمجمته وخفض منزلته، فكتبوا للأتابك قره سنقر قائلين: «لقد ضقنا بظلم هذا الوزير ويئسنا من الحياة» وقد اعتمد السلطان عليه اعتماداً كلياً مما جعل أسباب رفعته تتزايد يوماً بعد يوم، وقد تصل بمرور الزمن إلى درجة يصعب تداركها.

بيت شعر فارسي ترجمته:

---

(١) هذا خطأ والصحيح أن المقتفي عم الراشد.

(٢) هو كمال الدين محمد بن الحسين الخازن وزير السلطان مسعود السلجوقي والذي قتل سنة ٥٣٣هـ (ابن الأثير، حـ٨، ص ٣٦٢).

إذا جاوز الصبر، وهن عزم الشجاع.

فاستمع قرة سنقر إلى ذلك الكلام بسمع القبول، فلما خرج مصاحباً لركاب سلجوقشاه من آذربيجان قاصداً فارس، ونزل في مرعى «سكك» بعث رسالة إلى السلطان يقول فيها: «إذا لم ترسل إليّ رأس محمد الخازن ويده، ورجحت كفة ذلك الخائن علي فإني لن أذهب إلى المهمة التي كلفت بها. ومعاذ الله أن أتهم بالتمرد والعصيان» وأكثر من المبالغة والإلحاح في هذا الأمر إلى درجة جعلت السلطان يرى إجابته إلى طلبه لازمة محافظة على المملكة ودفعاً للفتنة والمحنة (ص١٢٢) «والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها»[١] وحيث لم يكونا ميسرين بدون ارتكاب هذه السيئة وارتكاب هذه الخطيئة، «وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير» فقد أذن بقتل الوزير، «والضرورات تبيح المخطورات» ولهذا قالوا:

بيت شعر فارسي ترجمته:

كل من يبحث عن زمام العظمة، يجب عليه أولاً أن يغسل يده بالدم.

وذهب قره سنقر إلى فارس بعد نيل المراد، وأجلس سلجوقشاه على عرش السلطنة، فلما رجع وتوجه إلى

(١) حديث شريف: في كشف الخفاء، حـ٢، ص ٨٣.

آذربيجان أصابه سهم القضاء في ذلك العام أيضاً، فأمسك متقاضي الانتقام بما عنده من قوة واحتشام.

شطر من بيت شعر فارسي ترجمته:

يفعل الدهر مثل هذا العمل آلاف المرات.

ويروون أن السلطان سنجر كان لا يميل إلى عباس[*] وإلى الري فأمر السلطان مسعوداً أن يتوجه من همذان والي الري، فتقدم عباس وأقام مراسم الاستقبال وقدم له خدمات مستحبة فأبى كرم السلطان أن يلحق به أذى بحكم أن «الإنسان عبد الإحسان»[1] فأكرمه، ثم ذهب إلى بغداد، أما عباس فإنه كطبيعة اللئام وشيمة المنكرين للجميل، لبس ثوب العصيان وتعاهد مع بوزابه وعبد الرحمن واتفق معهما على الطغيان والكفران ومخالفة السلطان.

شعر:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وإذا أنت أكرمت اللئيم تمردا[2]

شعر فارسي ترجمته:

(ص ١٢٣) الإحسان إلى اللئام نتيجته إساءتهم للكرام.

ورفعا علم العصيان وحرّضا محمداً وملكشاه على

(*) انظر راحة الصدور، ص ٢٣٩.

(١) الميداني، ج، ص ٢٦٣.

(٢) ديوان المتنبي، ص ٥٨.

المطالبة بالسلطنة وأغرياهما بذلك، وأجلساهما على العرش في أصفهان، فلما علم السلطان بتجرئهما إلى هذا الحد أمر بجمع الجند المتفرقين وبأن يجيء الأتابك ايلدكز من تبريز، وخرج هو من بغداد، فلما وصل إلى حلوان تصادف سقوط برد عظيم فتحولت الهضبة والصحراء إلى منطقة مليئة بالقطن، وتحولت الجبال والوديان إلى منطقة صعبة العبور شديدة البرودة، فلم يكن أمام الطيور مجال للطيران، ولم يكن أمام الإنسان طريق للعبور، فرجع السلطان بحكم أن «البرد يقتل» وبقي في بغداد أربعة أشهر طول الشتاء توقف في أثنائها العبور من الفرات ودجلة خوفاً من الزمهرير، فسكنت دوافع الانتقام في صدره، فلما رفعت طلائع جيش الربيع راية بشارة ﴿يحيي الأرض بعد موتها﴾[1] وأذاب سباك الربيع البرَدّ الفضي، وصبه في بوتقة الأرض فوضع الصانع بأمر من الخالق القادر تاجاً ذهبياً على رأس النرجس المدلل، الروض.

وصبغ الفلك جميع أجزاء الربع المسكون بالبنفسج الأزرق ووضعه على صفحة الروض.

شعر فارسي ترجمته:

حينما يمسك نقّاش الطبيعة بالقلم، تتخذ زينة الدنيا جمالاً يتميز عن صورة العالم، فريح الصبا صباغة وعطارة ويخيل

---

(١) سورة الروم، آية ١٩.

إليك أنها حينما تنتهي الصباغة تبدأ في العطارة. في الوقت الذي ذهبت فيه بنات النبات من عتاب احتساب السحاب خلف حجاب ثياب (ص١٢٤) بيضاء كالفضة النقية وغطين وجوههن بشدة ببرقع في لون الكافور وجئن على أمل إغراء الشمس ملكة السماء بالمجيء إلى روضة الرضوان، وتزينت الأرض العذراء المحتجبة في حلة خضراء وحلي من الزهر زهراء، توجه السلطان إلى آذربيجان.

شعر فارسي ترجمته:

زينت ريح الصبا دار الدنيا بالخضرة، فصار الروض صورة من دار الآخرة وصار للنسيم في إحياء الأرض بطريقة معجزة، جميع معجزات عيسى وكان الأمير جاولي وجميع الأتباع ملازمين لركابه العالي، وكان الملك سليمان أخو السلطان قد نزل في ذلك الوقت من «اعلم»(*) هو وعباس وبوزابة(**) ومحمد وملكشاه ومعهم جيش وأتباع وطبول وأعلام، فخشي جند السلطان من كثرتهم، وتصادف أنه في اليوم التالي الذي حدثت فيه حرب بين الطرفين ـ أن انسحب

(*) اعلم: تعرف الأعلم أسم كورة كبيرة بين همذان وزنجان من نواحي الجبال وقصبتها دركزين.

(**) عباس كان صاحب منطقة فارس أما بوزابه فهو أمير الري أتفقا على معارضة السلطان ومحاربته (تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ١٥٠ـ١٥١).

سليمان من المعركة وتوجه إلى الري، وأسرع عباس هارباً خلف سليمان مطبقاً الحديث «عليكم بالسواد الأعظم»[(١)] ولما رأى بوزابه أن عقد الجماعة قد انفرط، توجه ومعه محمد وملكشاه صوب أصفهان، ذهب السلطان المسعود الاسم الطيب المقام إلى الري، فأقام أخوه سليمان مراسم الاستقبال كما ينبغي ولازم حضرته، وبعد ذلك دفع حظ سليمان السيئ جاولي وأمراء الدولة إلى أن يقولوا للسلطان بألا يترك سليمان مطلق العنان ويغفل عنه لأن هذا بعيد عن مصلحة الدولة خشية أن يلتف حوله جماعة ويعاونوه، فيثور من نفسه حب الجاه، ويتوجه إلى ناحية (ص١٢٥) فسجن السلطان سليمان بناءً على قول الحاسدين في الحجرة التي كانت مقره وأحضر ملكشاه الابن من قلعة «فرحين»[(*)] وجعل الأمير جاولي أتابكا له، ثم أرسل بعد ذلك الأخ إلى مكان الابن، فأمضى ذلك المسكين المظلوم في تلك القلعة مدة في بحر من الحيرة دوامة من الحسرة وكان يقضي يومه وليلة بأمل ﴿لا تيأسوا من رحمة الله﴾[(٢)].

وكان يردد هذا النشيد دائماً.

شعر فارسي ترجمته:

---

(١) حديث شريف: مسند ابن حنبل، حـ ٤، ص ٢٧٨ و٣٥٧ و٣٨٣.

(*) اسم لمكان قلعة قريبة من كابله وهي قريبة من همذان.

(٢) سورة يوسف، آية ٨٧.

الغصة هي أن أرى الشوك لا يشم أريج الورد في رياض الدنيا.

وأنا أرى كسوة الربيع النضير على جسدي في فصل الخريف.

وتوجه جاولي إلى آذربيجان فلما وصل زنجان(**) أراد أن يفصد، فنهض في الحال وذهب للفصد فجرح عرق في يده، فنصب متقاضي الأجل له كميناً وقذفه من قوسه القضاء بسهم من البلاء قاتل أصاب روحه التي كانت هدفه.

شعر:

مشى برجليه عمداً نحو مصرعه

ليقضي اللَّه أمراً كان مفعولا

وبعد وفاته أسند السلطان إلى عبد الرحمن وظيفة الأتابك[1] على الابن وأمره بأن يتوجه إلى ناحية أران، ففكر عبد الرحمن كثيراً ونظر إلى الأمام والتمس من السلطان أن يذهب الأمراء ايلدكز وخاصبك(***) وقيصر معه إلى أران لأنه لم يكن آمناً على وجودهم في حضرة السلطان، فأجابه السلطان إلى ما طلب، ولما كان الأمراء المذكورون من عبيد

(**) زنجان: مدينة كبيرة في نواحي الجبال قريبة من قزوين.

(١) أتابك معناها السيد الوالد أي المربي.

(***) خاصبك بن آرسلان بن بلنكري الأمير الحاجب قتل سنة ٥٤٨هـ (المنتظم، حـ١، ص ١٥٣).

محمود وأتباع مسعود، فإنهم كانوا مطلعين على خبث طوية عبد الرحمن (ص١٢٦) فانتهزوا فرصة وقتلوا عبد الرحمن، وأرسلوا بشارة تحقق هذه النصرة، ونيل هذه الفرصة إلى السلطان، فوقع نبأ قتل ذلك المنافق الكبير موقع الرضا والموافقة، ولما سمع عباس الذي كان قد وافق عبد الرحمن في مخالفة السلطان وتعاقد معه على هذا، نبأ قتل عبد الرحمن ﴿وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾[1] أخذ يفكر ملياً في تدبير كل تلبيس وتزوير، واتفق مع أمير المؤمنين المقتفي أنه حينما يخرج السلطان من يوم العيد إلى الصحراء يجب العمل على تفريق العبيد بالزجر والتهديد وقتل السلطان، وتصادف أن نزل مطر شديد في يوم العيد، وظهر وحلّ في كل مكان بحيث لا تستطيع النحلة أن تخرج من بيتها طلباً للقوت ولا يستطيع طير أن يخرج من وكره، فنجا السلطان برحمة من الخالق من شر الخلائق، وقبض بعد أسبوع على عباس الوسواس وشنقه على شاطئ دجلة إنذاراً للناس، وصبغ أتباعه ثيابهم باللون الأزرق بعد أن أصابهم اليأس، وأرسل السلطان تاج الدين إلى بوزابه بفارس وأعطاه رسالة يقول فيها: «لقد ألقينا حلفاءك في بئر الخذلان فإذا كانت عندك رغبة اللحاق بهم، وكان عمرك قد انتهى نلحقك بهم»:

---

(١) سورة الجاثية، آية ١٩.

شطر من بيت شعر فارسي: إلحاق الفرد بالأعم لأغلب.

فخشي بوزابه من هذه الرسالة واغتم وخاف خوفاً شديداً وأعد جيشاً في الحال وأخذ محمداً وملكشاه وحملهما إلى أصفهان حتى يجلسهما على العرش، فلما وصل إلى مقصده أجلس محمداً على عرش السلطنة وقال له:

بيت شعر فارسي ترجمته:

أنت تضرب خمس نوبات لجمالك، وخمس نوبات أخرى لسلطنتك.

(ص ١٢٧) ولما علم السلطان بهذه الحادثة جمع الجند وتوجه للقتال، ووقعت حرب بين الطرفين في مرعى «قراتكين» بقرية كهران يصعب وصفها في حيّز الضمير وبفصاحة التحرير، وانهزمت ميسرة السلطان في نهاية الأمر وتفككت صفوف الميمنة، ولكن لما كان الحظ مساعداً والإقبال معاضداً فإن غلاماً حبشياً كان واحداً من أتباع السلطان قد عرض للبيع بثمن بخس دراهم معدودة وجد بوزابه الكثير الأتباع الذي كان مثل قوم تبع يباهي بكثرة الأتباع مترجلاً في وسط المعركة وعرفه فقبض عليه، ومهما قال له بوزابه: «إرفع يدك عني وأنا أعطيك نصف ملك فارس» لم يقبل وحمله مقيد اليدين إلى حضرة السلطان.

بيت شعر ترجمته:

احضر القدر الخصم أمامه مقيد اليدين مكسور الرجلين.

فحكم السلطان بقتله وأرسل رأسه إلى بغداد حتى يعلقوها على باب حرم المقتفي عبرة للناظرين.

بيت شعر فارسي ترجمته:

ليس لخصمك بقاء كثير في الدولة، وأي عجب في أن تقتل رائحة الورد الجُعلّ ورجع محمد وملكشاه خاسرين نادمين، وذهبا إلى فارس، وأطاحت رياح سوء الحظ بخيام سلطنتهما، وأوقعتهما في دوامة النكبة:

شعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

شعر: ما كل طلاب من الناس بالغ، ولا كل سيار إلى المجد واصل.

ولما مرّت خمسة أعوام على هذه القصة حمل السلطان في شهر رجب من عام ست وأربعين وخمسمائة[1] فراش الإقامة من متنزه الدار الدنيا إلى مغفرة الدار الأخرى (ص١٢٨) ونادى هاتف القدر من بلاطه بنداء ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾[2].

بيت فارسي ترجمته:

أين صاحب النظر حتى يرى

هل كل ما يحدث أمامه يساوي شيئاً؟...

---

(١) المشهور أنه توفي في عام ٥٤٧هـ.

(٢) سورة المائدة، آية ٣.

وقد دفنوا سلطان العالم في مدرسة جمال الدولة بهمذان، وكانت مدة عمره خمساً وأربعين سنة، ومدة حكمه سبع عشرة سنة، ووزراؤه هم شرف الدين أنوشيروان بن خالد الكاشي وعماد الدين أبو البركات الدر كجبيني، وكمال الدين محمد الخازن وعز الدين أبو العز البروجردي ومؤيد الدين إسماعيل الطغرائي وتاج الدين الشيرازي، وشمس الدين أبو النحيب، وكان توقيعه «اعتمادي على الله».

السلطان مغيث الدين ملكشاه بن محمود

يمين

أمير المؤمنين

كان السلطان ملكشاه ملكاً شجاعاً جسوراً، وكان في ميدان المبارزة أسداً هصوراً، وكان بحسن الخلق مشهوراً، وبالسخاء والإحسان على الخلق مذكوراً وكان يديم الاشتغال بالتنعيم واللهو وشرب المدام على الدوام وكان مجلس أنسه مزداناً بمحبوبات بلا نظير وبمعشوقات جميلات من كشمير وكانت الأرض التي تحت عرشه طيبة الرائحة مثل الورد والريحان، وكان مطربو حضرته طيبو الألحان كالبلبل والعندليب.

بيت شعر فارسي ترجمته:

كانت رائحة جنة الخلد تفوح من تراب مجلسه، كما تفوح نكهة العنبر من دكان العطار (ص١٢٩) وتصادف أن عشق السلطان فتاة جميلة ملائكية الصورة أذهبت سلسلةُ طرتها المجعدة لب ألف عاقل، وفتنت مائة كامل.

شعر فارسي ترجمته

اتخذ الملائكة صورة الطاووس جمالاً من هذا القمر الذي يفتن العابد.

الذي بعد رؤيته لا يطيق العابدون المتنسكون صبراً على فراقه.

فصار عاشقاً ولها وأصبح أسيراً في شباك طيش الشباب وعشق الشهوات.

بيت شعر فارسي ترجمته:

ليس من القلب من عشق للفلك إلا إذا أنزل ماء نقياً ومرآة صافية فجعل الحياة ممتعة، وكان يقضي الليالي والأيام دائماً في محفل في بيته كانت تحسده الزهرة عليه، وكانت الشمس تسكب الدمع من عينها حسداً منه، وكان يقضيها مع معشوق عذب الدلال فجرع كؤوس المرام وأكواب المدام بعيداً عن مضايقة لئام الأيام.

شعر:

الخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة
من كف لؤلؤة ممشوقة القد

وكان المنظر المختار هو ما تركته الطرة المقصوصة من آثار في يد السلطان المعجب، وكان في كل وقت يعزف لحناً من نفسه على أوتار الطرب، ويلحنه على الوتر والعود بدلال كالزهرة ويضم إليه ملاطفته لتلك المعشوقة المحبة وحب السلطان لها مصداقاً للقول المعروف «وزاد في الطنبور نغمة»

وكان السلطان يعد هذه اللذة المنعشة للروح غنيمة ويعتقد أن هذه الفرصة هي خلاصة الحياة والأماني المنتقاة.

شعر:

(ص ١٣٠) وألـذ أيـام الـفـتـى وأحـبـهـا

مـــا كـــان يـــزجـــيـــه مـــع الأحـــبـــاب

ولما كانت له مملكة موروثة مقترنة بمعشوقة محبوبة، وكان يظن أن يد قدرته في تحقيق مطلوبه من اللذات وأن عروس الإقبال ستظل إلى جواره طول فترة العمر، وأن السعادة ستحالفه إلى آخر الأمر، فأهمل تدابير أمر المملكة والمحافظة على رسوم السلطنة معتمداً على ذلك، وهو لا يعلم أن الدهر الغدار لا يأتي منه وفاء، وأن الدنيا المعشوقة الظالمة لا تلد إلا الجفاء.

شعر:

أبـــداً تـــســـتـــرد مـــا تـــهـــب الـــدنـــــ

ـــيـــا فـــلـــيـــت جـــودهـــا كـــان بـــخـــلا

بيت فارسي ترجمته:

لا تـكـن زوجـاً لـعـروس الـدهـر الـغـدار

لأن ولـع هـذه الـفـاحـشـة بـدمـاء الأحـبـاب

الأعـــــــــزاء

شعر:

إنـــمـــا الـــدنـــيـــا فـــنـــاء

لـــيـــس لـــلـــدنـــيـــا ثـــبـــوت

إنما الدنيا كبيت
نسجته العنكبوت

وكان من كثرة لهوه ومداومته على الطرب لا يختلط بأمراء الدولة ولا يسمح لهم برمتهم بالجلوس في مجلس الأنس بالمحبوبة والمجالس أخلاها أحلاها، ولما كان خاصبك الذي كان يعد نفسه من الخواص قد شمله الحكم المطبق على الجميع عموماً، أي أصبح كالعوام بعيداً عن مقابلة السلطان العاطل الغافل عن القاعدة القائلة بأن «ما من عام إلا وقد خص» وعن الأسماع إلى المبدأ المعروف «ولله في حكم العموم خصوص» فإن خاصبك من شدة الغيرة ـ تمرد وعصى. وأوعز إلى حسن الجاندار بأن يدعو السلطان ضيفاً في بيته وأن يعد مائدة كمائدة المعتصم، وأن يقدم له شراباً أرغوانياً مرّ المذاق في كأس جميلة على يد ساقية مدللة، وظل السلطان ثلاثة أيام بلياليها يحيا على الشراب، ويشرب في روضة (ص١٣١) الجنان بصحبة معشوقة جميلة فضية الفم.

شعر:

تخفي الزجاجة لونها فكأنها
في الكف قائمة بغير إناء

وعاقبة الأمر أنه حينما طوى بساط المرح واللذة، أدبر حظ السلطان وأصبح المعشوق أشعث الطرة مضطرباً.

شعر فارسي ترجمته:

حينما تمسك طرته بالمعشوق، يخرج الكثيرون من الديار والأموال ويفقدونها.

لقد نسكت راية السعادة، وانقضت دولة السرور.

فوكلوا به من قيده، فسقط من مسند السلطة والملك إلى وهدة الاضطرار والدمار وانتصر خاصبك، وتطاول بلسانه لائماً، ولما رأى السلطان نفسه في هذه الحالة تحمل وصبر وقال بلسان الرضا لخصابك العديم الوفاء:

بيت شعر فارسي ترجمته:

الآن والوقت وقت الخمار يجب شرب الخمر

ما من يد ظلمك فإن المنحوس شربة قاتلة.

والقصة أنهم حينما ابتلوا السلطان بهذا القيد أرسلوا شخصاً إلى أخيه السلطان محمد واستدعوه للحضور، ولما شبع ملكشاه من الملك، وأصبح وجه حظه أسود كالقار، جلس أخوه على العرش بدله، ثم حملوا ملكشاه إلى قصر، وقيدوا إرادته وتدبيره بقيد محكم وحبسوه بدون صديق موافق ورفيق مؤتمن على الأسرار فلما فقد ملكشاه ملكه الموروث وأصبح محبوبه محتجباً عن ناظريه غرق في الحيرة وأخذ ينشد هذا اللحن الودي حسرة وندامة وعناء.

شعر:

فيا ليت ما بيني وبين أحبتي

من البعد ما بيني وبين المصائب

وكان يوصل على لسان نسيم الصبا ـ الذي يحفظ أسرار إخوان الصفاء ويبلغ رسالة الأحباب الأوفياء ـ هذا النشيد إلى أذن المعشوقة الجذابة، والحبيبة الهيفاء الجميلة، والرفيقة الحسناء والظريفة ذات الوفاء.

بيت فارسي ترجمته:

هناك حيث توجدين بدوني لا أستطيع المجيء.

وأعلم أنك أنت لا تستطيعين المجيء إلى المكان الذي أوجد فيه أنا. وظل مدة خمسة عشر يوماً في ذلك المسكن المقبض وفي قلبه ألف غم وحزن على فراق الحبيب الذي يحمل همه وكان يعيش بقوتي لسانه المعبر وحبه لمحبوبه الداودي الألحان وكان يقول إن فراق الحبيب كمفارقة الدنيا.

شعر:

إن المنية والفراق لواحد
أو توأمان تراضعا بلبان

بيت فارسي ترجمته:

أي شيء في العمر أجمل من وصلك، وأصعب من الموت فراقك،

وصار هذا الشعر وصفاً لحاله:

بالأمس أنا ووصلها والخمر
واليوم أذى خمارها والهجر
يا دهر كلاهما لديك استويا
بع ذاك بهذا وفداك العمر

شعر فارسي ترجمته:

بالأمس نحن والخمر والمرح الجميل والوجه الحسن، واليوم ألم الفراق وتعب الخمار يا دورة الأيام يستوي عندك الشيئان، وأن تكون الروح بالأمس في الداخل واليوم في الخارج.

بعد ذلك استطاع ذات ليلة باشاد شهاب السعادة نجم الشهامة أن يهرب من ذلك السجن دار المحنة، وذهب صوب خوزستان وظل هناك مدة مديدة وعهداً (ص١٣٣) بعيداً. وكانت أخته «كوهر نسب» في كل وقت تذهب فيه إلى خوزستان تحمل أموالاً كثيرة هدية له، وتشجع أخاها على أن يجمع جيشاً ويكوّن حوله أتباعاً، فعلم السلطان محمد بهذه الحالة. وبعث الملك باياز[(١)] ليأخذ خزانة ملكشاه قهراً وقسراً. وانتقل إلى جوار رحمة الباري في ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وحينما وضع سليمانشاه خاتم المُلك في خصر عنصره المبارك جاء ملكشاه من خوزستان[(٢)] إلى أصفهان وجلس على عرش السلطان كانو يُبيِّت في نفسه أن يقهر سليمانشاه، ويستولي على جميع أرجاء المملكة، ولكن عمره العزيز لم يفِ له، وبعد مرور خمسة عشر يوماً

---

(١) الملك اياز: قتل سنة ٤٩٨هـ.

(٢) خوزستان: إقليم الأهواز العربي.

على مجيئه إلى أصفهان أصيب بسهم الموت القاتل قضاء وقدراً، فحطم هادم اللذات أساس السلطنة.

شعر فارسي ترجمته:

كثيراً ما دفنوا من المشهورين، فلم يبق من وجودهم أثر على وجه الأرض، فافعل الخير أيها الإنسان واغتنم فرصة العمر، قبل أن يجيء النداء بأن فلاناً سيرحل إلى دار البقاء.

وكانت مدة عمره اثنتين وثلاثين سنة وأربعة أشهر.

وكان وزيره شمس الدين أبا النجيب وكان توقيعه «استعنت بالله».

السلطان غياث الدين أبو شجاع محمد ابن محمد قسيم أمير المؤمنين

كان السلطان الراحل محمد السلجوقي شجاعاً كما جاء في الشعر:

بيت شعر فارسي ترجمته:

(ص ١٣٤) ذلك الملك الذي وصفه العقل في ميدان القتال بأنه مثل الفيل القوي والأسد الهصور وكان أعقل ملوك الدهر وأكمل سلاطين العصر وجعل رعاية أحكام شريعة خاتم الأنبياء تبلغ أقصى الغاية والإمكان، وعمل بأقصى جهده في المحافظة على كرامة مشاهير أئمة العالم وكبار الفضلاء في الأمم، وكانت حضرته كعبة الأعيان ومشرب الإحسان، وكان عدله حارساً لكل ضعيف وأماناً لكل شيخ وشاب.

بيت شعر فارسي ترجمته:

قرأ سيفه على الخلق خطبة الفتح والفتوح، وأعلن عدله في الممالك بشرى الأمن والأمان، وقد رووا أن سبب تولي هذا السلطان العرش أنه لما كان أخوه ملكشاه يقضي أكثر الوقت في كنف الروض وفي وسط البستان مع معشوقة جميلة وكأس أرغوانية وقد ألقى قلبه في مضرب طرة المعشوقة وعلّق روحه

في سلسلة طرة الحبيبة العطوفة، وبرغم وجود علو القدر وبسطة الملك كان كالعنقاء يبحث عن عظمة، فطلبه أمراء الزمان من خوزستان، فجاء وجلس على عرش السلطنة وكان جمال الدين قفشت بن قايماز هو الذي ذهب لاستدعاء السلطان، فقال للسلطان في أثناء الطريق: «إن خاصبك سيفعل في حقك نفس الشيء الذي فعله مع أخيك، وقد تعاهد مع الخليفة، وهو يرغب في تقويض دولتكم وجعل عاليها سافلها» فاستمع السلطان إلى هذا الكلام بسمع القبول، ووعيه بسمع الإرادة، فلما وصل همذان في المحرم من عام ثمان وأربعين وخمسمائة، وجاء أمراء الدولة إلى حضرة السلطان، وأظهروا الطاعة والولاء (ص١٣٥) ذهب معهم في اليوم الأول إلى مرعى قراتكين وفي اليوم الثاني إلى قصر في مرعى بالقرب من همذان وخصوه بتحف كثيرة وطرف وفيرة، وتفرق ذلك الجمع ووقف خاصبك في أدب، وأخذ يتحدث ناصحاً وأخذ يُبيِّن آداب السلطنة، فجاء جمال الدين قفشت من ورائه، وقبض عليه بمساعدة صارم بن محمد يونس، وقام زنكي الجاندار من أتباع خاصبك لمساندة ولي نعمته ورفع سيفاً حاداً وسهماً وقوساً ورمحاً كبيراً وهجم على السلطان فقبض عليه ملازمو حضرة السلطان وقيدوه وحبسوه، ولما قال خاصبك هذا وحدثت ضجة في القصر علم جند خاصبك بما حدث ورأوا أميرهم أسيراً فصاحوا وصرخوا «واويلاه» وأوصلوا صراخهم إلى عنان السماء، وبدأوا في

عمل كل شيء مثير، وقام الموكلون بخاصبك وزنكي الجاندار بشنقهما وألقوا برأسيهما بناء على أمر السلطان على اليمين واليسار من جند جيشهما الجرار، فجرحت قلوب الجند، وتحطمت أرواحهم، وأصبحوا هدفاً لسهم الفرقة وهربوا من هذا الوادي خوفاً من الأعادي وكان الغدر بملكشاه كما ذكر في الفصل السابق ـ غير مبارك على خاصبك وبرغم أنه سعى جاهداً في تدبير السلطنة واستقامة المملكة فإنه لم يأمن بطش الفلك، ولم ينج بروحه من حادثة الزمان.

بيت شعر فارسي:

فلما اشتد ساعده رماه[1].

ولا ريب فقد كانت عاقبة الظلم هكذا. ونتيجة الجور بهذه الصورة ﴿وكذلك تولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾[2].

بيت شعر فارسي ترجمته:

(ص ١٣٦) إذا أراق شخص دم سيده، لا يكون مقامه في الدنيا طويلا.

ويقولون إنه في الوقت الذي كانوا يهجمون فيه على خاصبك، كان يوجد شخص اسمه شومله، وكان من أتباع

---

(١) الميداني، ج٢، ص ١٢٧.

(٢) سورة الأنعام، آية ١٢٩.

خاصبك المتعلقين به، فلما رأى مزاج الدولة منحرفاً، ورأى أمر سيده مضطرباً، «وأنه لفي خور وفي فورٌ» نزل من القصر، إتباعاً للقول المعروف «تضرع إلى الطبيب قبل أن تمرض» وأعطى خاتمه للمسؤول عن خيل خاصبك وقال له: «أعطني بهذه العلامة حصان خاصبك لأذهب إلى المدنية، وأحضر التحفة التي سيقدمها هدية للسلطان لأنها بقيت هناك في كنز النسيان»، فأعطاه المسؤول عن الخيل الحصان وأمسك بزمام المراد ولاذ بالفرار «ومن نجا برأسه فقد ربح»[1] ولم يلتحق بخدمة أي سلطان مدة بقائه على قيد الحياة.

بيت فارسي ترجمته:

الوجود في البحر فيه منافع كثيرة، وإذا أردت السلامة فإنه في الساحل.

شعر:

وما السلطان إلاّ البحر عظماً

وقرب البحر محذور العواقب

ولما انتهى السلطان محمد من تحطيم هذا القلب الذي كان سبباً في تحطيم قلوب المحبين لخاصبك، أرسل إلى المؤتمنين على خزينة خاصبك وكنزه ومنزله فكانت هناك أموال وأشياء ثمينة وخزائن وجواهر ودفائن ومعادن نفيسة

---

(١) الميداني، ج٢، ص ٢١٢.

وحلي ولآلئ وخيول ومواش تحت تصرفه تعجز أصابع الكُتّاب وسجلات الحساب عن حدها وعدها وتقصر حدة الوهم والتخيل عن إدراكه، فلما ذاع خبر قتل خاصبك واشتهر، توجه سليمانشاه: الذي كان في عهد (ص١٣٧) أخيه السلطان مسعود قد هرب من القلعة ـ إلى آذربيجان واتفق مع أمراء تلك النواحي على أن يؤيدوه واتجه من هناك إلى همذان على رأس جيش جرار لمهاجمة السلطان، وتصادف إن كان جند السلطان متفرقين وقد التحق أكثرهم بقوم خاصبك، وأبرموا معهم عهد اتفاق ووفاق، فلما علم السلطان بمجيء سليمانشاه، خص الجند الملازمين به بأنواع من العطف والمرحمة وأعطاهم ذهباً كثيراً وحللاً لا عد لها ولم يراع حديث «جوِّع كلبك يتبعك» والجند الذي مذهبهم كفر النعمة، يأخذون أموال سيدهم ثم يسارعون إلى الهرب، ويتسابقون قبل الحرب إلى الهزيمة، ولما رأى السلطان حال أعوانه المعوجي السيرة ذوي الجبلة الشيطانية على تلك الصورة قال لنفسه الشعر التالي:

وإذا الديار تغيّرت عن حالها
فدع الديار وأسرع التحويلا
ليس المقام عليك حتماً واجباً
في بلدة تدع العزيز ذليلا

فلوى عنان الشجاعة من ميدان المقاومة، وتوجه من همذان إلى أصفهان، ونزل سليمانشاه في مرعى همذان بجيش يعجز

البنان عن بيان أعداد جنده وتعجز الأقلام عن تسجيل عدد أعلام رجاله الأقوياء كالفيلة، ذوي الضخامة كالجبال، ولما وصل نبأ مجيئه إلى همذان إلى أذان جند السلطان، توجه جماعة منهم إلى همذان حيث كان أهلهم وأموالهم فيها، ليحرروا وطنهم وتنادوا بنداء «حب الوطن من الإيمان»[١] أما السلطان فقد بنى تدبيره من حيث الاضطرار على أساس (ص ١٣٨) أنه لا يملك آلة الحرب، فكان يرى نفسه بلا صديق ولا مؤتمن على السر رفيق، فإذا توجه سليمانشاه إلى أصفهان فليذهب هو إلى خوزستان على أمل أن يتنفس صبح النجاح، وليتمسك بأذيال الصبر.

شعر فارسي ترجمته:

الدنيا لا تبقى دائماً على حال واحدة، فلعل اللّٰه يحدث بعد ذلك أمراً.

شعر فارسي ترجمته:

إذا لم يدر الفلك مدة وفق الحرام، فلا تدع خاطرك يضطرب واقض عمرك معتصماً بطلب الحق والصبر، فإن الأمور تعود إلى نصابها إذا انتظرت.

---

(١) حديث شريف: في كشف الخفاء، حـ١، ص ٣٤٦.
قال الإمام الصغاني (موضوع) وقال السخاوي لم أقف عليه ومعناه صحيح وقد رده الشيخ علي القاري: في موضوعاته ومعناه صحيح بأنه عجيب قال إذ لا تلازم بين حب الوطن وبين الإيمان.

واتفق الجميع أتباعاً وجنداً على إسناد الحُكم لسليمانشاه وكان لسليمانشاه وزير اسمه فخر الدين الرازي الكاشي، وله أمير حاجب اسمه هوارزمشاه، فاتفقوا على ضرورة إسناد الوزارة إلى شمس الدين أبي النجيب والحجابة إلى مظفر الدين ألب أرغو، فسمع خوارزمشاه هذه القصة فغضب وسحب تأييده وأراد أن يفسد أمر المملكة، ولم يجد تدبيراً أفضل من أن يقول لأخت السلطان، التي كانت زوجته وتحت حكمه، إن الجند قد اتفقوا على مخالفة السلطان وسوف يؤذون السلطان، ومن حسن الولاء للسلطان ومراعاة صلات القرابة والرحم أنه من اللائق أن تنقلي أنتِ هذه القصة إلى سمع السلطان «فلم تر الأخت التأخير هذا الأمر سائغاً، فذهبت في الحال، وأطلعت أخاها الشفوق على هذا الأمر بدافع الحب، فحسى سليمانشاه من نتيجة سوء الحظ ومن عاقبة الغدر، ونهض مع عدد من خاصته.

بيت شعر فارسي ترجمته:

(ص ١٣٩) إذا غيّرت الشمس وقت صلاة المغرب، اختفت وراء الجبل واحتجبت عن العين.

وتوجه إلى مازندران(*) ذليلاً حقيراً متحيراً جباناً «أذل من أموي بالكوفة في يوم عاشوراء» وكان يقول لنفسه في أثناء الطريق هذا الشعر:

(*) مازندران: اسم لولاية طبرستان.

فلو كانت الدنيا تنال بفطنة
وحلم وعقل نلت أعلى المراتب
ولكنما الأرزاق حظ وقسمة
بفضل مليك لا بحيلة طالب

فجعل بهذه العجلة التي لا فائدة منها ـ الملك المستقر مضطرباً، والجيش المنتظم متفرقاً مشتتاً «ومن تعجل أخطأ ولو كاد» ولم يتبع هذه النصيحة.

بيت شعر فارسي ترجمته:

لا تفعل أي عمل على عجل، لأن العجلة ليس فيها صواب.

«الأناة حصن السلامة والعجلة مفتاح الندامة». وفي اليوم التالي أجمع الجند الذين كانوا ذوي همة عالية بريئين من هذه التهمة براءة الذئب من دم يوسف وأخذ كل واحد من الصغار والكبار في كل مكان يتدارسون الأمر ليعرفوا سبب هذه الحركة، ويدركوا سر اضطراب أمر الجماعة، ولما اطلعوا على حقيقة الحال كما ينبغي أخذ كل واحد منهم يسند التهمة للآخر، فتصارعوا، ونهبوا كل ما يتعلق بسليمانشاه، فنهبوا مكان التنزه الذي كان مزيناً بزواهر الجواهر، ونهبوا مقر العرش الذي كان مزداناً بالطرائف والظرائف، وانهالوا على أماكن الجواهر كالسيل كأنهم يذهبون إلى عرفات وظنوا أنه حان وقت ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾[1].

---

(١) سورة الفتح، آية ٢٠.

شعر فارسي ترجمته:

مصائب قوم عند قوم فوائد.

(ص ١٤٠) فأسلم سليمانشاه السيئ الحظ وخوارزمشاه السيئ الجوهر ـ بدون موجب ـ السلطنة الموروثة، والمملكة المكسوبة للرياح وأصبحت آية ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾[1] تنطبق على حالتهما، وبقيا محرومين «والفطام عن المألوف شديد»[2] وأصبحا مشردين في العالم ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾[3]. ونادى الدهر الغدار نداء «ذاك بساط قد طويناه» في تلك المساكن، ونداء «هذه الدولة قد تولت في تلك الأماكن».

شعر فارسي:

والدهر من أحكامه تكدبر عيش قد صفا.

شعر فارسي ترجمته:

ليس هذا أول ظلم يصدر عن الدهر.

ولم تتجاوز مدة هذه السلطنة السريعة الزوال ثمانية وعشرين يوماً فلما وصل هذا الخبر إلى السلطان محمد عض إصبعه تعجباً من تسلطن الدهر الغدار، وتفرعن الفلك السيئ الدوار وتصاريف الليل والنهار، ولما كان هذا الانقلاب قد حدث

---

(١) سورة الحشر، آية ٢.

(٢) الميداني، ج٢، ص ٢٢.

(٣) سورة الأحقاف، آية ٢٥.

دون توقع، فلم يكن مقدراً أن يحدث في ﴿أيام معدودات﴾[1] فإنه من فرط الحذر وبعد النظر ظن أن الخبر عار عن حلية الصدق وأن الرواية بعيدة عن الصحة ولذلك أهمل الأخبار الواردة حتى لا يوقع نفسه في شراك البلاء ودوامة العناء فلم يتحر أبداً برغم أنه كان يحب الجاه، وكانت نفسه المحبة للدنيا تقول بلسان الحال هذا الشعر.

بيت شعر فارسي ترجمته:

كيف النجاة بعد أن تغوص في هذا البحر الذي لا ساحل له كالضفدعة؟.

فكان يستمسك بالعروة الوثقى للصبر، والصبر أحجى بذوي الحجا، وكان يضع عقال العقل (ص١٤١) على رجل المراد اعتماداً على أنهم قالوا:

بيت شعر فارسي ترجمته:

كل من كان مهيئاً لدولة، إذا لم يبحث عنها بحثت عنه الدولة.

فكان يصابر، وينصح النفس المتمردة بهذا البيت:

بيت شعر ترجمته:

طب نفساً فإذا كان من نصيبك ملك العالم يعطونك إياه، ولا يعطونك ذرة من نصيب الآخرين.

ولما مضت بضعة أيام على هذا الأمر، وبلغ الخبر

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٠٣.

الأحاد الذي يوحي بالشك إلى حد التواتر الذي يوجب العلم، وروته طائفة، مجال تواطؤ أفرادها على الكذب وتحقق أن ريح سوء الحظ فرّقت ذلك الجمع، وأن قسام الأمل جعل حظه في الجلوس على العرش مضاعفاً، توجه إلى همذان وشكر الله على هذه الهبة التي أعطيت له «ومن نصرة الله لا من تسبيح داود» وصدقاً قالوا:

بيت شعر فارسي:

إن الزمان يحضر ألف صورة ولا تكون واحدة منها كما هي في مرآة تصورنا

وفي سنة خمسين وخمسمائة جاء سليمانشاه من خُراسان إلى أصفهان وكان رشيد الجامه دار حاكماً ووالياً هناك في ذلك الوقت فأرسل سليمانشاه رسولاً إليه، ودعا رشيد إلى إطاعته أحياناً باللطف والأمر وأحياناً أخرى بالتهديد بالسيف والرمح، فأجاب رشيد: «إن هذه الأمانة قد أودعها ابن أخيك في يدي، وامتثال أمر ﴿أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾[١] من الواجبات، والظلم والكفران والخروج على المخدوم من المحرمات، فلما يئس سليمانشاه من دخول هذه المدينة توجه إلى دار السلام لمقابلة أمير المؤمنين المقتفي، ولازمه هناك مدة وبعد فترة ألبسه الخليفة خلعة السلطنة (ص١٤٢) وسقاه جرعة المملكة، فلما أصبح سلطاناً وصار نافذ الأمر، توجه إلى تبريز، وأطاعه جمع طوعاً أو

---

(١) سورة النساء، آية ٥٨.

كرهاً، وتوجه السلطان محمد إلى آذربيجان لقتاله، ووقعت بينهما حرب، ولا يدخل وصفها في حيز الأقلام ومركز الأوهام وانهزم جيش سليمانشاه، فتوجه من هناك إلى الموصل، ولما انتصر السلطان محمد في هذه الحرب وقهر الخصم ونكبه، توجه في آخر سنة خمسين وخمسمائة إلى بغداد، ونزل في الجانب الغربي لأن أمراء الخليفة كانوا يؤملونه قائلين: إننا سنسلم المدينة «فتهاون في الحرب، ولم يبذل جداً وجهداً كما هي عادة من حظهم حسن، وكان قد بسط بساط اللهو والمتعة واستقر في روضة أحسن من الطاووس وأزين من سوق العروس»[١] وأخبروه فجأة أن ملكشاه والأتابك أيلدكز قد وصلا إلى باب همدان، فأسرع جند السلطان فرادى وجماعات هاربين للمحافظة على أهلهم وأموالهم، وكسدت سوق الحرب، وتوجه الجند إلى همذان، ولما أيقن السلطان أن هؤلاء الجند والحالة هذه مستحيل ومتعذر، أمر قائلاً: غداً نعبر جميعاً النهر ونتجه إلى همذان. فقالت طائفة من الجند لهم بعد نظر، غداً يزدحم الكثيرون للعبور، فالأقرب إلى الصواب أن نعبر اليوم بدل الغد، ورأى بقية الجند أن الموافقة واجبة، وتصادف أن خرب الجسر فسقطت السفن (ص١٤٣) وتفسحت مثل حروف الهجاء وسقط كل واحد في ناحية، واغتنم رَجّالة بغداد هذه الفرصة، فمدوا أيديهم بالنهب والإغارة، ووجدوا نعمة «أحلى من

---

(١) الميداني، ج١، ص ٢٠١.

ميراث العمة الرقوب»، وذهب السلطان إلى داخل قصر سعد الدولة واحتمى بقية الجند خلف الدروع خوفاً على أرواحهم، وكان على رأسهم زين الدين علي النامي من أتباع السلطان، واصطفوا وأخرجوا سيف الانتقام من غمده، وأبدوا تضامناً ومثابرة حتى أخرجوا خزانة السلطان وجعلوها تعبر الجسر سالمة من نهب هؤلاء اللصوص والأوباش المهاجمين وما تعذر نقله لثقله مثل الخيام وأمتعتها رموه في النار، وتوجه السلطان إلى همذان فلما اقترب منها، توجه الأتابك ايلدكز من همذان إلى آذربيجان بحكم ﴿إذا جاء الحق زهق الباطل﴾[1] وسلك ملكشاه طريق خوزستان، وترك السلطان المحاربة والمقاتلة وكانت له رحلتا الشتاء والصيف، وكانت رحلة الشتاء إلى ساوه ورحلة الصيف إلى همذان، ومن ذي الحجة من سنة أربع وخمسين وخمسمائة تخلص من مشقة هذا العالم الفاني وذهب إلى نعمة العالم الباقي، وكانت مدة عمره اثنتين وثلاثين سنة ومدة حكه سبع سنوات، وكان وزيره جلال الدين أبا الفضل[2] وتوقيعه «اعتمادي على الله».

(١) سورة الإسراء، آية ٨١.

(٢) جلال الدين بن قوام الدين أبو الفضل (الدزكرين) وزير السلطان محمد والسلطان آرسلان.

السلطان معز الدين أبو الحارث سليمان بن محمد برهان أمير المؤمنين

كان السلطان سليمانشاه حسن الطبع محباً للطرب له شكل جميل وشمائل مرغوبة مع وجه في لون المرجان، وحديث عذب كالروح الحلوة، ولما رحل السلطان محمد من الدار الدنيا، أرسل الأمراء بموافقة بعضهم الآخر إلى الموصل وطلبوه واستدعوه فأرسله الأتابك قصب الدين مودود بمراسم كالتي تجرى للحكام على طريقة الملوك العظام وجاء إلى همذان في ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة. ووجد مكانه على عرش السلطنة في نفس الوقت، وجعل الملك أرسلان الذي كان يقيم عند الأتابك ايلدكز ولياً للعهد بحكم الظروف وما تقتضيه المصلحة في ذلك الوقت، وجعل اسمه قريناً لاسمه في الخطبة والسكة، وكان السلطان أرسلان يقضي أكثر الأوقات في اللهو والمزاح، وكان لا يضع كأس الخمر من يده في الصبوح والغبوق، وكان صوت العود والرباب يصل إلى عنان السماء من ذلك الجناب، فكان وجه الرأي الصواب يفسد من كأس الشراب، وكان عز الدين

وناصر الدين آقش ملازمين لحضرته دائماً وكانا صديقين له من مجلس الأنس مع الحبيب، وكانا مؤتمنين على سره في ساعة الخلوة وكان بينهما وبين موفق كردبازو حسد، دائماً كما هي شيمة المقربين من السلطان وعادة أبناء الزمان، وكان عز الدين وناصر الدين (ص١٤٥) يحرضان السلطان على القبض على كردبازو وقتله تطبيقاً للمثل «خذ اللص قبل أن يأخذك»[١] وبهذا العزم دعوا السلطان إلى منزلهما في همذان، وعلم كردبازو بهذه الحيلة، فحافظ على نفسه، فأفلتت هذه الفرصة منهما، وضاع هذا السعي كالقمر في الشتاء، وأرسل كردبازو لذلك السبب رسالة إلى الأتابك أيلدكز وقال: «يجب إجلاس الملك آرسلان على عرش السلطنة» وأخذ يرغبه ويشوقه كثيراً على هذا الأمر وكان سليمانشاه لكثرة مداومته على اللهو والطرب لا يجد وقتاً لتدبير الملك وقمع الأعداء وتقوية الأحباء، وبلغ الأمر إلى درجة أن نفر منه أمراء الدولة ونواب الحضرة برمتهم فانصرفت قلوبهم عن متابعته ورقابهم عن مطاوعته، وأصبح هو أيضاً سيئ الظن فيهم بحكم أن القلوب تتشاهد، وكانت سهام الكلام تنطلق من اللسان من كل من الطرفين، فتؤذي خاطر الطرف الآخر.

---

(١) الميداني، ج٢، ص ٢٣٠.

شعر:

جـراحـات الـسـنـان لـهـا الـتـئـام

ولا يـلـتـام مـا جـرح الـلـسـان

بيت شعر فارسي ترجمته:

تخرج السهام من الداخل إلى الخارج بدون صعوبة ولا يخرج الحديث السيئ من القلب.

فاجتمع الأمراء واتفقوا مع كردبازو واتحدوا معه في الرأي، واتجهت قلوبهم إلى إسناد السلطنة إلى الملك أرسلان فاضطرب سليمان وندم، «والغائب لا يستدرك»، وبعث برسالة إلى الأمراء قال فيها: «إذا كنتم قد مللتم حكمي فاسمحوا لي أن آخذ المال الذي أحضرته من الموصل والثروة، فقد كنت أقيم بها حياتي في الموصل، كي أعود إليها».

بيت شعر فارسي ترجمته:

حينما أذهب فأنا سلطان الزمان. فأنا قوي بالعقل والعلم، شجاع بالصبر والحلم.

(ص ١٤٦) فقال أكثر الأمراء «هذا الالتماس ليس بعيداً عن الصواب فلا يمكن إبطال حرمة السلطان دفعة واحدة»، والبعض كانوا خائفين متوجسين منه فوضعوا العقبات في طريق ملتمسه، وقالوا لا يمكن البت في هذا الأمر كله بدون مشورة إينانج الذي كان ممتازاً بين الأمراء بكفاءته وخبرته

وكياسته فأرسلوا إليه شخصاً، حتى يبين لهم وجه الصواب في هذا الأمر، فقال الأمير إينانج(١): «إذا كانت لكم كراهة له، وكانت له خصومة معكم فاحترسوا، لا تعطوا له هذه الفرصة فيذهب إلى خراسان ويجمع جنداً ويثور لطلب الملك، فيهدم بنيان المملكة وحيث إنكم قد استدعيتم الملك آرسلان فاحبسوه حتى يصل» فتصرف الأمراء وفقاً لمشورته تطبيقاً لما جاء في الشعر:

شاور صديقك في الخفيّ المشكل
واقبل نصيحة ناصح متفضل
واللَّه قد أوصى بذاك حبيبه
في قوله شاورهم وتوكل

وفي آخر رمضان سنة خمس وخمسين وخمسمائة وصل الملك آرسلان، وجلس على عرش السلطنة وحبسوا سليمان في قصر، ولما انقضى شهر على هذا الأمر، توجه السلطان آرسلان والأتابك ايلدكز لفتح أصفهان، وأرسلا سليمانشاه إلى قلعة علاء الدولة بهمذان، حيث لبى هناك دعوة الحق في ربيع الأول سنة ست وخمسين وخمسمائة، وذهب إلى جوار اللَّه الصمد، وكانت مدة عمره (ص١٤٧) خمساً وأربعين سنة

---

(١) اينانج: حسام الدين وكان والياً على الري، وقد انهزم هزيمة منكرة أمام جيش إيلدكز سنة ٥٥٦هـ.

ومدة حكمه ستة أشهر وبضعة أيام، وكان كل من شهاب الدين ثقة، ومظفر ألب أرغو وزيراً له، وكان توقيعه «استعنت باللّٰه وحده».

السلطان ركن الدين أبو المظفر آرسلان بن طغرل قسيم أمير المؤمنين

كان السلطان آرسلان من أبطال ميدان الشجاعة وملوك عالم الكرم والسخاوة وكان يتقدم على أقرانه في الكرم والفتوة، وكان عطوفاً على الأتباع والخدم والجند والحشم وكان له وجه جميل وسيرة حسنة، وشكل جذاب وسخاء مثل البحر.

بيت شعر فارسي ترجمته:

كانت الأمة تخطب بصوت مرتفع مادحة له، وكان للدولة سكة رائجة باسمه وكان بطيء الغضب سريع العفو، وكان إذا أقدم أحد من عماله على جريمة أو ارتكب كبيرة، وأوصل مرشد الشرع إلى صوت عقله نداء ﴿فأعفوا وأصلحوا﴾[1] يقرأ أية ﴿سمعنا وأطعنا﴾[2] فيعفو عنه ويدلله بآية ﴿لا تتريب عليكم﴾[3] فيصدر كتاب بلاطه العالي منشور «عفونا عما

---

(١) سورة البقرة، آية ١٠٩ وصحيحها ﴿فاعفوا واصفحوا﴾.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٨٥.

(٣) سورة يوسف، آية ٩٢.

سلف»[1] للعفو عن المجرمين العصاة، ويحرر المحررون في ديوانه أمر العفو مدرجاً فيه أسماء المذنبين الغافلين موقعاً عليه ﴿عفونا عنكم﴾[2] (ص١٤٨) ولم يخاطب مجرماً قط في حضرته بخطاب ﴿لا تعتذروا اليوم﴾[3] ولم يعاتب مذنباً قط مهما كانت ذنوبه لا حدَّ لها بلسان السلطان وكان من فرط علو همته لا يهتم بحساب أموال المملكة، ولا يلتفت إلى كثرتها وقلتها، وكان يبالغ من حسن الملبس ونفاسته، وكان يلبس حلة مذهبة مرصعة، وكان يتنعم ويتكلف في المطعم والمشرب تطبيقاً للحديث: «مالك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو ما لبست فأبليت»[4] وكان لا يتهاون في ترتيب هذين الشيئين وتزيينهما.

بيت شعر فارسي ترجمته:

أيها القادر إذا أردت أن يكون قلبك ويدك موفقين، فكل وتصدق لتظفر بالدنيا والآخرة، ولم يسمح مطلقاً في مجلسه باللغو والجفاء على لسان الأعداء والأحباء ولم يقل قولاً نابياً سراً أو جهاراً.

---

(١) يريد المؤلف أن يستشهد بقوله تعالى: ﴿عفا الله عما سلف﴾ سورة المائدة، آية ٩٥.

(٢) سورة البقرة، آية ٥٢.

(٣) سورة التحريم، آية ٧.

(٤) حديث شريف: صحيح مسلم (زهد) ص٤٢٣، سنن الترمذي (زهد) ص ٢١، سنن النسائي (وصايا) ص ١.

وكانت بداية أمره أنه حينما اختار والده حظائر القدس على مجالس الأنس، وذهب من محنة دار الدنيا إلى بهجة دار العقبى، كان هو طفلاً لم يغسل شفته من لبن الرضاعة، ولم يقم بعد من جلسة ﴿من أراد أن يتم الرضاعة﴾[١] وكان ابن عمه ملكشاه السلجوقي مثله في هذا الهم، وكان السلطان مسعود بن محمد يربي هذين الطفلين اليتيمين في صدف لطفه، ويظلهم بظل رأفته وكنف قرابته، وتطبيقاً للحديث «أكرموا اليتيم فإني كنت في الصغر يتيماً»[٢] كان يحافظ على مراعاة (ص١٤٩) جانبهم وفقا لما تقتضيه مبادئ المرؤة، وكان متعلقاً بهذين الطفلين بكل جوارحه وكأنهما ابنان عزيزان، وكان كلٌ منهما فلذة كبده، لما مرّ وقت على هذه الحالة وبضعة أعوام على هذه الصورة، أخذ صبح الحظ والإقبال يتنفس فوق رأس هذين الأميرين الذكيين، وأخذا يلبسان ملابس التكليف، ويرتديان الحلل الفاخرة، ويتنقلان من مرتبة الطفولة إلى درجة الرجولة، أخذ ظل السلطان السريع الزوال ينحسر عنهما ويزول جانب الشفقة، ويظهر

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٣٣.

(٢) حديث شريف ـ في نوادر الأصول للحكيم الترمذي، ص ١٤٥، وفي كشف الخفاء، حـ١، ص ٢٠٦. قوله (ص): «أنا وكافل اليتيم في الجنة» هكذا رواه البخاري.

بدله جانب الحسد والغرض «والحسد في القرابة جوهر وفي غيرهم عرض»[١].

وفي سنة أربعين وخمسمائة سجن هاتين الباكورتين لروضة السلطنة والثمرتين لشجرة الدولة اللذين هما «أعز من الكبريت الأحمر»[٢] في قلعة «تكريت»، وجعلهما مقيدين محبوسين، فتعرضت روحا هذين الأميرين الغاليتين وهما في عهد الصغر والصبا للخطر، وصارتا هدفاً لسهم جور الدهر، وترديا في تراب المذلة والهوان وهما درتان في درج جواهر السلطنة وكوكبان دريان في سماء المملكة في الوقت الذي كان ينبغي فيه أن ينعما بعروس المملكة وأن يمسكا بزمام التدبير لمساعدة الدولة، وسقطت قدما هذين الأميرين الملكيَ السيرة، الملائكيَ الصورة في وحل الحسرة ومستنقع البلية وكان الوقت قد حان لكي يضعا قدميهما فوق مفرق الفلك.

شعر:

(ص١٥٠) وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند[٣].

وكان الأميران الرفيعا الأصل الكريما المحتد يحاولان

---

(١) الميداني، ج١، ص ٢٠٣.

(٢) الميداني، ج١، ص ٤٢٩.

(٣) معلقة طرفة: المعلقات السبع، تصحيح أحمد عمر المحمصاني، الطبعة الثانية، طبع القاهرة، ص ١٤.

التلاؤم مع تلك المصائب برغم أنهما لم يطلعا في مكتب الدهر المليء بالنوائب على عجائب لوح التجارب، ولم يكونا قد فرغا من استذكار دروس التمييز بين الأحداث وأوراق الواجبات في الحياة، ولم يكن نقاش التدبير قد نقش لهما طريقة تدبير كل أمر عسير على لوح الضمير. وبمقتضى قول الله ﴿فاصبروا حتى يحكم الله﴾[1] كانا يصبان ماء على نار المحنة التي أضعف دخانها كثيراً من الدولة، وأخرج شرر وأثر ضررها كثيراً من الكرام من ديارهم وأموالهم.

شطر شعر فارسي: دواء الدهر الصبر عليه.

بيت شعر فارسي ترجمته:

نحن اختبرنا الصبر في شركك، لأن الصيد يتعب من كثرة التحرك في الشباك ولما كان أبناء ذلك العصر يتعرفون على كيفية أحوالهما، فقد عرفوا أن هذين الغصنين في بستان السلطنة لم يتخلصا بعد من بلائهما، ولم تحل عقدتهما وأنهما يصابران في تلك المصيبة مصابرة الشيوخ الطاعنين في السن، والمجربين الذين مارسوا الحوادث والمعمرين الخبراء بشؤون العالم، والمؤتمنين على الأسرار الذين ذاقوا البارد والحار، وأنهما يتحدثان عن المقاومة والمبارزة في ساحة ميدان المحاربة وكل واحد منهما يقول على سبيل المفاخرة.

شعر:

---

(١) سورة الأعراف، آية ٨٧.

تلتف حية ضحاك على قدمي

وكبر جمشيد[1] قد يحمي برقشاء

شعر فارسي ترجمته:

سيأتي السحر لليلي المظلم يوماً، وسيأتي الخبر عن حبيبي الغائب يوماً (ص١٥١).

وهذا الدلو الفارغ الذي ألقيته في البئر، لست يائساً أنه سيصعد ممتلئاً يوماً.

وكان عقلاء الزمان يتحيرون من حيلتهما وجلدهما، وعقلاء العالم يتعجبون من درايتهما وكفايتهما «ولا غرو من المسك أن يفوح ومن البدر أن يلوح».

بيت شعر فارسي ترجمته:

ولد البط مهما كان صغيراً، فإن ماء البحر يصل إلى صدره.

والقصة أن آرسلان كان هدفه من تحريك بنانه في هذه النكبة أن يبيِّن حاله. بقي مدة بلا نتيجة، وكان دائماً يتضرع إلى حضرة ذي الكبرياء والعز والعلاء ويصل النهار بالليل على أمل أن ثمرة الصبر نجاح الظفر، وكان يدعو في وقت الأسحار الذي تكون فيه إجابة الدعوات بصدق وإخلاص بهذا الدعاء:

---

(١) جمشيد/ من ملوك إيران الأقدمين.

بيت شعر فارسي ترجمته:

لقد انكسر قلبي من يتمي بفقدان أبي، فيا أم الأيام لا تطلبي لي صدمة أخرى، فلما ذهب السلطان مسعود إلى جوار رحمة المعبود، وانهزم الأمير حاج بلال من جيش خليفة بغداد، وجاء وطلب من السلطان محمد بن محمود أن يأذن له بجمع الجند والتوجه إلى بغداد وافق السلطان بعد أن قال بلال له: «ليكن لنا الله حامياً دائماً في هذه المعركة لأنه حينما يقوم أمير المؤمنين المقتفي بنفسه للقتال فإن الجند بدون حماية اللَّه وقيادته وهو صاحب الملك والعرش لن يخرجوا سيف المقاتلة من غمد المخاصمة وسيظنون أن البدء في المحاربة ـ والحالة هذه محرم ومحظور، وحيث إن السلطان لم يتحمل هذه المشقة بنفسه، فينبغي أن يستدعي واحداً من هذين الأميرين (ص١٥٢) اللذين يقيمان في قلعة تكريت ولهما طبع الملائكة وهما يطلبان الملك ليحمل تاج السلطنة في مواجهة الخلافة، فوافق السلطان فذهب مسعود بلال وأخرج آرسلان من تكريت وكان هو أحد المحبوسين وبعد أن تعانق مع عروس المراد، ذهب إلى بغداد.

بيت شعر فارسي ترجمته:

كن أولاً منكسر الخاطر لأن يوسف بلغ أوج سرير الملك بعد أن جاور قعر البئر.

وأعد المقتفي جيشاً، وجاء إلى المعركة، وتصادف أن انهزم جيشه وانفرط عقده، وأخذ قوم العجم في الإغارة والظلم،

وشغلوا بذلك فرجع جند بغداد مرة بعد أخرى، فصار حتماً على العجم أن ينهزموا ومضى ما مضى، وحينما رحل السلطان محمد من الدنيا بعد ذلك وقع الملك في يد السلطان سليمان، وبناءً على الأحداث التي سبق ذكرها في الفصل السابق، عزل الأمراء سليمان، وتقرر بإجماع القوم الذين كانوا أهل الحل والعقد، أن تكون السلطنة للسلطان آرسلان، فاستقر على عرش السلطنة، وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة توجه مع الأتابك ايلدكز من ساوه إلى أصفهان، وكان والي أصفهان في ذلك الوقت عز الدين صتماز فانهزم من السلطان في بداية الأمر وكان هو أيضاً متفقاً في المخالفة مع الأمير حسام الدين اينانج، الذي كان من مخالفي الدولة ومعاندي حضرة السلطان، فاستدعى الملك محمداً من فارس حتى يأتي وينتزع الملك من يد أرسلان، فجاء الملك محمد ووقعت بالقرب من قلعة فرحين (ص١٥٣) حرب عظيمة بينه وبين السلطان أرسلان، وصارت الهزيمة لازمة لمحمد في نهاية الأمر فتوجه صوب خوزستان «ومن ينصره الله فلا غالب له» وبعد هذا الفتح بدت لملك الأبخاز(*) رغبة التصرف في مملكة الإسلام فاشتد في غصب أموال المسلمين، وهتك

(*) الأبخاز: ناحية في جبل قبق المتصل بباب الأبواب تجاور بلاد اللان، وهي بلاد ذات جبال وعرة صعبة المسالك، يسكنها الكرج من النصارى.

حرمتهم، فتوجه السلطان آرسلان الذي كان يمتاز بتأييد السماء له، وبان فيه خصائص الحاكم المعمر للعالم - إلى ديار الكفر للمحافظة على بيضة الإسلام بمقتضى قوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾(١) حتى يجلب الدماء على ديار هؤلاء الكفار، فلما تقابل الجيشان قاتل أبطال جيش الإسلام بقوة، تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾(٢) وأبدوا رغبة كبيرة في التزوج بأرواح الكفار، فحدث قتل كثير حتى أن السيف الفولاذي القلب بكى دماً من كثرة جريان الدم المسفوك، وصار حداً لسنان أحمر مثل رأس اللسان.

وفي الوقت الذي كان فيه جيش الإسلام مشغولاً بأداء هذه المهمة انتهز الملاحدة المخاذيل هذه الفرصة، فبنوا على بعد أربعة فراسخ من قزوين ثلاث قلاع حصينة، ورفعوا بناءها إلى أعلى عليين، فلما علم أهل قزوين بفعل هؤلاء الملاعين للنيل من الدين، جاؤوا إلى حضرة السلطان وأخبروه بوقوع هذه الواقعة وبكيفية تلك الحادثة فعزم السلطان على الجهاد، وتوجه للقتال، وخرب تلك القلاع الثلاث بتوفيق من البارئ عزّ شأنه في خلال مدة أربعة أشهر وكان الملاحدة يباهون كفرعون بمنعة هذه القلاع وأوصلوا

---

(١) سورة الحج، آية ٧٨.

(٢) سورة البقرة، آية ١٩٣.

صيتها إلى أرجاء الدنيا بل (ص١٥٤) أوصلوه إلى السماء السابعة. ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾[١] ثم توجه الجيش القوي من قزوين إلى ولاية قهاب[*] للاستيلاء على قلعة هؤلاء الجهّال الأرذال التي بنوها على رأس صخرة شماء فوق مفرق جبل حتى ترفع رأسها إلى السماء، واستولى على هذه القلعة في مدة وجيزة ودعا المسلمين إلى المحافظة عليها حتى تكون شاهداً على التحول من الكفر إلى الإسلام ومن السواد إلى البياض، فاشتهرت هذه القعلة باسم «قلعة جهانكشاي».

وقد روى مفسرو الأخبار ومبينو مشكلات الآثار أن هؤلاء الملاحدة الميتة قلوبهم الذين سيقول كل واحد منهم يوم القيامة ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾[٢] وجدوا فرصة للقيام بهذا العمل القبيح في عهد السلطان مسعود وأنه عسكر بكل جيشه ثلاثة أشهر متتالية بالقرب من هذه القلعة العالية، ولما كاد أن يوقع هؤلاء المردة الفجرة في دوامة الحسرة ومستنقع المذلة حتى ظهر خلاف بين أمراء الجند المختارين وهو أمر من الأفعال الذميمة والأوصاف القبيحة، وبسبب هذا الخلاف

---

(١) سورة النمل، آية ٥٢.

(*) قهاب ناحية ذات قُرى كثيرة من أعمال أصفهان.

(٢) سورة النبأ، آية ٤٠.

ذهب الجهد في خلال تلك المدة هباءً منثوراً، وتفرقوا، وانطبق عليهم القول «نحن كما كنا والعناء زيادة». وفي الجملة فقد تحقق هذان الفتحان بتوفيق من الرحمن في عهد أرسلان وتولى الملاحدة كما تولى الأمس مقهورين مخذولين، وجاء السلطان إلى أصفهان بعد نيل المقصود والمطلوب مظفراً منصوراً في آخر سنة تسع وخمسين (ص١٥٥) وصار الأعداء مقهورين والأولياء مسرورين والأمراء برمتهم محكومين ومأمورين إلا إينانج الذي كان قد التجأ إلى بلاط ملك مازندران، ووضع على جبينه سمة العصيان، وقد أصبح هو أيضاً ـ في نهاية الأمر نادماً، وأخذ يبحث عن طريق الصلح فأرسل ملك مازندران ـ بالتماس منه ـ رسولاً ذلق اللسان إلى حضرة السلطان وتشفع له حتى يمحو بماء العفو والتسامح الغبار الذي على لوح ضمير السلطان العديم النظير من فعله، يقرر المخططات والبلاد وفقاً للقاعدة المعمول بها، فوافق السلطان وأعطى وعوداً جذابة «والعفو عند الاقتدار من علو الأقدار» فلما رجع الرسول وسمع اينانج خبر وفاة شرف الدين كردبازو الذي كان من الأمراء المشفقين والناصحين المحقين. وأبطال ساحة الشجاعة، ورجال ميدان المبارزة، تجدد الطمع فيه، والتمس زيادة المخصصات والإنعامات، فلم يكرم السلطان الرسول مرة ثانية، ولم يجب وفق المرام، فذهب اينانج إلى

خوارزم شاه، وطلب منه مدده، وتوجه إلى العراق، وكان السلطان بمرعى شروياز ﴿بواد غير ذي زرع﴾[١] آية الدنيا، والرحمة السبحانية وخاتم نبوة السلطنة وزبدة الأسرة الجنكيزخانية ومحيي المراسم الإسلامية، حاكم أقاليم الدنيا ومظهر كلمة الله العليا، الناصر لدين الإسلام والهادم لسائر الأديان (ص١٥٦) الخان بن الخان المكنون سلطاناً عن الماء والطين غياث الدنيا والدين الجايتو السلطان محمد خان.

شعر فارسي ترجمته:

العمر للعالم الذي جاء بلا مثيل وقرين وشبيه ونظير،
ذو العلم والحلم واللين والقوة والعزم والحزم والفخر والعظمة.

السلطان الذي له من وقت الجود والحرب والحب والبطش،
كف حاتم وجسم رستم ونفس عيسى وقلب حيدر.

لا زالت إعلام سلطنته في الخافقين خافقة، وألسنة البرية بدعائه ناطقة فقد حول ذلك المكان بواسطة المهندسين المهرة الذين أتى بهم من كل جهات العالم. إلى مكان يشبه الفردوس ذي عمارات جذابة وحدائق كالجنات تهب الحياة، وقد زين المدن والبلاد في سائر أنحاء الأرض تطبيقاً لقوله تعالى ﴿لكم في الأرض مستقر ومتاع﴾[٢] وأقام فيها

---

(١) سورة إبراهيم، آية ٣٧.

(٢) سورة البقرة، آية ٣٦.

العمارات الجميلة، جمال جدائل فاتنات الصين، ولم يقم غيره مثلها، بحيث لا تنطبق إشارة ﴿هذا البلد الأمين﴾[1] الأعلى هذه القلعة الحصينة، والحصن المتين لتلك الجنة العلوية التي أوجدها في ذلك المكان ولا يوجد مصداق قوله تعالى ﴿لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً﴾[2] إلا في أرض تلك الصحراء التي صارت جنة، ففيها روضة مثل روضة الجنة جذابة، وفيها مرعى جميل مثل جناح الطاووس وفيها مكان للحفل مزين محفل كاوس ومجلس كيكاوس، وفيها سوق مزينة مثل وجوه جميلات كشمير والعرائس الفاتنات، يباع فيها كل متاع في الأصقاع والأرباع والأرجاء (ص١٥٧) والأنحاء، ﴿ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين﴾[3]. يعرض على أنظار البرايا، ويتوجه إليها المسافرون أخوة يوسف، لإيفاء كل مقصود من تلك السوق التي تشبه مصر، وتبدو فيها مناظر الجنة.

شعر فارسي ترجمته:

أركانها متصلة بمدارج الأفلاك، وإيوانها يساوي في الارتفاع مطالع الشمس انتصرت على الفلك بارتفاعها، وحازت قصب

---

(١) سورة التين، آية ٣.

(٢) سورة النبأ، آية ١٥.

(٣) سورة الزخرف، آية ٧١.

السبق على الجنة بجمالها، إيوانها عالٍ كأبراج الفلك، وأركانها قوية كأركان العالم. وحيث إن سلطان الإسلام ـ نصر الله لواء عدله في أقطار الأرض ذات الطول والعرض دهراً طويلاً، ووفقه لإشاعة المعدلة المكرمة على كافة البرية بكرة وأصيلاً ـ أراد أن يجعل تلك المنطقة معمورة العالم فيها مساكن لبني آدم، ومقراً تصدر منه أحكامه النافذة كالقضاء، ومكاناً يجري منه أحكامه السارية كأحكام القدر فقد اتخذ تلك المدنية داراً لملكه وخصها بهذا التشريف، وجعلها تشتهر باسم «السلطانية» وأية حاجة إلى تقرير خصائص تلك المدينة المطمئنة بعد أن اتفق العوام والخواص عليها وأية ضرورة لازمة لكتابة أوصاف تلك البلدة الطيبة؟

بيت شعر فارسي ترجمته:

جنون أن عمل رداء للكعبة، فيكفي أن ترى جمال الكعبة نفسها.

والقصة أن اينانج ذهب إلى حدود الري بعد أن كان قد جمع جيشاً من أهل الشرك والفساد، وأعطى للخيال الفاسد طريقاً إلى رأسه الفارغة وحاصر قلعة طبرك(*) (ص١٥٨) ولما يئس من فتحها فكر في الهجوم على أبهر(**) وزنجان بالجيش

(*) قلعة طبرك قلعة على رأس جبل بمدينة الري.

(**) أبهر مدينة بين قزوين وزنجان وهمذان من بلاد الجبل.

الذي كان قد أحضره معه من خوارزم، فتوجه السلطان أرسلان من شروباز إلى زنجان(***) على مركب العز والدلال بحظ مساعد وإقبال مناصر.

شعر:

جمال العلا في موكب هو قلبه

وزين الهدى في مجلس هو صدره

ووصل الأتابك ايلدكز من آذربيجان، فلما سمع اينانج خبر مجيئه عاد من أبهر، ونهب كثيراً من أموال المسلمين في تلك الولاية، وترك كثيراً من الأمهات منكوبات بفراق الأبناء الذين اختطفهم، فأبقى أمهاتهم في تراب المذلة والهوان، وارتفع من بيت كل شيخ وشاب بسبب جور هؤلاء المغيرين صياح «وأسفا على يوسف»، وعيون الآباء باكية بسبب فراق قرة العين بدموع تشبه دموع سحاب الربيع، وترجل الأغنياء بسبب تلك الحادثة من مطية العناء ووقع الفقراء بسبب تلك النائبة في المشقة والعناء. وفي الجملة توجه اينانج صوب خوارزم وخراسان بعد الإغارة والنهب بلا حدود، وأقام السلطان شتاء وذلك العام في الري، وفي وقت الربيع دق السلطان وهو ربيع الدولة، وشجرتها العالية طبول الملك،

(***) زنجان: بلد كبير في إيران من نواحي الجبال قريب من أبهر وقزوين.

ورفع راية الفتح في الوقت الذي دق جيش الزمهرير طبول الرحيل، وأشعل فراش الربيع شمع الأزهار لتتزين الأشجار، فظهر أثر الربيع وعظمته في صحن البساتين، فصارت كالجنات، وبدت مظاهر الجنة بمجيء طلائع جيش الربيع في كل مكان في الحدائق والوديان.

بيت شعر فارسي ترجمته:

(ص ١٥٩) جاءت البلابل تتعبد في الورد، وسكر العشاق بدون خمر.

ذهب السلطان إلى نعل بندان بالقرب من مشهد وتوجه الأتابك إلى آذربيجان، وفي ذلك الوقت دار برأس (عمر علي يار) هوى العصيان وكان حاكم ولاية وكانت قلعة طبرك تحت تصرفه وأخذ يسلك طريق التمرد والطغيان، وكان لا ينفذ أحكام الحكام اعتماداً على ارتفاع القلعة ومنعتها، فاستدعاه السلطان، وألقاه في وهدة الحبس والقيد في ساوه. مثل: «أعطِ أخاك تمرة فإن أبى فجمرة»[١]. ولما سقط (عمر علي يار) من الحكم إلى المشقة والبؤس بسبب طمعه، كما جاء في شعر هذا البيت: «وتقطع أعناق الرجال المطامع»[٢] ووصل خبر مصيره إلى أطراف العالم وأكنافه، وخلت دار

---

(١) الميداني، ج١، ص ٤٠٩.

(٢) شرح العتبي، ج٢، ص ٢٩١.

الملك الري من وال صاحب شوكة، قصد اينان الري مرة بعد أخرى وتارة بعد أولى بهدف القتال بجيش لا نهاية له كان قد أخذه من ملك مازندران وحاكم طبرستان، فأرسل السلطان نصر الدين بهلوان عدداً من الأبطال الشجعان مثل رستم دستان ومثل أبطال زابلستان لقتال اينانج، وتقابل الطرفان في صحراء الري فحلت الهزيمة أولاً باينانج ثم حلّت بعد ذلك بجيش السلطان، وأصبحت مملكة الري تحت تصرف اينانج إلى سنة أربع وستين حينما جاء الأتابك ايلدكز بجيش لا نهاية له من آذربيجان للرد على اينانج وقمعه بالقرب من الري، وقبل أن يذهب اينانج إلى ميدان القتال كان يعرف أنه ليس الرجل الذي يتصدى لهذا الجيش في ميدان، وليس صد (ص١٦٠) هؤلاء القوم في مقدور إنسان «ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه» ففكر في الصلح، وبعث رسلاً، وجهز وسطاء، وطلب الأمان، وقرر أن يذهب لتقديم الولاء للأتابك، ويذهب معه إلى حضرة السلطان، لأن اينانج كان يعتمد على أن السلطان رجل كريم وملك رؤوف رحيم، وأنه لن يتخلى عن عادته القديمة ولن يغرق سفينة وجوده، ولن يظهر عرق الغضب على جبينه، وتصادف أن قتلوا اينانج في تلك الليلة التي كانت المقابلة بين الأتابك ايلدكز واينانج ستتم في اليوم التالي لها، ولم يعرف أحد القاتل ولم يره، وتوجه أتباع اينانج المقربون ـ الذين كانوا مجرمين ومتهمين

كأخوة يوسف ـ إلى صحراء لا نهاية لها وتفرّقوا كما تفرق قوم سبأ وجاء السلطان من خرّقان(*) إلى الري، واستعادت السلطنة رونقها الأول وزالت أسباب الاضطراب.

بيت شعر فارسي ترجمته:

الأيام وفق المرام والأفلاك مطيعة، والكواكب منقادة تابعة.

وفي شهور سنة تسع وخمسين هاجم ملك الأبخاز الذي جاء ذكره في المقدمة بإيجاز مرة أخرى بلاد الإسلام، فلما قرأ ملهم العقل في أذن عقل السلطان هذا البيت:

بيت شعر فارسي ترجمته:

هذا واحد عدو للدين فتصدى لرده، والله يحفظك إذا قام بمثل هذا العمل مائة ألف مرة (ص١٦١) وواصل مبشر بشارة الإقبال هذه الإشارة إلى سمعه المبارك وهي شعر يقول:

ويل لمغرور عصاك فإنه

متعرض لمخالب الضرغام

اجتمع السلطان والأتابك وأمراء الدولة في نخجوان(*) ليذهبوا جميعاً إلى هناك ويقهروا ملك الأبخاز(١)، وتصادف

(*) خرقان: قرية من قُرى بسطام على طريق استراباذ.

(*) نخجوان: بلد بأقصى آذربيجان.

(١) الأبخاز: ناحية في جبل قبق المتصل بباب الأبواب، تجاور بلاد اللاّن يسكنها الكُرج من النصارى.

أن انحرف مزاج السلطان المبارك مدة قصيرة عن حد الاعتدال فحملوه إلى قلعة كنديار فتوجه الأتابك والجيش من هناك إلى الأبخاز ولم يكن للأبخاز الذي كان بطلاً مجازياً قوة على مقاومة جيش السلطان الغازي المظفر، فالتجأ إلى الجبل وخرب جند الإسلام بلاد الأبخاز وأحرقوها.

بيت شعر فارسي ترجمته:

جيش لم يجرب قهر الهزيمة، جيش لم يذق سم الفرار

فلما رجعوا أكرم السلطان الأتابك والأمراء إكراماً بلا حدود وجاء إلى همذان. وكما هو منقول من رواة الأخبار كان للسلطان أم اتفق جمهور الخلق على تدينها وفعلها الحسن ورعايتها للرعية وحبها للتعمير، وكانت زهراء الدهر، وحميراء العصر وزبدة الوجود وبلقيس الدهر، وكانت عند أبناء الزمان «أعز من الزباء في اليونان».

شعر فارسي ترجمته:

لم يكن للشمس مجال للتحرك في مجال كرتها، حتى المسمي لم يضع اسماً مؤنثاً لها، تخضع الشرف لإرادتها ولا تستطيع جارياتها أن يحضرن اللؤلؤ إلا في صورة الكافور حتى لا تجعل اسمه لالا.

وكم قدمت تلك الأم سيدة العالم من لطف وإحسان لعلماء الزمان وأفاضل الدهر وكم أمرت بخيرات ومبرات وإنعامات وصدقات (ص١٦٢) من أجل أهل العالم، لا يدخل شرحها في حيز القلم الذي هو سفير كلمات اللسان،

ولا ينمحي ذكرها من صحائف الأيام على تعاقب الشهور والأعوام ما حان الحين وآن الأوان، وقد انتقلت في ذلك الوقت إلى جوار رحمة الله، فمرض السلطان لوفاة تلك الكاملة في أسرة المملكة، والعاقلة في عائلة الدولة، وانكسر ظهر قوته، وكان العويل يصدر في تلك الكارثة من قلب الملك والحارس، وقد صبغ كوكب الزهرة في تلك الحادثة والمصيبة رداءه الذهبي فجعله أزرق مثل السماء، ووضع المشتري رداء السرور في اللون الأزرق حزناً واتجهت دولة السلطان نحو النقصان.

شعر:

وما كان قيس هلكه هلك واحد

ولكن بنيان قوم تهدما

ولما مرّ شهر على هذه المصيبة سقط الأتابك ايلدكز الذي كان فارس ميدان الشجاعة وسوار ساعد المملكة من فوق راحلة الحياة في ميدان ﴿كل مَنْ عليها فان﴾[1] وترجل من فوق حصان الدنيا، وكان السلطان بعد ذلك قد قل مرضه وأخذ من يد ذوّاقي لطف الله غذاء ﴿إذا سلمت فكل الناس قد سلموا﴾[2] فتزوج السيدة المعظمة فاطمة أخت علاء الدولة الهمذاني، وذهب في جمادى الأولى من سنة إحدى

(١) سورة الرحمن، آية ٢٦.

(٢) شطر بيت من الشعر.

وسبعين وخمسمائة إلى منزلها، وفي هذا الشهر نفسه أيضاً، لما جاء أمراء الدولة على معهاد عادتهم إلى بلاط السلطنة نادى منادي الحضرة الإلهية ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾[(١)] وسمع القوم النداء الذي جاء في بيت شعر فارسي ترجمته «اليوم ليس يوم رؤية ذلك السلطان» وتوجه ذلك السلطان السعيد إلى حضرة ﴿فعّال لما يريد﴾[(٢)] فتكدرت ضمائر الأمراء والعامة الروعايا في تلك الحادثة الشنعاء.

بيت شعر فارسي ترجمته:

لم يبق من الملك والدولة شيء ولكن ما الفائدة لأن هذا مسطور في الأزل فإذا نشر صقر الأجل جناح قهره، يستوي أمام ضربته العقاب والعصفور وكانت مدة عمره ثلاثة وأربعين عاماً، وكانت مدة حكمه خمسة عشر عاماً وسبعة أشهر ونصف شهر، وكان وزيراه شهاب الدين ثقة وفخر الدين بن معين الدين المختص وكان توقيعه: «اعتصمت بالله وحده».

---

(١) سورة السجدة، آية ١١.

(٢) سورة هود، آية ١٠٧.

السلطان الأعظم ركن الدين والدنيا معز الإسلام والمسلمين أبو طالب طغرل ابن آرسلان قسيم أمير المؤمنين

كان كمال دولة السلطان الراحل طغرل السلجوقي وحسن إقباله ووفور قوته وحظه أكثر من أن تستطيع العبارات أن تصل إلى شرح جزء قليل منها أو أن يدخل عشر معشارها في حيز الوصف وقد حظي بالتأييد الإلهي والعناية والأبدية التي تؤدي إلى السعادة الأبدية وتجلب الخطوط السرمدية، وقد وصل إلى مراده بدون مشقة الحرب (ص١٦٤) وضم إلى جواره عروس المملكة بدون تعب، وقطف بدون تحمل مشقة الزراعة ـ ثمار السلطنة من شجرة الدولة وادخر ذكراً حسناً بفضل رعايته للرعية، وإشاعته الخيرات والإنعام على الرعايا والرعاة والوقوف في وجه الأطماع، ورد الحقوق المغتصبة، وإلغاء رسوم أهل العدوان وصار يشار إليه بالبنان في الإحسان إلى أهل العالم كافة وسعى سعياً جاداً في إحياء مبادئ الأجداد، وتجديد رسوم الإسلام فلم يظهر انحراف في

عهد سلطنته إلا في شعور جميلات الصين، ولم تثر فتنة إلا من عيون الفاتنات المدلللات، وكان هو نفسه يجمع أنواع الكمال النفسية وسائر خصائص الحاكم المعمر للعالم، وكانت له صورة مستحسنة وسيرة مختارة، وكان مزيناً بالعلم والفضل، ومحلى بالعقل والفضل وكان خبيراً بفنون القول، وله شعر جميل سلس كماء الحياة، وكان يأمر دائماً بتعظيم العلماء والإنعام على الفضلاء، وكان يعتقد أن إرضاءهم وسيلة لازدياد رونق الأمور، وقضاء مصالح الجمهور، وكان يقدر شيخ الإسلام الرباني بايزيد الثاني ظهير الدين البلخي الذي كان مذكوراً في عهده بكمال العلم وغزارة الفضل ومشهوراً بالتقوى والتدين، وكان له معتقدات صادقة، وصفاء صوفي، وكان السلطان يذهب في أثناء الليل بقدم الإرادة للاستراحة في زاوية الشيخ ويتشاور معه في مصالح الملك والدين وكان يصيب أمراء الدولة غصة من هذا التصرف، ولكنهم كانوا عاجزين فلا حيلة لهم ولا تدبير فبدأوا جميعاً ينافقون للسلطان، وقرروا بالعهود والمواثيق أن يكونوا يداً واحدة، وأن يعملوا على محاربة السلطان، فعرف الشيخ بالفراسة وبالقرائن (ص١٦٥) القولية والفعلية وقال للسلطان «طبقاً لإباحة مبدأ ذكر مساوئ الشخص لمصلحة الغير» ورعاية لحقوق صداقته للسلطان ـ هذا الشعر:

شعر فارسي ترجمته:

إذا ظهر أمر بدون تدخل مني، فلا يجوز لي أن أتحدث فيه ولكن إذا رأيت صديقي أعمى وأمامه بئر، أكون مذنباً إذا جلست صامتاً فصار السلطان لا يهتم بالأمراء ، وأظهر هذا في تصرفاته، فأخذ الأمراء يستعينون بكل حيلة ومكر لعلهم يأمنون غضب السلطان، وكتبوا رسائل لقتلغ اينانج الذي كان ساكناً في الري شكاية في السلطان قالوا فيها: «إنه يقضي أكثر أوقاته في منزل ظهير الدين البلخي وهو يرى كل الأمور التي نعملها مخالفة للصواب ويظن أنها خطأ، وقد أهلمنا وراء ظهره وعدنا كالعدم» والتمسوا منه أن يوافق ويأذن لهم بأن يقبضوا على السلطان بعد التشاور مع السيد علاء الدولة الهمداني ووضعوا هذه الرسائل في جوف عصا، أعطوها لمسافر حتى يحملها إلى الري، ولم يكتفوا بهذا التدبير، فكانوا يوقفون في أثناء الليل ـ قطاع الطرق والأوباش وأشرار الناس على مفترق الطرق فلعلهم يستطيعون بهذه الوسيلة قتل السلطان ولما لم يكن هذا التدبير موافقاً للتقدير فإن السلطان علم به، وكان يتحرك باحتياط.

شعر:

يـــريـــد الـــجـــاحـــدون لـــيـــطـــفـــئـــوه

ويـــأبـــى الـــلَّـــه إلا أن يـــتـــمـــه

وذهب المسافر إلى الري، والتقى في أثناء الطريق بابن سراج الدين قتلغ آبه الشرابي (ص١٦٦) وحاول المسافر

أن يتعرف على مكان، ولسوء حظ المسافر أصابه الملل كما هي عادة ذوي الحظ السيئ، فلم يحسن الإصغاء، كما ينبغي لابن سراج الدين فغضب من عدم الاعتناء بكلامه، فرفع رمحاً ثقيلاً كان في يده لينزل به على رأس ذلك الجاهل، فرفع العصا ليصد بها ضربة الرمح ـ محافظة على نفسه ـ فوقع الرمح فحطمها وتكسرت فسقطت كل رسالة في ناحية.

بيت شعر فارسي ترجمته:

انظر المتاعب التي يجلبها الدهر، حتى يقضي على طاقة الصبر.

فقرأ ابن سراج الدين الرسائل، ولما اطلع على حقيقة الحال حث السير وذهب إلى حضرة السلطان، وعرض الرسائل عليه فلم ينجح هذا التدبير، وتربح هذه التجارة.

ولم يخرج السلطان في اليوم التالي حينما جاء أركان الدولة إلى الحضرة وفقاً للعادة المتبعة وطلب الإختلاء بالسيد فخر الدين علاء الدولة الذي كان متهماً بهذه الكبيرة وكان متفقاً مع تلك الجماعة، ونظراً لأنه كان من بيت النبوة ومن أسرة صاحب الرسالة، وكان يتميّز بالسيادة والانتماء إلى أسرة الولاية على المسلمين، فقد ألبسه خلعة العفو وسقاه جرعة اللطف والرحمة، وعرض صورة الأمر على رأيه الرزين، ثم طلب بعد ذلك السيد الوزير العزيز وأبناءه الموفق حارس القصور والظهير الكاتب، والشهاب المسؤول عن

المؤن وقتلغ الطشتدار وعدداً من الأشخاص الذين كانوا متآمرين معهم في تلك الواقعة، وكان يعطي كل واحد منهم رسالته (ص١٦٧) ويقول له: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾[١].

بيت شعر فارسي ترجمته:

إذا كان كومة من الشوك فأنت الذي زرعته

وإذا كان حريراً فأنت الذي نسجته

فابتلوا بشوك الفم طائعين أو مكرهين وشربوا كأس الألم المرير الذي لا دواء له، وسقطوا في مستنقع الحيرة والمذلة في ذلك اليوم الذي كانت صفته أنه ﴿يوم تبلى فيه السرائر﴾[٢] وقيد هؤلاء العصاة بأمر السلطان وحبسوهم في قلعة همذان. وبعد ذلك التجأ هؤلاء المتحيرون في بادية المحنة والمقيمون في سجن المشقة ـ طوعاً أو كرهاً ـ إلى جناب المجد والمعالي شيخ الإسلام البلخي وقالوا له: «إذا عفا السلطان على هؤلاء النفر السيِّئي الحظ المضطربين. كالطير الحبيس والبعيدين عن كوكب السعادة، وخط بقلم العفو عن زلتنا، فإننا نتنازل عن كل ما نملك من أملاك ومتاع «لولاه لم تقطع يمين السارق» ونعرض تماماً كل أعراض الدنيا؛ وننقاد لحكم الله في قوله ﴿وأنيبوا إلى

---

(١) سورة الأسراء، آية ١٤.

(٢) سورة الطارق، آية ٩.

ربكم﴾[1] ونمتثل أمر الله في قوله ﴿توبوا إلى الله﴾[2] ونقرأ على أنفسنا المتمردة قول الرسول «موتوا قبل أن تموتوا» ونلتزم بترك المحرمات والأشياء المنهى عنها ونعدّه فرضاً على أنفسنا أن نلازم طرف السجادة المقدسة مقل المريدين الآخرين حتى نخرج من ميدان الدنيا الفاسدة». فعرض شيخ الإسلام هذا الكلام في حضرة السلطان وقال: «إذا لم يقدم المجرمون العصاة والمخطئون الساهون على المعاصي والمحرمات فمن أين يجد السلطان لذة ثوب، ﴿والكاظمين (ص١٦٨) الغيظ والعافين عن الناس﴾[3] وإذا لم يرتكب المجرمون الجرائم فكيف يصل تذوق أجر ﴿فمن عفا وأصلح﴾[4] إلى حلق سلاطين الزمان؟».

شعر:

ترفق أيها المولى عليهم، فإن الرفق بالجاني عتاب.

شعر فارسي ترجمته:

لأن الدنيا الغدارة فانية، فإنها إذا وصلت إليك لا تلبث أن تتركك.

فاعف عن كل ذنب تراه، وسامح كل من سمعت منه جفاء.

ففكر السلطان في هذا الأمر، وكان مستقراً على أن يعفو عن

---

(١) سورة الزمر، آية ٥٤.

(٢) سورة التحريم، آية ٨.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٣٤.

(٤) سورة الشورى، آية ٤٠.

جريمتهم، وتصادف أن ذهب إلى القلعة يوماً في تلك الأثناء لمعاينة عمارتها فصعد قتلغ الطشتدار إلى أعلى القلعة وكان فيه حمق ورغبة في أن يجازف بروحه ويقفز ليرجع إلى الوطن، فسل لسانه وبدأ في توجيه الشتائم للسلطان وقال له: «لقد كنت مشتركاً في تدبير هذه المؤامرة لأقضي عليك وألحقك بأبيك، ونظراً لأن حظك يقظ وحظي نائم فإن الفرصة لم تسنح، والآن لماذا التباطؤ في قتلي؟!!».

بيت شعر فارسي ترجمته:

لا أعطي وعداً فهيَّا حيث أوجد أنا والقتّال، ولا أريد مهلة فتنبه حيث أوجد أنا والجلاّد والأخشاب. فاقطع رأسي وأفعل ما تريد «واليأس إحدى الراحتين» وقديماً قالوا:

بيت شعر فارسي ترجمته:

كل من ينفض يده من روحه، يقول كل ما يريد.

(ص ١٦٩) فقال السلطان: «أي حقد فيك لأبي الذي منحك نعم هذا العالم، وأوصلك من العبودية إلى السيادة؟ وأي مؤامرة فعلتها ضد ولي نعمتك؟»[١] فقال: «إن السيد علاء الدولة قد أعطاني بتوجيه من الأتابك محمد عشرة آلاف دينار من الذهب الأحمر حتى أقتل والدك في الحمام، وأُرسلُ حمام روحه من قفص الجسد إلى صحراء الموت» فغضب

(١) الميداني، ج١، ص ١٤.

السلطان من هذا الكلام الخطير، وأغمض عين الرحمة، وأمر بقتل هؤلاء المحبوسين.

شطر بين من شعر فارسي:

إن البلاء موكل بالمنطق.

وبرغم أن السيد علاء الدولة كان معفواً عنه في الجريمة الأولى غير أنه نظراً لأن هذه الكبيرة انضمت إلى القضية الأولى ولأنه كان يُعدّ بين هؤلاء القوم أول الجريدة وواسطة العقد وسر المسألة وبيت القصيد، وأن «زلة العالم يضرب بها الطبل»[1] فقد أخذ يفكر في وسيلة للقضاء عليه، وحيث إن قتل مثل هذا السيد كان أمراً بعيداً عن الدين والعمل الطيب لأنه كما جاء في شعر فارسي ترجمته: له صلة بالنبوة في نسبه وبالسلطنة في حسبه فإن السلطان كان يتردد في الإقدام على هذا الأمر ويتريث في تنفيذه.

وفي ذلك الوقت كان السلطان يذهب من همذان فالتمس منه أن يوافق على السفر معه، وأن يهاجر من وطنه الأصلي، فتمارض السيد علاء الدولة وتكاسل ولكن لما بالغ السلطان في الإلحاح عليه في الرغبة في مصاحبته، لم يجد وسيلة غير الإطاعة، ولما صارا على بعد منزلين من همذان (ص١٧٠) أخرج الشيطان الرجيم السلطان الرحيم عن جادة الصواب، وأشار على السلطان بقتل ذلك السيد، فرموه بسهم وأرسلوا

---

(١) الميداني، ج١، ص ٢٨٦.

جسده ليدفن في همذان ولم تكن هذه الحركة المذمومة مباركة على السلطان، فاختلت بواسطتها أمور السلطنة وكسدت سوق المملكة، فسقط السلطان مدة في ورطة البلاء وبادية النكبات ونهض لقتاله الأتابك آرسلان(١) وتحرك من آذربيجان فترك السلطان عاصمة ملكه، وتوجه إلى أذربيجان وجاء الأتابك آرسلان من خلف السلطان، وأغار على معدات وأموال لا عد لها وهرب السلطان بعد ألف حيلة وذهب إلى القفجاق، وأرسلوا إلى الأتابك تشريفاً ومنشوراً من دار الخلافة وأصبح أمر المملكة مقرراً له، وبعد مدة جاء السلطان إلى همذان وترك أسباب الملك وراءه ظهرياً، وأهمل عرش السلطنة وأشاح بوجهه عن عروس الدنيا الغدارة.

شعر:

شؤوم ملول لا يدوم لصاحب
نشوز فروك لا يجيب لخاطب

أقام في موطن أسلافه وأجداده الذين كانوا ملوكاً متدينين ومظفرين خيرين ومنصفين يقضون على الظالمين ومنتصفين يدللون المظلومين، ثم بعد ذلك حدث بمشورة وتوجيه من

---

(١) يقصد الأتابك قزل آرسلان الذي كان من أشد منافسي السلطان طغرل ابن آرسلان وسيطر قزل آرسلان على السلطنة وتزوج بالخاتون زوجة أبيه جهان بهلوان وأعلن نفسه سلطاناً سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م.

الأتابك آرسلان أن جاء أمراء العراق والمقيمون في دار النفاق المخربون أساس الوفاق ـ في أثر سلطان الآفاق، وقالوا له: «لقد انفصلنا عن الأتابك آرسلان مراعاة لسوابق الحقوق السالفة والتربية الماضية وجئنا للخدمة، فإذا عفا السلطان (ص١٧١) عن ذنبنا، وألبسنا خلعة عفونا عما سلف «فإننا نخلص في الخدمة بأرواحنا ونلازم الحضرة دائماً» فاستمع السلطان لسوء الحظ لهذه الكلمات الجوفاء، وجعلهم يقسمون إيماناً مغلظة أن مخالفتهم بعد ذلك تعد منافية الإيمان. ووعدهم بأنه سيقابلهم مرة أخرى في ميدان سورين[١]. فلما وصلوا إلى الميدان أحاط الأمراء بمظلة السلطان، وضرب فخر الدين قتلغ الذي يعد في الدين أقذر من أي كلب ـ سيفه في مظلة السلطان، وقبضوا جميعاً على السلطان، وفي الجملة تضاعفت مشقة السلطان وعدم توفيقه وتزايدت محنته وسوء حظه، وبناء على ما جاء في الشعر.

شطر بيت شعر فارسي ترجمته:

إن أذى عض الأسنان لا يقضي على ورق الورد.

فقد كان السلطان أكثر من هذا ـ ينادي بأعلى صوته: «أيا موت إن الحياة ذميمة» وكان يقول:

شطر من بيت شعر فارسي ترجمته: سئمت من حياتي المشحونة بالمحن.

---

(١) سورين قرية على بعد نصف فرسخ من نيسابور.

ولما اشتهر خبر هذه الحادثة جاء الأتابك آرسلان إلى همذان، واستدعى الملك سنجر ابن سليمان من القلعة حتى يجلسه على عرش السلطنة، وفجأة وصلت رسالة إلى دار الخلافة إلى الأتابك تتضمن ما يأتي: «ينبغي أن تجلس أنت نفسك على عرش السلطنة فما الضرورة إلى شخص آخر وما الحاجة إلى قبلة أخرى» فطرب الأتابك آرسلان بهذه الإشارة واعتبرها بشارة ولم يقنع بالعمل إلى أن عُيّن فيه من قبل وبوظيفة الأتابك التي نسب إليها، وأجلس نفسه على عرش السلطنة، «وإذا أراد الله أن يهلك نملة أنبت لها جناحين»[(١)] لأن أمراء العراق (ص١٧٢) كانوا قد اتفقوا على الهجوم على ولي نعمتهم وإيذائه، وكان كل واحد منهم يعد نفسه في مرتبة الأتابك بل في منزلة أفضل منه، فكان يتحدث عن النخوة والشهامة، وتشاوروا الواحد منهم مع الآخر وقالوا: «نظراً لأننا تصرفنا بخسة مع السلطان طغرل مع وجود حق النعمة والانتماء إلى أسرة السلطنة، وتحالفنا على إذهاب سلطانه فكيف يعتمد علينا شخص آخر، وكيف يعطي شخص وزناً لصداقتنا، وقد يحدث لا قدر الله، أن يسعى الأتابك لهلاكنا لأنه ليس واثقاً من إخلاصنا له، ويريد أن يعين عبيده في مناصبنا؟» وذهبوا جميعاً وقبضوا على الأتابك وقتلوه، وفي اليوم التالي ظنوا أن هذه المملكة التي لها مستحق مثل

---

(١) شرح العتبي، ج١، ص ٣٥٩، والميداني، ج١، ص ٨٦.

السلطان طغرل ـ مباحة مثل ميراث الأب والأم فقسموها بينهم، فجعل كل واحد منهم جزءاً منها تحت حكمه وصاروا حكاماً نافذي السلطان على العراقيين.

شعر فارسي ترجمته:

صار الصغار الحقراء حكاماً على عظماء الزمان، وصار اللئام سادة على كرام الزمان وصار الأحرار حيارى مهمومين من أجل القوت، وصار الأبرار أسرى مضطرين في أيدي الفجار. وبعد أن قتلوا الأتابك، وصل الرسل من الأطراف بسرعة البرق الخاطف لرؤيته لأنهم كانوا يظنون أن أمر السلطنة قد استقر له وأن أساس سلطنته متين، وهم لا يعلمون أن كل قاعدة تكون على خلاف الأصل لا تستمر طويلاً، وكل بناء وضعوا أساسه على ريح الهوى والغرض يسقط سريعاً (ص١٧٣).

بيت شعر فارسي:

إن للباطل صولة ثم يضمحل[١].

فلما رأوا الحال على هذا المنول رجعوا متعجبين متحسرين، وكان القادمون يقولون في أثناء الطريق:

بيت شعر فارسي ترجمته:

قصر المملكة الذي رأيته قد صار خراباً، ونيل العدل الذي سمعت عنه قد صار سرابا.

---

(١) الميداني، ج٢، ص ١٢٧.

والذي حدث أن مملكة العراق استقرت تحت إمرة فخر الدين قتلغ والأمراء وصارت البئر المعطلة قصراً مشيداً»[1]، وظنوا أن ذلك الطول والعرض سيبقى إلى أن يرث الله الأرض وأن زمام الفلك المختال سيترك زمام الرغبات والمرام في أيدي هؤلاء المغرورين إلى قيام الساعة وساعة القيامة، ولكن أمرهم اضطرب من نفسه بعد مدة قليلة، فاضطربت سوق هذه الجماعة، وكان سبب ذلك أن اسفهسالار[2] حسام الدين الدزماري وبعض أشخاص آخرين أخرجوا السلطان من القلعة لأنهم كانوا يعتقدون أن شكر نعم السلطان وأياديه عليهم فرض واجب ويعرفون أن شكر المنعم عقلاً وشرعاً متحتم عليهم، فوضعوا أرواحهم على أكفهم ونادوا «صاحب الحق أحق بمتاعه» وتوجهوا إلى العراق بجيش مترام.

شطر من بيت شعر فارسي ترجمته: على أمل أن يحمد الفلك سعيهم.

ووقعت بين الفريقين حرب على باب قزوين، وكانت خيول العراقيين قد أكلت كثيراً وقد شربت من بئر النكبة حتى امتلأت فلم تكن لها طاقة على الحرب، فأغار أتباع السلطان على كل ما عند الفريق الآخر، ورفعت عروس السلطنة التي

---

(١) الميداني، ج١، ص ٣٦٦.

(٢) الأسفهسالار: قائد الجيش.

كانت صديقة قديمة للسلطان برقعها (ص١٧٤) وفتح سيد القضاء والقدر باب وطن الجد والأب للسلطان العادل.

شعر:

والـحـمـد لـلّـه عـلـى فـضـلـه

إذ رجـع الـحـق إلـى أصـلـه

بيت فارسي ترجمته: تردد القبة الزرقاء صدق الصوت القائل: جاء ماء المعالي ثانية إلى بئر الدولة واستقر السلطان على العرش، ووجه مكانه على سرير المملكة وكان يقول بلسان الشكر: ﴿يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾[1] وأمر بأن يشنقوا فخر الملك قتلغ، وفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة أجلس السيد معين الدين الكاشي على كرسي الوزارة، وجعله نافذ الأمر في حلّ أمور المملكة وعقدها، وتوجه في فصل الربيع إلى الري واستولى على قلعة طبرك، وخربها، وقتل طخاخ الخوارزمي الذي كان حاكماً على القلعة من قبل خوارزم شاه، وخلص الملك من أذى كل متسول وتدخل كل تافه، فتوجه الناس إلى بلاطه من أطراف العالم وأكنافه، وجاء إلى حضرة السلطان طائفة من الخدم دائماً يريدون أن يكونوا ملازمي بلاط السلطان مقر العدل وكانوا يدعون الله في الشدة والرخاء كصديق الغار ـ أن ينصر السلطان اللائق بالسلطنة ويرددون الدعاء بضراعة في

---

(١) سورة يس، آية ٢٧.

الصلوات اليومية بأن يعيد إلى السلطان السلطنة والملك والعظمة تطبيقاً لما جاء في الشعر:

وإنـــي لأرجـــو أن يـــعـــود زمـــانـــنـــا
بـــوصـــل فـــمـــن بـــعـــد الـــشـــتـــاء ربـــيـــع

وكانوا منتظرين إنجاح مقصودهم ويقولون:

بيت شعر فارسي ترجمته:

هـــذا الـــحـــظ الـــثـــمـــل ســـيـــفـــيـــق يـــومـــاً
وهذا الحظ الثقيل النوم سيستيقظ يوماً

(١٧٥) واتخذ البلاط رونقاً جديدة ورفعة عالية، وفي شهر المحرم من عام تسعين وخمسمائة ذم جماعة حسداً وجبناً وحقداً ولوماً ـ معين الدين الكاشي أمام السلطان الراحل، فأسند الوزارة إلى السيد فخر الدين بن صفي الدين الدراميني[(١)]. وقبض على معين الدين، وأعطى فخر الدين تمكيناً تاماً في كل الأمور.

ثم توجه خوارزم شاه تكش إلى العراق وكان كفران النعمة طبعاً في أبيه وقد ورث هذا الطبع كابراً عن كابر، وتصادف أن كان السلطان الميمون في تلك الأيام مشغولاً باللهو والطرب، وكان قد سئم تدبير أمور الملك فلم يهتم بمجيء خوارزم شاه، وهو لا يعلم أن «شر السمك يكدر الماء» ولما وصلت السكين إلى العظام، وبلغ الأمر درجة

(١) الصحيح الورامين، بالنسبة إلى بلدة ورام بلد قريب من الري.

تهد الروح وتخرب الملك والمتاع، أعد السلطان جيشاً وخرج من همذان، ونظم في ذلك الوقت هذين البيتين:

شعر فارسي ترجمته:

إذهب وأحضر درعي حتى ألبسه،

فقد جاء الوقت الذي يجب فيه أن أجدَّ

فما دام الرمح في الكف والدرع على الظهر،

فإني أفدي ملك العراق بروحي

وكان ﴿يوم التقى الجمعان﴾[1]. في شهر جمادى الآخرة سنة تسع وثمانين وخمسمائة[2]، ولما اشتغلت بين الطرفين وبدأ كل منهما يحمل على الآخر ربط جميع أمراء السلطان عصابة العقوق على جبين الإدبار، ولبسوا درع التخاذل والاندحار، ووضعوا على رؤوسهم قلنسوة الجبن والنذالة، ونظراً لأنهم قد قالوا: بيت شعر فارسي ترجمته:

(ص١٧٦) إذا أراد الرجل أن يطمئن على شهامته، فليتوجه نحو العدو باحثاً عن النزال، فإن السلطان توجه بنفسه إلى وسط جيش العدو راكباً حصاناً سريعاً.

شطر من بيت شعر: على مركب الريح تجري المواميا.

على أن أن ينتصر.

شطر من بيت شعر فارسي ترجمته: فلعل الحظ الحسن يقوده.

---

(١) سورة الأنفال، آية ٤١.

(٢) هذا خطأ والصحيح عام ٥٩٠هـ.

واتخذ الجند طريق الهرب من مواصلة القتال وتركوا السلطان فريداً وحيداً، ولما صار السلطان مضطرب الحال وبعد عن الشجعان المحاربين والأسود الهصورين توجه الجميع نحوه، وجعلوه في قيد سيطرتهم، وتوجه قتلغ اينانج لقتله فظن السلطان أنه ربما يتحقق قتلغ من شخصيته فلا يقدم على قتله ولا يسلم الزمام في ذلك العامل ليد الشيطان المجرم المكار فرفع القلنسوة من فوق رأسه.

شطر من بيت شعر فارسي ترجمته:

يا ويلاه من ظلم القريب يا ويلاه، كالباحث عن حتفه بظلفه والجادع مارن أنفه بكفه،

وكان قتلغ اينانج[1] يريده هو، فاستل سيف العدوان من غمد العصيان وقال من فرط جهله لنفسه الخسسة:

شطر شعر فارسي ترجمته:

«ألا تفعلين كبيرة مرة» وقتل السلطان وجعله شهيداً وحمله هدية إلى خوارزم شاه، فلما رأى خوارزم شاه الخصم قتيلاً ووجد مقصوده محققاً ترجل من فوق حصانه وسجد شكراً لله، وأرسل رأس السلطان إلى بغداد، وعلّق الجسد المدلل لذلك القائد المتوج في سوق الري.

---

(١) قتلغ اينابخ: ابن الأتابك بهلوان وتولى حكم أصفهان فترة من الزمن كما استولى على الري ولكنه قُتِل سنة ٥٩٢هـ.

بيت شعر فارسي ترجمته:

المُلك مُلك الله لأنه هو وحده الخالد القادر الباقي مالك المُلك، ويقولون إنهم في أثناء المعركة قبضوا على كمال الدين الشاعر الذي كان من ندماء حضرة السلطان من المادحين لمقام السلطنة وأحضروه أمام نظام الملك مسعود الوزير (ص١٧٧) فقال الوزير ذو التدبير للشاعر الحسن التقرير: «هل هذه نتيجة كل هذه الشهرة لقوة طغرل وشجاعته وبطولته وقدرته على المبارزة التي كانت شائعة في أنحاء الدنيا؟» فأجاب كمال الدين على الفور:

بيت شعر فارسي ترجمته:

كان هومان أكثر قوة من بيزن[١]، ويصير الفضل عيباً إذا عادت الشمس.

وتوجه خوارزمشاه بعد نيل المطلوب وتحقيق المرغوب إلى همذان، ولما كان الحظ مساعداً والإقبال معاوناً فقد استولى على قلاع كثيرة في مدة قصيرة وقهر كثيراً من العصاة الأقوياء، وأسند ولاية أصفهان إلى قتلغ اينانج، وأعطى ولاية الري لابنه يونس خان[٢]، ورجع هو إلى خراسان، وغربت شمس دولة السلاجقة في مغرب الفناء.

---

(١) هومان وبيزن من أسماء الكواكب السيارة.

(٢) يونس خان ـ ابن علاء الدين تكش خوارزمشاه، فقد بصره في أواخر أيامه.

شعر:

الحائزون أسباب العلا كملاً
والفائزون بأقداح السعادات
شادوا قصوراً من الإنصاف شامخة
ومهدوا كرماً فرش المبرات

وظهر قمر قوة الخوارزمشاهيين من أفق السعادة.

بيت شعر فارسي ترجمته:

لما رفعت عظمته الراية تطلب المُلك، وذهب طغرل ووضع سيف الملك في الغمد وبسط عراف الدهر المكار الغدار ـ الذي لا يدوم على حال والذي يلازم في كل وقت باب صاحب الجاه ويقف في كل قرن على عتبة كل ذي قدر رفيع بيد (ص١٧٨) الإرادة الإلهية بساط دولة الخوارزمشاهيين ورفعتهم في بسيط الأرض، وطوى بساط سلطنة آل سلجوق.

شعر:

ثم انقضت مدة إقبالهم، ودولة الدنيا متاع الغرور.
وخرجوا كما جاءوا لم يحملوا شيئاً ولم يحضروا شيئاً.

ربنا تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير.

وهذا آخر كلامنا بتوفيق الملك العلاّم

شجرة النسب السلجوقي

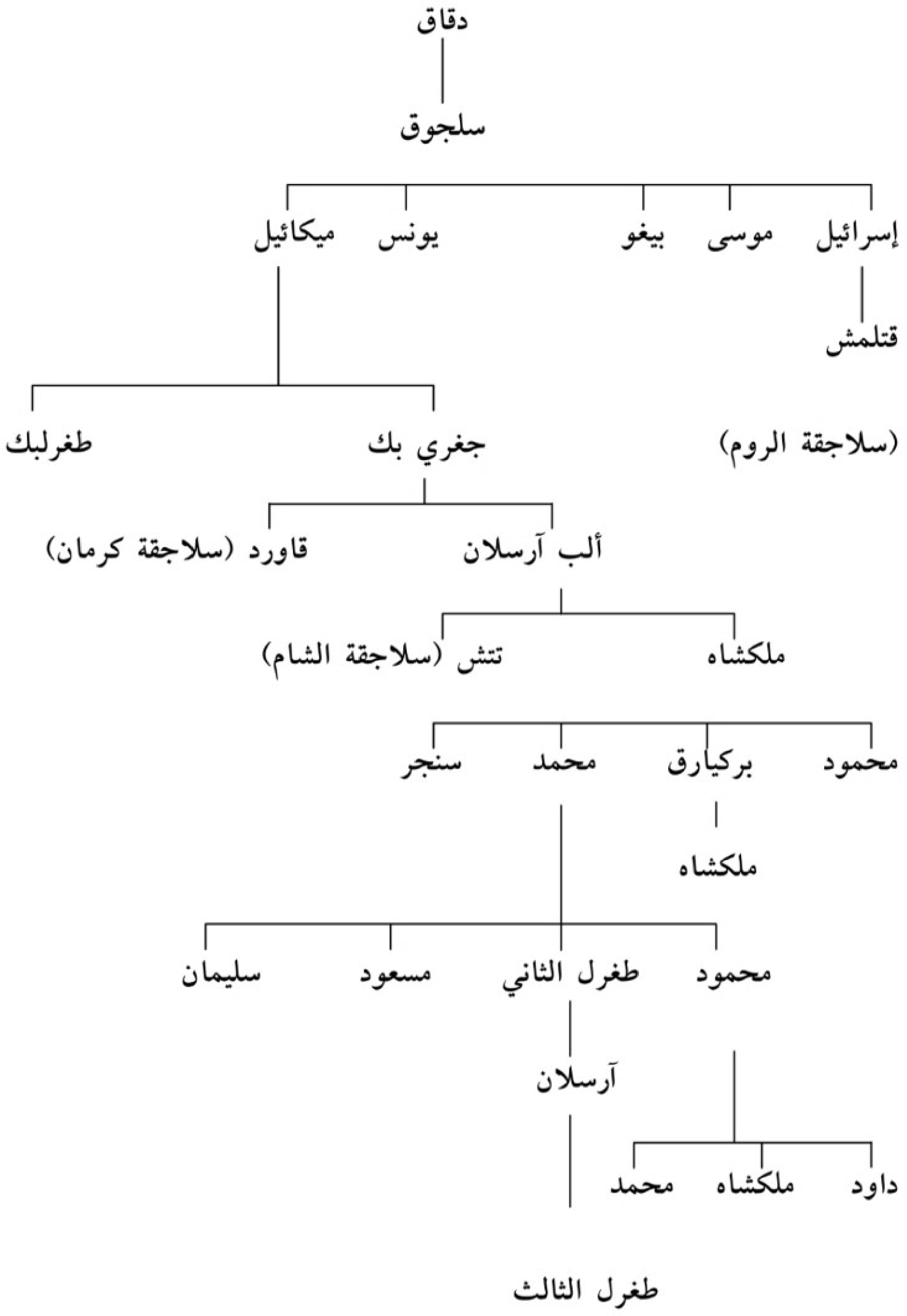

المراجع

١ ـ **ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني** ـ تـ/ ٦٣٠هـ ـ الكامل في التاريخ.

٢ ـ **البيهقي، أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي** ـ تـ/ ٤٧٠هـ ـ تاريخ البيهقي.

٣ ـ **الترمذي، أبو عبد الله محمد** ـ تـ/ ٢٩٥ـ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول.

٤ ـ **الجراحي، إسماعيل بن محمد العجلون** ـ تـ/ ١١٦٢هـ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس.

٥ ـ **ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن** ـ تـ/ ٥٩٧هـ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.

٦ ـ **حسين أمين، الدكتور حسين أمين** ـ تاريخ العراق في العصر السلجوقي.

٧ ـ **الحسين، علي بن السيد أحمد** ـ أخبار الدولة السلجوقية.

٨ ـ **ابن حنبل، أحمد بن حنبل** ـ تـ/ ٢٤٠هـ ـ المسند.

٩ ـ **ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد** ـ تـ/ ٦٨١ـ وفيات الأعيان
١٠ ـ **الراوندي، محمد بن علي بن سليمان الراوندي** ـ تـ/ ٥٩٩ـ راحة الصدور وآية السرور.
١١ ـ **السبكي، عبد الوهاب بن علي** ـ تـ/ ٧٧١هـ ـ طبقات الشافعية الكبرى.
١٢ ـ **ابن عبد الحق، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي** ـ مراصد الإطلاع.
١٢ ـ **الدكتور عبد النعيم محمد حسين** ـ سلاجقة إيران والعراق.
١٤ ـ **العلقمي، محمد بن عبد الرحمن بن علي العلقمي** ـ تـ/ ٩٦٩هـ ـ الكوكب المنير بشرح الجامع الصغير.
١٥ ـ **العماد الأصفهاني، محمد بن صفي الدين** ـ تـ/ ٥٩٧هـ ـ نصرة الفترة وعصرة الفطرة.
١٦ ـ **الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد** ـ تـ/ ٥٠٥ـ إحياء علوم الدين.
١٧ ـ **الميناني، أحمد بن علي** ـ تـ/ ١١٧٢هـ ـ شرح تاريخ العتبي.
١٨ ـ **الميداني، أحمد بن محمد** ـ تـ/ ٥١٨ـ مجمع الأمثال.

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم ٥

المقدمة ٥

ذكر ابتداء أحوال السلاجقة وبيان كيفيتهم وعددهم

أسكنهم الله تعالى الجنان وكساهم لباس الغفران ٢٩

السلطان عضد الدين أبو شجاع ألب آرسلان محمد بن

جغري بك بن ميكائيل برهان أمير المؤمنين ٦٥

السلطان جلال الدين ملكشاه ابن محمد قسيم أمير المؤمنين ٧٩

المسائل الملكشاهية في القواعد الشرعية ١٠٠

السلطان ركن الدين أبو المظفر بركيارق ابن ملكشاه

قسيم أمير المؤمنين ١٠٢

السلطان غياث الدين أبو شجاع محمد ابن ملكشاه

ناظم أمير المؤمنين ١١٧

السلطان معز الدنيا والدين أبو الحارث

سنجر بن ملكشاه برهان ١٣٥

السلطان مغيث الدين محمود بن محمد ابن ملكشاه

يمين أمير المؤمنين ١٦٢

السلطان ركن الدين أبو طالب طغرل ابن محمد بن ملكشاه

يمين أمير المؤمنين ١٦٥

السلطان غياث الدين أبو الفتح مسعود ابن محمد
قسم أمير المؤمنين ١٦٧
السلطان مغيث الدين ملكشاه بن محمود يمين أمير المؤمنين .. ١٨٣
السلطان غياث الدين أبو شجاع محمد
ابن محمد قسيم أمير المؤمنين ١٩١
السلطان معز الدين أبو الحارث سليمان بن محمد
برهان أمير المؤمنين ٢٠٤
السلطان ركن الدين أبو المظفر آرسلان بن طغرل
قسيم أمير المؤمنين ٢٠٩
السلطان الأعظم ركن الدين والدنيا معز الإسلام والمسلمين
أبو طالب طغرل ابن آرسلان قسيم أمير المؤمنين ٢٣٠
المراجع ٢٥١

يسرنا أن نزوّد المكتبة العربية بكتاب في تاريخ الدولة السلجوقية، ألف -أصلاً- بالفارسية، فوجدنا من المفيد أن نترجمه إلى العربية حتى يستطيع الدارسون أن يستفيدوا منه الفائدة المرجوة، وهذا الكتاب هو العراضة في الحكاية السلجوقية لابن النظام الحسيني المتوفى في عام ٧٤٣هـ أي بعد زوال دولة السلاجقة الرئيسية في بلاد فارس والعراق بأكثر من قرن ونصف قرن من الزمن.

وقد كان مؤلف الكتاب يعيش في العصر المغولي، في عصر السلطان أولجايتو فتعصب للسلاجقة لأنهم كالمغول من الأقوام التركية البدوية التي اجتمعت فقوي جانبها واستطاعت أن تقوم بحملات، وتقيم دولة قوية مترامية الأطراف، تستطيع أن تمثّل دوراً مهماً على مسرح التاريخ وتؤثر في تاريخ غيرها من الدول والشعوب.

ISBN 978-2-84306-090-2